تحت السماء الظالمة

■ الكتاب: تحت السماء المظلمة (رواية)
■ المؤلف: بي أم زهراء
■ الطبعة: الأولى 1441 هـ / 2020 م

بطاقة فهرسة :

زهراء، بي أم.
تحت السماء المظلمة/بي أم زهراء.– ط 1.– الدوحة: دار الوتد، 2019.
264 ص؛ 14.5 x 21.5 سم.
ترجمة: سهيل عبدالحكيم الوافي / لوحة الغلاف: سهيلة عبدالصمد كونولا
أ – القصص الهندية
ب – العنوان 891.43
رقم الايداع بدار الكتب القطرية: 2019/966
تدمك: 978-9927-138-21-8

دار الوتد
DAR AL WATAD
Qatar - قطر

هاتف: 0097444792946
موبايل: 0097466199121
daralwatad.qatar@gmail.com
ص.ب.: 22922 الدوحة، قطر.

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

جميع الحقوق محفوظة لدار الوتد،
ولا يجوز طباعة هذا الكتاب أو تصويره أو نسخه بأي صورة من الصور، التوصيل، التوصيل المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي. لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو تحريره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقمياً أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، **إلا بإذن خاص ومسبق من الدار.**

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب ومضمونه تعبّر عن رأي الكاتب وعلى مسؤوليته

بي أم زهراء

تحت السماء المظلمة

رواية

ترجمة:
سهيل عبدالحكيم الوافي

دار الوتد
DAR AL WATAD
Qatar - قطر

تقديم

من منطلق إيمانها، بأهمية دور الترجمة بوصفها قطاعًا ثقافيًا حيويًا، ووسيلةً من وسائل التواصل والمثاقفة بين شعوب العالم، التي يتم عبرها نقل الفكر والآداب والعلوم من لغة شعب إلى لغة شعب آخر، وبالتالي تساعد على خلق روح من التقارب والتفاهم بين الشعوب، وكذلك على حفظ آثار الأمم وتطويرها عبر الأجيال المتعاقبة؛ ومن منطلق دورها كقيّمة على هذا التواصل الثقافي الحيّ، حرصت وزارة الثقافة والرياضة، ممثلة بإدارة الإصدارات والترجمة، على القيام بدورها في هذا المجال، وذلك بوضع خطط سنوية للترجمة من وإلى اللغة العربية.

وفي هذا الإطار تتلمس الوزارة – دائماً – الفعاليات الثقافية المختلفة، لتكون فرصة لتبويب إنتاجها من الترجمات المتنوعة، بالإضافة إلى مشاريعها السنوية العديدة الخاصة بها.

وضمن فعالية العام الثقافي "قطر – الهند 2019" قامت الوزارة باختيار بعض العناوين من الكتب القطرية لتقوم بترجمتها من اللغة العربية إلى اللغات الهندية، وكذلك بانتقاء كتب هندية متنوعة بين رواية وشعر وفكر، لترجمتها إلى اللغة العربية.

جاء انتقاء رواية **(تحت السماء المظلمة)** للروائية الهندية المعروفة والحاصلة على جوائز أدبية في بلدها، من إقليم كيرلا، بي. ام. زُهرا، فرصة جيدة لتعريف القراء العرب على ثقافة الهند، ممثلة بجانب من جوانب مجتمعاتها المتعددة اللغات.

الرواية كُتبت باللغة المالامية، وهي لغة إقليم كيرلا، كتبت الروائية فيها عن معاناة المرأة في مجتمعها المحافظ، الذي تغلب فيه سطوة العادات والتقاليد، ويتم الخلط بينها وبين تعاليم الدين الإسلامي القويم، وتقدم حبكة فنية محكمة تنقل القارئ إلى هذا العالم لتتجسد أمامه هموم النسوة اللواتي يعانين من ظلم وقهر ذاك المجتمع، بأسلوب أدبي رفيع.

وإذ تؤكد وزارة الثقافة والرياضة على أهمية إثراء المكتبة العربية بأعمال أدبية ذات قيمة ثقافية عالية، فإنها ماضية في هذا السبيل عبر مشاريع الترجمة المتنوعة التي ستشمل كل لغات العالم الحية، ومن وإلى اللغة العربية.

1

كان البيت يعج بالأنشطة والحركات في جو ممتلئ بضوضاء عالية.. العمال منتشرون في كل جهة، يجرون مستعجلين على قدم وساق.

البيت مجهز تماماً من أجل حفل الزفاف المزمع عقده بعد غد، تم طلاؤه كاملاً، فيشبه في غاية زينته، عروساً بكامل أناقتها.

شعرت آمنة كما لو أنها حوصرت بمفردها في منتصف البحر.. كان قلبها يضطرب بضغوط من تشرف على كل شيء معاً في آن واحد.. كل آمالها أن تنتهي مراسيم العرس دون أن تبقى لعيون اللوام والعذال مطاعن..! وأن يسير كل شيء على ما يرام وفقاً لخطتها. لم تترك نذراً ولا قرباناً إلا وقدمه سابقاً من أجل ذلك.

حرصت كل الحرص أن تكون خيمة الحفل المنصوبة حول البيت فاخرة ومزينة بشكل يذهل جميع الضيوف الحاضرين، فلم تبال بمقدار الأموال التي تنفق عليها. بدأت أعمال نصب الخيمة منذ أسبوع؛ سقيفة عريضة من جرائد جوز الهند المنسوجة.. سقفها مطرز من الداخل بالقماش الأبيض، محفوف حوافه بزخرفة حمراء.. لم يستخدم القماش المشمع، نظراً لأن الشهر كان أكتوبر، إذا نزلت الأمطار الموسمية، فكل شيء سيكون في حالة من

الفوضى. الآن لم يكن هناك شيء يستدعي الخوف.. تم كل شيء، حتى تركيب الإضاءات والمراوح داخل الخيمة.. إنما تبقى أعمال الديكور والزينة، يعلق العمال تصميمات الأزهار الملونة والكرات الفضية من سقف الخيمة الأبيض.

- "أين نركب الحنفيات لغسل الأيدي؟"

سألها العمال. ردت آمنة:

- "خلوها جانب تلك نباتات الحناء.. وهي للسيدات. وللرجال، خلف الخيمة الكبيرة".

ثمة منصة بارتفاع قدمين، منصوبة في أحد طرفي خيمة النساء، لتجلس عليها العروس غداً. لا بد من تزيينها بالكامل بأكاليل زهور الياسمين. ويجب كذلك تعليق المصابيح الملونة هنا وهناك، لتتلألأ كالنجوم. ولكن كل ذلك، لا يلزم تخليصه اليوم، يكفي إتمامه غداً، قبل إقامة "حفل الحناء"، برنامج مخصص للنساء، ستحضره العديد من النساء، القريبات والصديقات والجارات.

اشترت آمنة ملابس خاصة لابنتها منيرة من أجل حفل الحناء؛ تنورة حريرية حمراء فاتحة، ذات حاشية عريضة ذهبية اللون، ومرسومة عليها زهور زاخرة ذهبية اللون أيضا، وبلوزة مطابقة جميلة مع التطريز الذهبي في صدرها وأكمامها الكاملة، بالإضافة إلى غطاء الرأس، نسيج شبكي أحمر ذو رتوش ذهبية حول الجوانب الأربعة، مع حافة أمامية منقطة بنقاط مذهبة، تتدلى على جبين العروس.

ستتألق منيرة غداً في تلك الملابس من أعلاها إلى أسفلها. أعجب آمنة ذلك الطراز من ملابس العروس حين رأت فيه عروس حفل زفاف حضرته مؤخراً، فقررت في ذلك اليوم بالذات، أن ابنتها منيرة سترتدي زياً مماثلاً في يوم زفافها، وستزين الصنادل الذهبية اللون قدميها، كل تلك الأشياء جاهزة تم شراؤها من مدينة بنغالور خصيصًا من أجل منيرة. إلى جانب ذلك، سيأتي أيضاً خبير التجميل لتجهيز العروس، وفقاً للموضة الحالية.. لكن منيرة تذمرت من ذلك القرار حين علمت به، إلا أن آمنة تظاهرت بعدم سماعها. هل يمكنها أن تتخلف عن مواكبة العصر وموضاته؟!

وبحلول وقت المغرب غداً، ستبدأ النساء في الحضور. وبعد صلاة المغرب، سيلبسن منيرة ملابس العروس ويجلسنها على الكرسي المزخرف وسط المنصة. وسيوضع أمامها صندوق المجوهرات المرصع بالعاج مفتوحًا. وسيضعن الحلي على منيرة، واحدة تلو الأخرى.. أساور عديدة على ذراعيها حتى تغطي ما بين كوعها ومرفقها؛ عشرون سوارًا على كلتا يديها، أساور سميكة مرصعة بالجواهر في كلا جانبيها، تم وضعها بحيث يكون سوار ثريفالا في المقدمة على معصميها. وعندها، تبدأ المطربات في وصف حلى العروس ومجوهراتها.. مجوهرات منيرة كلها جديدة عصرية، ما عدا قلادة كاشومالا الذهبية، ذات وزن مائتين وأربعين غراماً وكذلك قلادة باديمالا الذهبية، ذات طبقات خمس ويصل طولها إلى أسفل بطنها.. أما بقية حلاها فكانت كلها مصاغة حسب أحدث صيحات الموضة: طقم مطابق من عقد، قرطين مطابقين،

أسورة، خاتم. لا ترتديها العروس جميعها إلا في يوم الزفاف. وفور انتهاء تجهيز العروس، ستتوجه إحدى الجدات إلى جمهور الضيفات، تطلب إذنهن، وفقاً للعادة التقليدية.

- "سنضع الآن الحناء على يدي منيرة، بعد إذنكن جميعاً"

عندها يتغير لحن المطربات وسيبدأن في غناء "أغنية الحناء".

"حناء جيء به لطه محمود

في غطاء الحرير ذي خمسة ألوان.."

وهنا يأتي دور القريبات، حسب الأقدمية والأهمية، لوضع الحناء على يدي منيرة. ومن حق الأقارب من طرف الأب وضع الحناء على أصابع العروس اليمنى أولاً..أقارب الوالد!.. لكن والد منيرة....!

هناك صفية، أخت آمنة الكبيرة، وزوجها عبد الكريم، للإشراف على كل شيء، ولم يقصر أيضاً الأقارب والجيران في الاعتناء بالأمور كلها. لكن آمنة، مع كل ذلك، شعرت بأنها وحيدة تحمل بمفردها كافة المسؤوليات. تمنت لو أن لها أيضاً رجلا يخفف عنها عبئها ويقف بجانبها في ضعفها ومرضها، يواسيها، ويعتني بشؤون أطفالها.. يا ليت لها أحدا تتقاسم معه ما يثقل قلبها! مجرد أمنيات لطالما تداهمها. وفي الأيام التي جمعت فيها الحياة بينهما، لم تتلق من زوجها أياً من تلك الأشياء التي تتوق إليها نفسها. رغم ذلك، تمتلئ نفسها أملاً أن يكون هو اليوم بقربها، مع

أنها تدرك تمامًا أنه مجرد أحلام تراودها.. كانت تعيش حالة لم تعد تسيطر فيها على أفكارها..

ثمة العديد من الكراسي مرتبة في القاعة الداخلية وشغلتها جميعاً النساء الضيفات. يتوسط القاعة الكرسي الرئيسي المغطى بالحرير، تجلس عليها العروس منيرة لابسة فستان الزفاف، منتظرة قدوم العريس.. ترقص حولها فتيات طاقم رقصة "أوبّانا"، يغنين أغاني الغزل والعرس.. يطفح قلب منيرة فرحاً وحبوراً، وقد أحنى الخجل رأسها وأثقلت الحلى الذهبية على عنقها.. شعرت بأن المعلقات الحادة الحواف للقلادة تكاد تنغرز في حلقها. يتدلى القرطان من أذنيها وتلمع الذهب على ذراعيها وعنقها وخصرها، صدر صوت رنان خفيف من الأجراس الصغيرة بخلخالها.. تختلط أصوات رنين الحلى المتنوعة إذا ما أتت منيرة بأدنى حركة.

- "منيرة، ارفعي رأسك. إذا رآك العريس، قد يعتقد أن عروسه بلا رأس..."

علق إحداهن من باب المزح مما أضحك الجميع.

عندها أخبرت أخرى: "جاء العريس وزمرته". فلم يلبث أن تغادر النساء كراسيهن وأسرعن يتدافعن نحو باب الغرفة الوسطى لإلقاء نظرة على العريس القادم. قالت إحدى الأمهات:

-لا تستعجلن أيها الفتيات، بإمكان الجميع رؤية العريس بكل وضوح حين يأتي إلى غرفة العروسين.

- "يا لها من الوسامة"

- يبدو العريس أخجل من العروس.. ألن يرفع رأسه أبداً؟"

- "مراسيم عقد القران قد أوشكت على البدء. أليس الجميع موافقون؟"

طرح السؤال التقليدي كالمعتاد.

فساد الصمت الصالة المركزية. يقام عقد القران في قاعة الطابق العلوي، حيث تغطي الحصائر الناعمة الأرضية بكاملها وفرشت فوقها قطعات قماش بيضاء.. وثمة سجاد فارسي بديع، مخصص للعريس، وعليه وسادة مستديرة مغطاة بالحرير.

كان الدرج المؤدي إلى الطابق العلوي مكتظاً بالنساء.. تزاحمن فيما بينهن، في جو ممتلئ بخليط من أصوات رنين حلاهن وضحكاتهن المكبوتة ووشوشاتهن الخافتة. ولم تبق في الصالة الوسطى سوى آمنة وبعض الضيفات المسنات. لم تكن تأبه بمرور الوقت وهي تجلس هنا..

- هل انتهت الضيفات من تناول الطعام؟ ألم يحن الوقت لإحضار العروس إلى غرفة العروسين؟"

- "أين المطربات؟ دعوهن يبدأن أغنية دخول العروس إلى الغرفة".

- "هل استأذنت العروس من الجدات والعمات؟"

- "أين صفية؟ ألا تطلبين الموافقة من الجميع؟"
- "أسرعن! لابد أن آمنة تشعر بالقلق".
- "يا حبيباتي، ألم تقدمن لها شيئًا للأكل؟"
- "هي الآن لا تقدر على أكل أي شيء."
- "لا تقولي ذلك. يا صفية، أحضري لها طبقاً من البرياني. لا تحصل على شيء تأكله حتى تصل إلى بيت العريس.. ما أبعد المسافة إليه!"

جاءت أختها صفية بطبق من البرياني. أجبرت آمنة نفسها على تناول لقمتين لخاطر الآخرين. تسارعت ألحان الأغاني، أقامتها إحداهن.. شعرت بأن أرجلها لم تقو على حملها فترنحت خطواتها وهي تتسلق الأدراج إلى الطابق العلوي، مع ذلك، غمرتها سعادة دفينة.. تزاحمت النساء فيما بينهن داخل غرفة العروسين لرؤية العريس. قدم أصدقاء العريس، أطلقوا نكات ذات مغزى حين رأوا تجمع النساء ثم غادروا الغرفة.

"يا بنات، اطلعن من الغرفة، دعين منيرة تدخل..".

دفعتها إحداهن إلى الغرفة وأغلقت الباب عليها. كان جو الغرفة مشحوناً بريح العطور وزهور الياسمين.. جلس العريس برأسه المنحني خجلا، على حافة السرير المسقوف بأكاليل الياسمين. كان يرتدي قميصًا أبيض اللون كامل الكمين. وضع قلنسوته السوداء على الطاولة. نهض وجاء نحوها، أصبحت أكثر

التصاقاً بالحائط، وانحنى رأسها أكثر، حين رأته يقفل الباب. أخذ العريس صندوق الجواهر من الطاولة ومدها إليها.

- "ما لك يا خالتي؟ هل مازلت تجلسين هنا هكذا؟

سألت جزيلة خالتها آمنة.. حدقت آمنة في وجهها بعينين قلقتين. لاحظت جزيلة وجه خالتها الواجم وعيونها الدامعة، فقالت تهدئها:

- "هل بدأت تبكي من جديد؟ كيف سيكون حال منيرة إذا جلستِ أنت هكذا منعزلة، مشغولة البال ليل نهار؟ هناك ضيوف قد وصلوا وانتهوا من تناول الطعام، يطلبون رؤية مجوهرات منيرة وملابسها للزفاف".

- "قولي لأمك أن تريهم إياها، خالتك تعاني من صداع حاد. لن أشعر بالراحة حتى يعود من ذهب".

قالت جزيلة تواسيها:

- "أليس بابا من ذهب؟ لن يعود دون إنجاز المهمة. لا داعي للقلق أبداً.

كان البيت مكتظاً بالناس، إلا أن آمنة تشعر أشد الانعزال حين تكون وسط الجميع. كانت منيرة قد ذهبت لرؤية والدها، بعد أن زمع عقد نكاحها. كانت مترددة في البداية وأجبرتها آمنة على الذهاب. كيف لا ترى والدها قبل زفافها؟ ألا ينبغي أن تطلب مباركاته قبل زواجها؟ ولكن منيرة عادت من عند والدها مستاءة

ومكتئبة، وبقيت على فراشها طوال الوقت في غرفتها المغلقة.

- "مسكين بابا! صار جسداً متهالكاً تماماً!"

هذا كل ما قالته منيرة لجزيلة بعد عودتها.

لم تعد منيرة طفلة صغيرة، ولا عجب أنها تحطمت قلقاً على والده عند رؤيته على تلك الحالة. لم تستطع آمنة أن تلقي اللوم على ابنتها، وهي نفسها ليست متأكدة ما إذا تختلف مشاعرها أيضاً لو جمع بينهما لقاء آخر.. ألا تذوب حينها كل الكراهية والضغينة التي تسرها له في نفسها كما تذوب الزبدة حين تلمسها الحرارة؟ تمنى ألا يحدث لقاء مباشر معه.. اضطرب قلبها كمن عجزت عن تمالك قواها أو لملمة شتات أفكارها..

كانت بطاقة دعوة الزفاف باسم أم العروس، آمنة.. كيف يحضر الوالد لعقد نكاح كريمته ولم يرد ذكر اسمه حتى في بطاقة الدعوة؟! هل ستكون ابنتها منيرة قادرة على مواجهة ذلك الموقف بصمود؟ كيف ستنظر آمنة في وجوه الناس؟

حتى اليوم، حدث كل شيء على خلاف رغبات آمنة ونواياها. وكان والدها يواسيها دائماً ويقول إن الله تعالى يبتلي من يحبه من عباده ابتلاء متواصلاً. واليوم، ليس معها أبوها الذي كان سنداً لها وكتفاً اتكأت عليه حين عبرت مراحل حياتها الصعبة.

لا ينبغي أن تلقى ابنتها مصير أمها. تلك الفكرة الوحيدة التي شغلت ذهن آمنة أثناء البحث عن عريس لابنتها. لم تكن تولي اهتماماً بأموال العريس أو مكانته الاجتماعية أو أصله ونسبه. فقد

كان الشاب المختار نجل مسؤول حكومي متقاعد. مدخره الوحيد منزل صغير ورقعة أرض غير كبيرة، وكان الشاب أستاذاً مساعدا يدرس في كلية. شقيقته الوحيدة تدرس في الثانوية. اعترض الكثيرون من الأقارب على هذا الزواج ولكن آمنة لم تعر لهم أذنا صاغية. أعجبها بيت العريس وأسرته. والداه شخصان محترمان متسمان بالحب ودماثة الخلق. كانت قد تقصَّت عن الفتى واستفسرت عن أحواله وأخلاقه عن طريق عدة مصادر وأشخاص. لم يتفوه أحد بشيء ضده.. إنما شك الجميع في أمر واحد فقط: "هل يطابق مستواكم ومكانتكم؟"

اعترض زوج أختها منذ البداية، وكانت أختها أيضا ممن لم تعجبهم هذه الزيجة.

- آمنة، ألا ينبغي أن نفكر في مستوانا ومكانتنا؟ كيف يمكننا أن نأخذ معنا أقاربنا الأثرياء إلى بيتهم؟ ألا يرون هذا عيبا ومنقصة لنا"

- لا ينبغي أن يتجشم هؤلاء "السادة الكرماء المتباهون" عناء الذهاب إلى منزلهم..!

هكذا يكون رد آمنة على مثل تلك التعليقات، رغم أن الخوف من مصير الأمور كان يسيطر على ذهنها.. كيف يمكنها تجاهل الجميع وإغاظتهم وإهمال آرائهم، وهي امرأة دون رجل يدعمها...؟

سمعت بوق السيارة. تنهدت طويلاً ثم قالت: يا ربي..

2

يا ربي.. يا ليت آمنة اتصلت ولو مرة.. مرة واحدة فقط... على الأقل لتخبرني عن زواج ابنتنا..

قرأ جمال مرة أخرى دعوة الزفاف وهو يمسكها بأصابعه المرتعشة.

"زفاف ابنتي منيرة، والعريس محمد علي – الوالدة آمنة"

"مع أطيب تحيات، عبد الكريم" – لا، هذا ليس مكتوباً! لم يرد اسم والد العروس في أي مكان من كتاب الدعوة. مزقها جمال بقوة وألقاها على الطاولة.

صحيح، معه الحق في الذهاب إلى بيتها في أي وقت شاء. لكن..

من الذي قيد ساقيه بسلاسل غير مرئية؟ هل عليه أن يفكر عن أمنيات آمنة؟ شعر بالخدر في رأسه.. وكأنه يعاني من اختناق رهيب. ألقى نظرة أخرى على كتاب الدعوة الذي سلمته إياه ابنته منيرة عندما جاءت أمس تطلب مباركته.

"لا بد أن آمنة لم تعرف عن زيارة منيرة لي. خلاف ذلك، فإنها لم تكن تسمح لها بذلك. هل لا تزال آمنة تفكر عني؟ حتى وإن

فكرت، هل تكون ذكرياتها حولي سعيدة؟. ما الذي فعلت بها لتكرهني إلى هذه الدرجة؟ ما أطول ما كانت قائمتها من المحرمات.. لا يجوز للزوج أن ينظر إلا إلى وجه زوجتها.. لا يشرب إلا الماء.. قائمة لا نهاية لها. وإن كان يريد الحياة معها، فيجب الامتثال بتلك الأوامر كلها ليصبح عبدا لها! وما أكثر النساء اللواتي يعشن مع أزواجهن دون عناء، فقط بفضل ما يتغاضين عن بعض أفعالهم. ولكن الأمر يتطلب الصبر والتحمل.. وما الحل، ولم يكن لدى آمنة أقل قدر من الصبر أبداً" – حدث جمال نفسه متضايقا.

لم يقصر أبداً في تلبية احتياجات آمنة، حتى في تلك السنوات التي قضاها سكيراً يسعى وراء كل ملذات الحياة.. كانت في بيته معززة ومكرمة.. عاشت كأميرة في ذهنه وكذلك في بيته.. كان يحضر لها هدايا عند العودة من كل رحلة.. قلادة، أقراطاً مرصعة، ساريهات وملابس آخرى غالية الثمن.. كثيراً ما سخرت منه أمه ووصفته بالرجل المحكوم لزوجته، بسبب انصياعه المفرط لرغباتها. لكن جمال لم يكن يصغي إلى كلام أمه ولا ملامها.. اشترى ذلك القصر الجديد انقياداً لإصرار آمنة.. وكان من أجلها أيضاً أنه قرر أخيراً، وعلى مضض، الانتقال إليه من بيت أجداده الذي كان يسكن فيه مع أمه. صحيح أن والد آمنة أيضاً ساعده في ترتيب ذلك البيت الجديد، لكن جمال قد أنفق ببذخ من ماله الخاص لتجميله وتزيينه. وكل ذلك لم يكسب له سوى غضب أمه.

– "ماذا قررت يا وليدي جمال؟"

رفع جمال رأسه عند سماع سؤال أمه التي تريده ألا يمنح آمنة إذنه لعقد نكاح ابنته الكبيرة، منيرة. وهذا الذي جاء بأمه إلى بيته وجعلها تبقى عنده، لعله يغير موقفه وفقاً لرغبتها.. منذ وصولها، لا تزال تسرد له أخطاء آمنة التي تصيدتها.

- "يا وليدي، أليست هي لا تزال زوجتك؟ إذا كنت رجلاً، فأثبت رجولتك بأن تعقد حفل زفاف ابنتك هنا في بيتك. ولا تترك امرأة ما تقيم زواج ابنتك في بيتها..

- "هل بإمكانك أن تصمتي وتتركيني لوحدي يا أمي؟"

- "يا الله يا ساتر.. ألم تسمع ما قاله ابني؟ ولدي الذي تربى على يدي وكبّرته وتحملت من أجله الكثير، وحرمت نفسي من الكثير لأسعده، ثم لما صار رجلاً، أهدر بنفسه كل شيء ادّخره والده، فلم أعترض ولم أنبس ببنت شفة.. لماذا؟ لا لشيء سوى مودتي له.. واليوم، ها هو ذا الولد نفسه يرفع صوته في وجهي.. ألم تسمع ما قاله الآن؟ يا الله... "

بدأت تلطم صدرها وتبكي وتنحب. وعندما أصبح المشهد لا يطاق، قام جمال وانصرف متضايقاً إلى الداخل. كان في حالة لم يهتد فيها إلى عمل يجب عليه فعله. تمنى لو أتاه الآن حمزة، خادمه الذي أصبح هذه الأيام سيداً عظيماً لا بد من الإرسال إليه والانتظار الطويل ليحظى بلقائه. لقد غدا اليوم زعيم القرية! ليس لديه من الوقت ما يضيعه للمرور على سيده جمال! كان هو وحده الذي دمر كل شيء. وقد استحوذ شيئا فشيئا على ما كان يملك جمال من مزارع

البن الغنية الخصبة بثمن بخس وكان فيه من الزاهدين. وكان من تحايله أن يمر على جمال حاملاً الأوراق المطلوب عليها توقيعه، فقط بعد حلول المساء، عندما يذهب الخمر بسداد فكره، فيوقع حيث يشير حمزة متجاهلاً تذمر زوجته آمنة واحتجاجها.

لم تكن آمنة امرأة تعرف كيف تنجز مطالبها من زوجها بإظهار المودة والحب، بالعكس، كان أسلوبها الرد المباشر بكلمات حادة على كل شيء تراه وتسمع من زوجها. كانت الابنة المدللة لوالدها، الذي كان لا يرفض لها طلباً، فحصلت منه على كل ما ترغب وتريد. لكن، هل تتوقع زوجها أن يكون مثل أبيها؟ أما جمال فلم يتعود في منزله إلا أن ينصاع الجميع لكل أوامره وإراداته، بلا تذمّر واحتجاج.. فطبعاً لم يتوقع أبداً أن تكون زوجته حالة استثناء مما اعتاد عليه.. إلا أن زوجته آمنة لم تكن على استعداد للتغير حسب رغباته، فظلت مستعصية في كل شيء نوت تحقيقه.

ألم يخسر هو الآن كل شيء؟ لقد فقد عياله أيضًا راحة بالهم وهنائهم. رجعت ابنته منيرة من عنده بعد زيارته وهي تبكي بكاء مراً وألحت عليه قبل المغادرة أن يذهب معها قائلة:

- "أمي إنسانة مسكينة يا بابا، إنما تتفوه بدون تفكير بشيء أو آخر في لحظة الغضب.. ثم تندم ليل نهار وتتحسر على ما سبق به لسانها.."

- "لماذا ذهبت أمي من هنا، وتركت هنا بابا وحده."

تألم قلبه عند سماع سؤال ابنته الصغرى نصيرة. يا لهم من أطفال مساكين! لم تعد تعني لهم الحياة شيئاً. شابهت منيرة أمها، حيث امتازت ببشرة صندلية اللون، وعيون صغيرة، وشعر يصل إلى الركبتين. لكن نصيرة كانت صورة طبق الأصل من أبيها... ذات عيون كبيرة وشعر مجعد.

انفطر قلب جمال على رؤية الطفلتين بعد عدة سنوات. كان في حالة من الحيرة في بادئ الأمر ولم يقو على النظر إلى وجوههم. ولم يشعر بالارتياح إلا حين علم أنهم لا يكرهون والدهم. حينما كانوا يعيشون معًا، لم يكن لديه وقت يقضيه معهم لملاطفتهم وتدليلهم والاستماع إليهم. كان دوماً مزحوماً بالتزامات متنوعة لم تنته أبداً.. إلى جانب ذلك، كان هناك حشد كبير من أصدقائه الذين لا يتغيبون من حوله أبداً.

وقد مرت عليه تلك الفترة أيام كثيرة دون أن ير عياله فيها ولو مرة.. لكنه لم يفعل كل ذلك متعمداً.. إن عاد إلى البيت سكراناً، فتغضب آمنة وتستقبله بلهفة لتحاصره بالأسئلة والاستجوابات وتنتزع منه اعترافات غير صحيحة.. وينتهي المشهد دائماً ببكائها الطويل المزعج.. هذا هو السبب الذي يجعله يعود إلى البيت بعد تأكده من أن آمنة قد نامت. وفي بعض الأحيان لم يعد إلى البيت ونام في مكان عمله.

شعر جمال بجفاف في حلقه.. حينها أبصرت عيناه زجاجة خمر تُركت نصف ممتلئة على الطاولة.. قال محدثاً نفسه:

- يا ريت لو توفرت بعض مكعبات الثلج!

- "يا عبد القادر..

صرخ منادياً خادمه.

- "عبد القادر ذاهب إلى السوق. ماذا تريد؟"

- "أريد بعض الثلج."

- "لقد مرت أيام وصندوق الثلج فارغ. هل فتحت زجاجتك في هذا الصباح الباكر؟ بدلاً من أن تثمل، حاول أن تفكر فيما ستقوله لهم حين يأتون".

- فيم أفكر أنا الآن؟ سينفذون ما قرروه".

- "ألا تشعر بالخزي والعار؟ إنه زواج ابنتك. ألا ترغب في عقده هنا؟"

- "ما فائدة الرغبات؟ هل تملكين المال المطلوب لعقد الزفاف؟ هل بمقدورك إقامة الحفل على ذلك المستوى والفخامة كما يفعلون؟ أخبريني إذا كنت تستطيعن ذلك."

- لم لا؟ تضمن لك أمك توفير المال كله.. كل ما عليك أن تقف إلى جانبي..

- " أتحبين أن تشتمني وتلعنني بناتي أيضًا؟ لا تكدري بالي، دعيني وشأني"

- "إذن، تقول أمك هي الشوكة في جسدك، أليس كذلك؟

لا يزال ولاؤك لتلك المرأة التي أوصلتك إلى هذه الحالة المتردية، وأنا الشريرة"

- "أمي! "

صرخ جمال بصوت عال. عندها توقفت الأم عن الندب والرثاء، ربما لاحظت نيران الغضب في عيون ابنها..

فتش جمال الدولاب بأكملها. أخذ علبة صغيرة من "الدواء"، أفرغها في فمه مباشرة، لأنه لم يجد الماء. ثم استلقى على السرير.

- "يا الله جل جلاله، لا أقوى على رؤية كل هذا. دع كل شيء يحدث حسب قسمتك وقدرك. أنا راحلة".

- "ذلك أفضل"

تمتم جمال، وهو بين النائم واليقظان.

والدته، ومع ذلك، لم يطاوعها قلبها لتغادر المكان. خفق قلبها لرؤية جسد ابنها المذبوح ملقى على السرير.

قالت محدثة نفسها:

- "كم كان شابا مفعماً بالحيوية والنشاط! ما الذي وصل به إلى هذه الحالة.. لقد كان الابن الوحيد لأبيه المستبد والمتعجرف، والوريث الوحيد لثرواته الهائلة. ترعرع في كنف أبيه كالأمير، لم يرغب في شيء إلا وتحقق.. أرسله والده إلى مدينة تشيناي بالولاية المجاورة لإكمال دراسته. وبعد وفاة والده، لم أحرم أنا بدوري من

أي شيء رغب فيه. زوّجته من فتاة جميلة ومتعلمة. وذلك هو الخطأ الذي وقعت فيه. كانت الفتاة متعلمة ومستنيرة أكثر من الكفاية.. تفاخرت بنفسها كثيراً. ينبغي للمرء أن يعض فقط بقدر ما يمكنه مضغه.. بدأت زوجته آمنة مشاجراتها منذ اليوم الذي دخلت فيه إلى هذا المنزل. لم تقم وزناً ولا قيمة لأهل زوجها. تريد فقط زوجها.. لا والدته ولا أقاربه. كانت تستخف بكل شيء ينتمي إليه، حتى منزل أجداده الذي نشأ فيه. خرّبت داره ودمرت كل شيء ثم غادرت. هل تمر بعد ذلك كله مرور الكرام؟ إذا كثر المال لدى والدها، فليحتفظ به لنفسه في خزانته! لا يفكرن أحد عن نفسها كبيرة حتى تلعب على عائشة كوتي، أنا زوجة الحاج محي الدين كيريادان!! لا يغتر أحد بنفسه ليعلمني، ستعلمه عائشة كوتي قواعد اللعبة! تملك عائشة كوتي كل ما تحتاجه من الدعم والقوى السوداء.. لدي من الشيوخ والأولياء من يطير الدجاجة المشوية تطييراً! وقد شاعت في البلاد كله أحاديث معاناتها وبلاءها في تربية فتاتين دون دعم رجل. وها هي الآن قد اختارت شاباً دون أصل وفصل ليكون صهرها.. ولا تزال في بداية محنتها، القادم أدهى وأمر.. فأعلمها اللعبة حتى تتقن قواعدها.. يبقى عندي الكثير الكثير لأعلمها.. سأعلمها كلها شيئاً فشيئاً حتى يرتوي ثأري."

- يا عبد القادر!.. ما عدت من السوق بعد؟"

- "هل ناديتني؟"

- "تعال هنا، أيها الأحمق، اذهب إلى الشيخ كونجايان واطلب منه الحضور..

- ما لك تتردد؟! اذهب حالاً!..

سألته الخادمة زينب حين رأته يتذمر قاعداً على المقعد المنخفض في المطبخ:

- "ما الذي تُتمتم به؟"

- فقال لها:

- " يا ترى، تريد تلك العجوز أن يتحقق حالاً كل ما تفكر فيه! تريدني الآن أن أمشي مسافة أربعة أميال في هذه الرمضاء لأستدعي الشيخ كونجايان. هل عند الشيخ شيء يمنع به نكاح حفيدتها!؟"

- "كثرة السحر والتعاويذ هي التي أوصلت ابنها إلى مثل هذه الحالة. وما أكثر ما سقطت في هذا المنزل من دموع تلك المرأة المسكينة، آمنة"

حينها جاءت الوالدة وهي تصيح:

- "يا زينب! ما هذا الاجتماع المعقود هنا؟! ألم تذهب بعد يا أحمق؟

خرج عبد القادر دون أن يتفوه بكلمة.

"يا إلهي، لا تدع هؤلاء المحتالين يسبقون الشيخ إلى هنا.. لا

شك أن لديه حلول يقلب بها قلب جمال. سيرتعش جمال خوفاً بمجرد أن ينظر إليه الشيخ.. لم لم أفكر في هذا الحل من قبل؟ " تساءلت الوالدة.

- "قم يا سيدي، استيقظ.. لقد أتوا".

- "هاا؟ من؟ من الآتي؟"

- "أهل آمنة"...

"أين؟ متى أتوا؟" حاول جمال أن ينتفض ناهضاً.. لكن الصداع الشديد والخدر في الساقين..

"دعهم يدخلون"

تمكن بطريقة ما من قول ذلك.

لم يستطع جمال النهوض من فراشه. اعتراه دوار مباغت.. شعر كما لو أن العالم كله يدور حوله أو أن أحدهم يطرق رأسه بمطرقة بين الحين والآخر؟ بعد قليل، نهض بعد عناء وكثير من الجهد ثم جلس متكئاً على الوسادة. في تلك الأثناء، وصل الجمع إلى هناك.

- "ما لك يا نسيبي؟ ألا تشعر أنك على ما يرام؟"

- "لا شيء... مجرد صداع."

فقال أحدهم:

- "نرجوك أن تمنح الإذن لإقامة زفاف منيرة. عساك تجفف بذلك دموعهم".

- "حتى أنا أفكر كذلك".

- "جماااال... تعال إلى هنا..."

لم يسمع جمال والدته تناديه. لكن الزوار كلهم سمعوا ذلك.

- "تحاول المرأة العجوز وضع العراقيل. دعه يوقع بسرعة على تلك الورقة"..

همس عبد الكريم، زوج أخت آمنة.

عفا الله عما سلف يا نسيبي.. لا تقف في طريق سعادة ابنتك.. أليس هذا هو الموقف الصحيح؟"

- صحيح، أوافقك ولذلك طلبت منكم المرور علي.. ولا تنسوا أنا أباها ولي الحق أن آتي إلى هناك متى ما شئت.

لم يتحشرج صوت جمال ولم يتلعثم عندما قال ذلك، غير أن يده قد ارتجفت كقلبه حين استلم الورقة التي مدها إليه عبد الكريم..

كانت والدة جمال واقفة عند الباب تلوح بإيماءات. لكنه لم يلتفت إليها أبداً.

3

كانت الشمس على وشك الغروب.. ولم يتبق الكثير من الوقت لحلول الظلام.. والسماء ملبدة بالغيوم، والهواء ساكن لا يحرك، ولا ورقة على الأشجار.

بات جسد آمنة وكذلك عقلها يحترقان.. خرجت إلى حديقة البيت وجلست على الأرجوحة الحديدية المظللة.

انحشر رأسها بصور أبت الاختفاء عن ذهنها، زوجها.. بيته في واياناد.. الحديقة المحيطة به.. لم تقدر على نسيانها حتى بعد كل تلك السنوات.

وكان من عادتها منذ ذلك الحين أن تقضي ساعات المساء جالسة في تلك الحديقة الممتلئة بأزهار مختلفة الألوان، تتوزع فيها مقاعد الجلوس الأسمنتية على العشب المشذب جيدًا، تحفها مجموعة متنوعة من الشجيرات المزدهرة طوال العام، حتى خلال أقسى أيام الصيف. جو مريح يحمل برودة خفيفة بالرغم من ركود الرياح.. تتلاشى حرارة الشمس من اليوم الطويل مع قدوم الغسق، فيصبح الجو معتدلاً مع حلول الظلام. تسرع الشمس بالغروب وكأنها في عجلة من أمرها فتنعكس ألوان الشفق على صفحة السماء فترسم خطوطاً فنية حمراء على قمم التلال، وترسم باللون الذهبي

امتداد العشب في الوديان. مناظر خلابة لن تشبع آمنة أبداً من رؤيتها. خلال فصل الصيف، تغطي أزهار الياسمين جميع أوراق شجرتها وتنشر أريجها وعبقها في كل أرجاء الحديقة. تشعر آمنة أنها لا تنقصها شيء في الدنيا إذا جاء زوجها أيضاً أن يجلس معها في الحديقة، ملتصين بعضهما بالبعض، يتجاذبان أطراف الحديث.

انتقلت آمنة مع زوجها إلى بيتهما الجديد، عقب مشاجرتها مع الوالدة، بقلب يعج بالأحلام والطموحات. ولا يزال قلبها متشبثاً بذلك البيت، واستمرت الذكريات الملتصقة به تطاردها كحلم طالما راودها. ينتصب بيتها ذلك على بعد عشرة أو عشرين ياردة من الحديقة، وكأنه شخص جليل ذو جلالة ومهابة، يقف منتصب القامة مرفوع الهامة.

ثمة بوابة حديدية ضخمة عند المدخل، حيث يبدأ الطريق المؤدي إلى موقف السيارة أمام المنزل، وتصطف على جانبيه الأشجار المظللة. على جهة الفناء اليمنى، تصاميم عشبية دائرية الشكل مع نافورة في وسطها.. وعلى اليسار، شجيرات ورد مختلف ألوانها وأشكالها. ومن موقف السيارة تقود الأدراج المرصوفة بالرخام إلى واجهة البيت. رُصّت نباتات مزروعة في الأصائص على كلا جانبي الأدراج. وعلى امتداد سور الفناء، شجيرات الفواكه المختلفة، إلى جانب أشجار المانجو ذات الأفرع الوارفة، والتعريشات التي تسلقت عليها كروم العنب.

يقع مبنى مكتب زوجها على الجهة المقابلة من بوابة البيت. من

هناك، تمتد مزارع البن الشاسعة الكثيفة التي يربض الظلام داخلها ليل نهار. كانت خائفة من الذهاب إليها ولو في النهار. امتدت ممرات التربة الحمراء المتعرجة عبر شجيرات البن، وعلى جانبي الممرات تصطف أشجار نخيل الفوفل وأشجار أخرى ظليلة، يكتنف الفلفل المعترش سيقانها. تجمعت المياه هنا وهناك في برك صغيرة خلال الأشجار، ما جعلت الأرض تحتها مبتلة متعفنة بفعل أوراقها المتساقطة المتحللة.. لم تذهب آمنة إلى المزرعة إلا نادراً.. عندما تطأ أقدامها تلك الأرض المبتلة، تشعر بالتقزز من لزوجة الطين. يؤدي ممر التربة الحمراء إلى الشارع الرئيسي. وثمة كشك للحارس بالقرب من البوابة. وعلى جانبي الطريق، هناك أكواخ للعمال، الكثير منها شاغرة، لا يسكن فيها إلا العمال القادمون من مناطق نائية. سيصبح المكان كله مهجورًا إذا حل الغسق، فيسود الصمت والهدوء. الأصوات المتنوعة للحيوانات الليلية وحدها تكسر الصمت. مع اقتراب الغسق، تتسلل العتمة إلى داخلها أيضاً.. ثم تبدأ الساعات الطويلة التي تقضيها في انتظار زوجها.

كانت آمنة تقرأ الكثير من الروايات أيام دراستها في المدرسة، وبالأخص الروايات الإنجليزية. جاءت إلى بيت زوجها بواياناد بقلب مفعم بالروح الرومانسية، ولكنها أدركت منذ أول يومها في بيته أنه لا مجال للرومانسية في الحياة معه. وقررت الانتقال إلى البيت الجديد عندما أصبح من المستحيل بمعنى الكلمة التكيّف مع ذلك المحيط. أحبت البيت الجديد ذا النوافذ الزجاجية الكبيرة على كل جهة من جدرانها.

يفتح الباب من موقف السيارة إلى مجلس واسع محيط بنوافذ زجاجية. وبعده الممر الطويل الذي تقع على جانبيه غرف كثيرة. وغرفة نومهم كانت على الجانب الأيمن من الممر. خارج الغرفة، ممر خارجي طويل ذو شبابيك ويفتح منه باب يقود إلى الحديقة. كانت آمنة تجلس في ذلك الممر وتقرأ القرآن بعد صلاة الفجر، في جو يلاطفه نسيم الصباح وتملأ المكان أصوات الطيور وزقزقة العصافير.. بيئة لا بد أن تهدئ القلب وتنعش الجسم، إلا أن قلبها كان يظل محترقاً متألماً، كيف لا وهذا هو الممر الذي اعتاد زوجها أن يسترق الخطى منه متسللاً إلى جوف الليل.. ولكنها علمت بعادتها تلك فقط في وقت لاحق.

يبقى زوجها في مكتبه طوال ساعات النهار. ونادراً ما يجيء إلى البيت بعد الظهر لتناول الغداء.. وإن لم يأت، فعليها إرسال غدائه إلى المكتب. كان يغادر المنزل مبكراً في معظم الأيام ولا يعود إلا بعد حلول العتمة. عندما يكون مزاجه على ما يرام، يجلس معها في بعض الأيام في الحديقة يتحدث إليها. ولا يمر قليل من الوقت حتى يكون في عجلة من أمره للاستحمام واللباس والخروج.

أصبحت آمنة مهمومة من أن يكون ذلك أمراً عادياً يتكرر كل يوم. حاولت أن تحدثه عن ذلك بود ومحبة فتجاهلها. وأخيرا، لعبت آمنة ببطاقتها الأخيرة.. بقيت في سريرها لمدة يومين وأضربت عن الطعام والشراب. أتى ذلك بشيء من المفعول، توقف جمال عن طلعاته المسائية. لكنه صار يجلس في الحديقة ومعه زجاجة

الخمر، فور عودته من المكتب، حتى بدون تبديل الملابس، برفقة جماعة من الأصدقاء. يقف حمزة حارساً على اجتماع الندماء. حينما تمتد المسامرة إلى وقت متـأخر من الليل، تنزل آمنة إلى الحديقة وتقبل إليهم عند نفاد صبرها.. ما أن يرى ظلها حتى يتلاشى حمزة من المشهد. وإذا نادت زوجها وطلبت منه الرجوع إلى البيت، يتبعها دون احتجاج، مودعاً مسامريه.. ثم يسرع إلى غرفة النوم بعد أن يتناول شيئًا لخاطرها دونما رغبة.

ذات ليلة، استيقظت من نومها فزعة على أضواء البرق المبهرة التي اخترقت عيونها.. تقتحم الريح الهائجة إلى الغرفة من خلال النوافذ، رافعة ستائرها.. يزمجر الرعد بشكل تهتز له فزعاً، وهي من يفزعها الرعد والبرق منذ الطفولة.. تحسست بيدها زوجها على الفراش، بحثاً عن ملاذ عنده في لحظة فزعها.. إلا أنها لم تجده على الفراش.. هل يكون قد زعل عليها ونام على الأرض؟ شغلت الإضاءة.. لم يكن موجوداً في أي مكان داخل الغرفة.. ارتجفت من الخوف.. جف اللعاب في حلقها.. عند ذلك، استيقظت ابنتها الرضيعة، منيرة، في المهد وبدأت في البكاء بصوت عال.. أخذت آمنة الطفلة وفتحت الباب وخرجت من الغرفة إلى الصالة الوسطى.. كان الظلام يعم البيت ويستر كل شيء.. والعمال كلهم نيام.. لم يهتد عقلها إلى شيء يجب فعله.. لم يزل الرعد يجلجل بشدة.. لما عادت منيرة إلى النوم، أضجعتها على الفراش وغطتها. أحست بشيء كالشوكة تنغرز عميقاً داخل بطنها.. كانت في تلك الأيام حاملاً بابنتها الثانية نصيرة. نهضت من السرير ووقفت تنظر إلى الخارج من

النافذة.. كان المطر قد توقف، وإنما تتساقط القطرات التي حبستها أوراق الأشجار.. وما زالت السماء ترعد وتبرق من حين إلى آخر. قررت أخيراً أن توقظ الخدمة.. وعندها سمعت صوت المفتاح يدور في باب الممر الخارجي. ارتعش جسدها كورقة شجرة واهنة.. لم تتمالك حبس بكائها.

سألها جمال:

- ما لك تبكين في منتصف الليل هكذا؟

- أين كنت حتى الآن، من أين تأتي؟

- "حظيرتنا مليئة بمحاصيل القهوة والفلفل. شعرت بعدم الارتياح عندما بدأت السماء تمطر. لذا خرجت للتحقق مما إذا كان العمال قد وضعوا أكياس القهوة في الحظيرة. حراميون كلهم، يغشون إذا لم أراقبهم كل وقت."

- "ألم يمكنك أن تخبرني قبل أن تغادر؟"

- "كنت تغطين في النوم.. لماذا تشعرين بكل هذا الخوف؟ تعالي، هيا ننام..

ضمها إلى صدره ومشيا معاً نحو السرير.

أصبح ذلك عادة روتينية. كانت قد سمعت عنه سابقاً أشياء عديدة.. فحاولت جاهدة ألا تصدقها. كم تأخرت حين علمت بأمر إدمانه الخمر! ومنذ اليوم الذي أدرك أنها أصبحت عالمة بذلك، صار لا يتردد في الشرب مع الأصداق داخل البيت! وهذا جعلها

تفكر أحياناً أن من الحكمة تجاهل كثير من أفعاله والتغاضي عنها، حتى لا يتمادى فيها علناً. لكن قلبها لم يطاوعها في تنفيذ استراتيجيتها، حيث فقدت السيطرة على نفسها عندما فوجئت بأشياء لا تطيقها أبداً، تقع نصب عينيها. كان ذلك هو السبب في إصرارها على عدم الذهاب إلى بيت أبيها لتضع مولودها الثاني.

عندما سمع والدها بقرارها، قال لها قلقًا:

"عزيزتي، لا يوجد حتى مستشفى في تلك الغابات؟!"

"مستشفى البعثة ليست بعيدة، بابا."

"أن تضعين مولودك ليس هو كل ما في الأمر.. ألا ينبغي أيضاً أن نأتي ونسكن معك بضعة أيام؟ كيف نسكن في تلك الغابات؟ لن أستطيع المبيت في ذلك المكان المهجور ليوم واحد."

شكت أختها صفية.

هل يمكن آمنة أن تكشف عن السبب الحقيقي لهم وتصارحهم كل شيء؟ صارت تسمع كل يوم قصصاً جديدة عن حركات زوجها الطائشة وهو مخمور. لم يكن يأبه لأمورها ولم يتذكر حتى أنها حامل، لكنها لم تبد أي احتجاج. ومع ذلك، لم تطق نزهاته بعد منتصف الليل.. تستيقظ من النوم ولا تجد زوجها بجانبها.. ثم تنتظر ساعات حتى تسمع صوت فتح الباب بالمفتاح.. تعتريها رجفة حينما تتذكر تلك الليالي.. كان يعود معظم الأيام فقط قبيل الفجر ويستلقي على السرير بجانبها، يضمها إلى صدره، متظاهراً

أنه لم يحدث شيئاً. حين يدخل إلى الغرفة تدخل معه رائحة نفاذة مقفزة للسيجارة والمشروبات الكحولية والبودرة.. تضطجع آمنة متحملة أنفاسها.. لا تقدر أن تبقى هكذا لفترة طويلة.. تشعر في صدرها بركاناً محتدماً لا يخمد، حينما تحس أن نيرانها كادت أن تلتهم جسدها كلها، تنهض وتذهب إلى الحمام وتصب الماء البارد على رأسها، ولا تشعر أن جسدها صار نظيفاً حتى بعد الاستحمام. ويعلو عندها صوت الأذان من المسجد، ينادي المؤمنين لصلاة الفجر.

كان من عادة جمال أن ينهض باكراً بالرغم من سهره الطويل. وبعد تنظيف الأسنان وتناول الشاي، يذهب للمشية الصباحية، يرافقه حمزة، مدير أعماله، وصديقه منذ الصبا، خادمه الذي يلبي جميع رغبات سيده حتى قبل أن ينطق بها.

وفي الساعة الثامنة تقريباً، يعود جمال إلى البيت مستعجلاً. سرعان ما يعج البيت بنداءاته المتواصلة لها.. لا يدعها تغيب من عنده، يحتاج خدمتها في كل شيء، في الاستحمام، وحلق اللحية وتغيير اللباس وهكذا.. يناديها بصوت عال إذا لم يجدها بين يديه للحظة.. لا يتركها تذهب من عنده حتى لو كان الطفل يبكي. كانت تتساءل حين ترى منه هذا التودد والاعتماد، ما إذا كان هذا هو نفس الرجل الذي ترى منه في الليل ما ترى. يقع مكتب عمله على بعد فقط عشرة ياردات من البيت، ومع ذلك لا يغادر البيت إلا بعد أن يهتم بهندامه الخارجي على أكمل وجه ويختار ملابسه بعناية ودقة،

يبالغ في التعطر والتزين، وتظل رائحة بودرة ما بعد الحلاقة والعطور عالقة في الجو لفترة طويلة بعد مغادرته.

عندما يكون في البيت خلال النهار، يرغب أن تكون بجواره كل وقت، يتدحث معها بود أحاديث خفيفة.. ويحرص على تقربها وتوددها، خصيصاً في حضور الضيوف، فلا ينطق اسمها بالكامل إظهاراً ببالغ حبه ومودته لها ويناديها "آمي.. حبيبتي". كان شخصاً محترماً محبباً لدى أهل آمنة أيضاً، حيث كان يحسن التصرف مع كل واحد بطريقة تعجبه. كان والدها يأتي إلى واياناد لزيارتها كلما وجد متسعاً من الوقت، فيغمره بضيافة كريمة وحفاوة عظيمة.. حتى يضطر أبوها، الذي يأتي بنية مجرد المرور عليهما، أن يؤجل عودته فيمكث معهما ليومين. عندما يكون والدها في البيت، يخفض جمال حصته من الشرب، كما يعود من المكتب في وقت مبكر، ويتوقف أيضا عن عادة الخروج ليلاً.

-" يا حبذا لو كنت هكذا كل يوم؟"

كانت تسأله آمنة حين يغادر والدها. فيضحك جمال ببساطة دون أن يرد عليها.

كانت تشكو من زوجها في بعض الأحيان إلى والدها. فيقول لها:

"لماذا تتصرفين كطفلة يا آمنة؟ كيف ينام جمال براحة البال ما لم يطمئن على المخزن المليء بالقهوة والفلفل؟ ألا تعرفين مسؤوليات الرجل؟ تذكري أنه ليس من السهل إدارة مثل هذا القدر الكبير من المؤسسات والممتلكات"

أنجبت طفلتها الأولى، منيرة في مستشفى في منطقة بيت والدها. أخذها والدها من بيت زوجها إلى بيته حين وصلت للشهر السابع من الحمل. كانت تلك ولادة متعسرة.. فور نقلها إلى المستشفى، أبلغوا زوجها الخبر. فاعتذر عن المجيء قائلاً:

"يجري إضراب في المزرعة، غيابي في هذا الوقت قد يؤدي إلى تفاقم المشاكل.. لا أستطيع القدوم الآن"

وبعد مرور أسبوعين من الولادة، جاء جمال للقاء زوجته ومولودته الأولى.. لا تزال ذكرى وصول جمال حية في ذهنها.. قدم ويداه مليئتان بالهدايا وابتسامة مشرقة تضيء وجهه.. حين رأته أشاحت بوجهها وأظهرت امتعاضها وعيونها تفيض من الدمع.. إلا أن جمال أظهر عندها كعادته مهارته في الاعتذار وإثبات البراءة، بكلامه المعسول وتودده لها بالمعانقة والتذلل العاطفي.. ولم يبرح مكانه إلى أن خمد غضبها وطاب له خاطرها.

وكان جمال في الحقيقة يتجول تلك الأيام في شوارع مدينة بنغالور مع امرأة أخرى، بينما كانت آمنة ترى الموت وجهاً لوجه خلال ساعات الولادة العسيرة.. لقد تكسر قلب آمنة حزناً وسالت عيونها دماً على سماع ذلك الخبر الرذيل فيما بعد، أجهشت بالبكاء وشهقت شهقة المحتضر ولطمت على صدرها. وجد جمال ما يبرر فعله ذلك أيضا، حيث قال إن تلك المرأة كانت زميلته في الدراسة، قابلها بالصدفة خلال اجتماع اتحاد صناع القهوة في مدينة بنغالور، واضطر إلى أن يذهب معها إلى بيتها جراء ظروف طارئة إثر إصابة

زوجها ببعض الأمراض الخطيرة، ولم ينف أن صديق والد آمنة قد رآه مع تلك المرأة في الفندق، وذلك حين جاءت إلى الفندق ليطلب منه أن يذهب معها.

-ألست من تفتخرين دائمًا بأنك امرأة متعلمة. فكيف تكون داخل رأسك هذه العقلية الضيقة؟ تشهقين مثل النساء الساذجات؟ يا له من عار."

كان ماهراً في طمس كل القرائن والدلائل، وليس عجباً إذا أقنعها بعدم وجود شيء تراه بأم عينيها.. ذات مساء، بينما كانت جالسة في الحديقة، سمعت ضجة وضوضاء من مكتبه. خرجت من البوابة وأسرعت إلى المكتب، رغم أنه كان منعها وعيالها منعاً باتاً من القدوم إلى مكان عمله.. وهنالك وجدت الموظف علي واقفاً متضايقاً في الممر الأمامي لمبنى المكتب.. وكان غرفة زوجها مصدر الضوضاء والضجيج.. دخلت إليها مباشرة فإذا بفتاة تبكي في زاوية الغرفة ومعها رجل متوسط العمر، يبدو من ملامحه أنه والدها، يتكلم في صوت عال. سألته آمنة:

-"ما الأمر؟".

زجرها جمال زجراً حينما فوجئ بها في مكتبه وصاح في وجهها:

-" من الذي دعاك إلى هنا؟"

-"سمعت الضجيج والصراخ من هنا، ما هي المشكلة؟"

فقال:

"كلهم مخادعون.. هذه من نوع النساء التي تشوه شرف المرء لمجرد أن يتحدث إليها..

كانت الفتاة لا تزال تبكي. قال والدها:

"نحن فقراء. جاء رجل إلى بيتنا ليلاً يطلب مني أن أرسل ابنتي معه إلى هنا.. لم تتوقف ابنتي هذه عن البكاء منذ أن سمعت ذلك.. وهي مخطوبة سيتم زواجها قريباً.. وسيكون شرفنا على المحك إذا ما عُرف الأمر، جئنا الآن إلى هنا لإبلاغ تظلمنا..".

-يمكنك الآن أن تذهب، أنت وابنتك."

قالت آمنة بصوت حازم فيه نبرة تواسيهم. ظلت واقفة هناك لبعض الوقت، تراقب الأب وابنته يغادران مطأطئي رؤوسهم إلى الأرض. ولما عادت إلى وعيها بالموقف، لاحظت مجموعة من العمال في الفناء، يطالعونها، فاستنزفت كل شجاعتها وانطلقت هاربة إلى بيتها.. أخذت منيرة التي كانت تلعب في الحديقة.. غادرت البيت وركضت إلى السيارة، وجلس فيها. وقف السائق مذهولاً متردداً.. ما شغل السيارة إلا حينما حدقت فيه بحدة، بعد أن أوقف المحرك عند رؤية سيده يقترب من السيارة. فأمرته بصياح في وجهه:

"رح، روح، امش يا حمار"

4

توقفت السيارة في فناء بيت أبيها. كانت الحديقة غارقة في ضوء القمر. حين دخلت السيارة من البوابة، رأت آمنة أختها صفية في عشب الحديقة تجلس مع زوجها، يتحدثان مع بعضهما البعض.. انتفضت أختها واقفة عند سماع صوت السيارة.. جاءت تركض إلى موقف السيارة حين وقفت فيه. نزلت آمنة من السيارة حاملة ابنتها منيرة التي نامت على كتفها ثم هرعت إلى البيت، من غير أن تلقي إلى أختها حتى نظرة واحدة.

-"كيف تأتين وحدك يا آمنة، وفي هذه الساعة المتأخرة؟ ألم يأت معك زوجك؟"

لم يجد سؤال صفية من يجيب عليه. تبعتها صفية إلى الداخل.

كان أبوهما، الحاج حسن، جالساً على طاولة الطعام، منتظراً عبد الكريم، زوج صفية، لتناول العشاء. عندما رآى صفية، سألها:

-"هل قالت لك آمنة شيئًا؟"

-"لم تنبس بكلمة واحدة. إذا طلبت منها المزيد، أخاف أن أسمع منها ما لا يرضيني".

-"لا تطلبي منها أي شيء الآن. اتركيها لحالها حتى الصباح...

- آمنة، تعالي وتناولي العشاء"

ناداها والدها. جاء صوت بكاء الطفلة، منيرة عالياً من غرفة آمنة متبوعاً بصوت إغلاق الباب بعنف. قالت صفية:

-"عائشة، اذهبي وأحضري الطفلة من هناك، لا بد أنها تبكي من الجوع. ما زالت أمها تظن نفسها طفلة.. تخرج من بيت زوجها لأسباب تافهة، وتكبر الموضوع حتى يصير مشاجرة! إنه بابا هو الذي دللها وأفسد سلوكها هكذا."

أصبح بكاء آمنة أكثر حدة، ربما سمعت ما قالت صفية. وبدأت تغمغم وتسرد مآسيها واحداً تلو الآخر. قال الحاج حسن لصفية، متضايقاً من سماع بكاء آمنة:

-"صفية، اصمتي"

-"يمكنك إسكاتِي. لكن من سيُسكِت السكان المحليين؟ من يملك زمام ألسنتهم؟ هذا ليس بشيء بدأ في الظهور بين ليلة وضحاها..

التفتت لتسأل زوجها عبد الكريم.

-لماذا لا تأكل شيئًا؟"

-"أكلت ما يكفيني.."

نهض عبد الكريم وغسل يديه.

-هل لاحظتم أن زوجي لم يأكل شيئًا. كل الذي قدمت له في الطبق لا يزال كما كان. فلتصل من تصل بمشاكلها، وتسكب دموعها لتعكر بها صفو حياة الآخرين".

ازداد بكاؤها حدة ومرارة.. اختلست الخادمات الأنظار من وراء باب المطبخ.. انسحب عبد الكريم إلى الطابق العلوي دون أن يقول شيئاً.. نهض الحاج حسن أيضاً نافضاً يده اليمنى.

ذكرته ابنته صفية:

-"بابا، عليك تناول أقراص الدواء. لا تذهب إلى الفراش على معدة فارغة."

ذهب الحاج حسن إلى غرفته دون أن يأخذ الدواء وهو يحاول أن يسيطر على الغضب الذي اضطرم بداخله.

لم تستطع آمنة النوم.. قضت الليلة كلها تتقلب في فراشها ذات اليمين وذات الشمال.. تمنت كثيراً لو أنها فقط تقدر على نسيان كل شيء وتنعم بالنوم هذه الليلة! شعرت بالعطش، نهضت وأشعلت الضوء. وجدت على الطاولة كوباً مغطى من الحليب، بجانبه طبق من التفاح والموز، شربت شيئاً من الحليب. أما منيرة فكانت قد غطت في النوم حين سئمت من البكاء.. بدت شفتاها ترتعشان، وكأنها على وشك البكاء من جديد، وهي نائمة.. يا لها من طفلة مسكينة!. ما أشد ما عانت في عمرها هذا دون ما ذنب جنته. طبعت قبلة على خدها المرسوم عليه علامات الدموع التي جفت.

كانت الخادمة تغط في سبات عميق وتشخر بصوت عال من تحت السرير. "المرأة متكورة على نفسها كالروبيان المطبوخ" - تمتمت آمنة في نفسها واستلقت على الفراش مرة أخرى بعد أن دخلت إلى الحمام، وسرعان ما انجرفت إلى النوم أثناء انغماسها في التفكير عن أشياء عديدة تصدع رأسها.. استيقظت على سماع أصوات لعب الأطفال وضحكاتهم. كانت منيرة وجزيلة، تتقافزان على السرير. نهضت آمنة.

سألتها جزيلة:

-" متى وصلت أمس يا خالتي؟"

-"ألا تذهبين إلى المدرسة اليوم؟"

نادتها صفية من الأسفل:

"بنيتي جزيلة، لقد تأخرت. ألا تذهبين اليوم إلى المدرسة؟ بابا يناديك"

قالت آمنة لجزيلة:

-"انزلي، حبيبتي. ستواصلين اللعب عندما تعودين في المساء".

-"خالتي، لا ترجعي اليوم، أرجوك. حبيبتي منيرة، ستعود إليك أختك من المدرسة في المساء.. باي باي.

حالما غادرت جزيلة، بدأت منيرة في البكاء من جديد.

-"تعالي، سأفرش لك أسنانك."

-"لا، "بياثا" تنظف لي أسناني".

اعتادت منيرة أن تقوم الخادمة "بياثو" برعاية شؤونها كلها.. تصطحبها معها أينما ذهبت. لكن آمنة غادرت بيت زوجها أمس حتى دون إخبارها واستقّلت السيارة مستعجلة مغتاظة..

قالت عائشة، التي وصلت هناك حين سمعت بكاء الطفلة:

- "تعالي.. يا حبيبتي. سأريك غرابًا".

-"لا، أريد أرى "بياثا".

بدأت منيرة تبكي مرة أخرى.

فقالت عائشة:

-"هنالك ببغاء يتكلم في الطابق السفلي، سأريك إياه إذا جئت معي"

هذه المرة فازت عائشة بقلب الطفلة وتمكنت من أخذها إلى الطابق السفلي.

قامت آمنة وفتحت خزانة الملابس، كانت تحتفظ فيها دائماً بزوجين من الساري لها وفساتين لمنيرة، لأنها في كثير من الأحيان تأتي هنا هكذا؛ خالية الوفاض، بعد مشاجرة مع زوجها. نزلت آمنة إلى الطابق السفلي بعد تفريش الأسنان والاستحمام.

كانت صفية تقف بجانب مائدة الطعام، تقدم الإفطار لزوجها. توحي عيون عبد الكريم التي ترمق صفية بنظرة مداعبة وخدودها

المتوردة أنهما يتشاركان نكتة ذات مغزى خاص بهما.. غيرا موضوع الحديث حالما رأيا آمنة قادمة نحوهما.

قال عبد الكريم لآمنة:

-"توني سألت صفية ما إذا كانت آمنة مستيقظة.. كيف أخبار جمال؟ أليس في البيت؟ من المفروض أن يصل هنا بهذا الوقت، إذا لم يكن مسافراً"

لم تقل آمنة شيئًا.

-"آمنة، تعالي. تناولي فطورك. لماذا لم تأخذي معك الخدامة "بياثا" هذه المرة؟ لم تتوقف منيرة عن البكاء حتى الآن".

سألتهم آمنة:

-"أين بابا؟".

-"إنه في الشرفة، يقرأ الجريدة."

فقال عبد الكريم لزوجته:

-"صفية، تعالي، تأخرت عن الخروج. دعي جزيلة تذهب معي، لأن بابا قد يخرج متأخراً".

امتلأت عيون آمنة بالدموع عندما رأت أختها صفية تصعد الدرج خلف زوجها. كل شيء حظ وقسمة.. ليس لدى عبد الكريم سلوكيات سيئة، وإن كان سريع الغضب. إذا استفز، فسيتصرف كالمجنون ويتفوه بأي شيء يخطر بباله. وقد يبلغ الأمر في لحظات

غضبه إلى أن يصفع صفية صفعة.. وهي أيضاً لن تستسلم، بل يثبت كلاهما في المعركة. رغم ذلك كله، سينسى كلاهما كل ما حدث عند الوصول إلى الفراش ليلاً، وسرعان ما يتصالحان.. كانت صفية هي التي تسبق دائمًا إلى السلام والصلح. وفي الأيام التي يعود فيها عبد الكريم متجهم الوجه من مكان عمله، تجلس صفية بجواره، تذرف دموع التأسف والاعتراف، حتى تتلاشى ملامح الغضب من وجهه وتظهر فيه نظرة التعاطف لها. ثم يذهبان إلى الخارج ويعودان، حاملين ملئ أيديهم أكياساً عديدة وعيونهما تشع نوراً وسروراً، هذا المشهد بحد ذاته من دواعي سرور للناظرين.. تساءلت آمنة؛ يا ليت حالي مع جمال يكون على الأقل مثل حالهما.. وليتشاجر معي.. أو حتى يصفعني، سأتحمل ذلك كله.. لكن.. إذا وصل الأمر أن أجده مع النساء الأخريات في غرفة النوم.. لن أستطيع تحمل ذلك.

-"آمنة، عزيزتي.. وصلت أمس ولم تأت عند أبيك حتى الآن؟"

عند سماع سؤال والدها، ركضت إليه آمنة وانحنت على صدره وهي تنتحب.

-"ما هذا يا عزيزتي؟ هل تثيرين مثل هذه الضجة والاهتياج على الأشياء التافهة؟"

-"هذا ليس شيئًا تافهاً يا بابا. رأيت كل شيء بأم عيني..."

-"سنجد حلاً لكل شيء. اذهبي الآن وتناولي فطورك.."

-"جدّو!"

نادته منيرة، التي بدت أكثر جمالاً ونشاطاً بعد الاستحمام، وركضت إلى جدها وعانقته. حملها بين ذراعيه ولاطفها وربت عليها.

-"ماذا تريدين حبيبة جدو؟ هل أشتري لك فيلاً ذو ناب؟"

-"أنا لا أريد ذلك. أخاف من الأفيال."

-" إذن، ما الذي تريدنه؟"

-"الببغاء المتكلم".

-"ها..ها، شطورة!. هل أكلت فطورك حبيبتي؟ أولاً، تناولي فطورك ثم تعالي عندي. سنذهب بعد ذلك إلى العِزبة. يا آمنة، ألا تأتين معنا أنت أيضًا."

-"لماذا تخرج بها إلى المزرعة الآن وهي نازلة من الجبل فقط البارحة.."

-"هذا صحيح.. سنذهب إلى العزبة يومًا آخر".

-"أريد أن أذهب الآن"، بدأت منيرة في البكاء.

-"عزيزتي، سيأخذك جدك إلى مكتبه الآن، ثم سيشتري لك الشوكولاته. دعي جدو يستحم ويتجهز..

وأضاف ملتفتاً إلى آمنة:

- آمنة، لا تصدعي رأسك بأفكار شاردة. لا يقدر زوجك أن

يقضي أكثر من يومين بدونك.. سيصل هنا غداً، وربما سيأتي اليوم نفسه".

-"لن أذهب معه حتى لو جاء! لا تجبرني على الذهاب، أرجوك!"

بدأت آمنة بالبكاء.

قالت لها صفية:

-"آمنة، لماذا تجادلين بلا معنى؟ إن الجدال لا يأتي بخير، أما سمعت ذلك؟"

-"أختي، لن تفهمي مشاكلي.. أنت من لا يتجاوز زوجها حدودها وليس له كلام بعد كلامها."

-"آها.. هذا الذي تقولين! إنه أمر مضحك حقاً.. الأمر يحتاج إلى شيء من الذكاء والصبر.. أطيع وأخضع وأتذلل له حتى وإن وبّخني وشتمني أو صفعني. ولو كنت أكشر عن أنيابي في وجه زوجي في لحظة غضبي مثلما تفعلين....."

-"حسناً، فأنا غلطانة! كل شيء ذنبي! يا الله... يا ليتني بالقبر ميتا ومدفونا..."

5

-"التهديد بالانتحار حل سهل، خاصة لمن تحمل واحدة في حضنها، وأخرى في رحمها..! ما هي هذه اللعبة الخطيرة التي تلعبها يا بابا أنت وابنتك؟ مر يومان ولم يحضر بعد زوجها! وهي لم تتصل به حتى الآن.. ياله من رجل مسكين! لن يتحمل هذا غيره! بابا، أنت أيضاً تؤيدها في تصرفاتها هذه؟

-"صفية، في رأيك، ما الذي يجب علي فعله؟" تريدينني أن أضرب آمنة وأقهرها على المصارحة بما في نفسها؟ لا بد أنها قد رأت شيئًا لا ينبغي أن تراه. وإلا، لما كانت متعصبة ومتحطمة إلى هذه الدرجة".

-"كم مرة أوضح لك جمال كل ما حدث؟ بعد ذلك كله، تتظاهر بعدم الاقتناع؟ بابا، أنت تعرف عنادها جيدًا. لا ينبغي لنا اتخاذ مثل هذا القرار دون تفكير جيد. ماذا لو استعصى جمال أيضًا مثلها وأصر على رأيه؟ "

ولما لم تجد أي رد من والدها، ذهبت صفية إلى الداخل وهي تتمتم. شعر الحاج حسن وكأنه قد وقع في فخ لا مفر منه. لم يقو على إجبار آمنة حين ينظر إلى ملامح وجهها الكئيبة.. ولم يستطع رفض مبررات جمال أيضًا. يعلم أن طبيعة آمنة حساسة للغاية.. مع ذلك،

هل ستتصرف هكذا بدون أي سبب؟ ظلت آمنة تتشكى عن زوجها منذ فترة طويلة.. ولكن سلوك جمال كان يبعد من الذهن كل شيء قيل عنه، فيرجع الحاج حسن غير قادر على سؤاله شيئاً.. آمنة يتيمة الأم، لكنها تربت وترعرت مدللة معززة في أحضان والدها، ربما ترك ذلك في سلوكها آثاراً سلبية.. كانت صفية تشكو أيام الطفولة دائمًا أن أباها يحب آمنة فقط.. كانت آمنة هادئة الطبيعة، بينما كان أسلوب صفية كشرر متطاير..

ورثت آمنة من والدتها صفاتها وطبائعها.. شابهتها أيضاً في مظهرها. كانت أمها خديجة امرأة سعيدة الحظ، جلبت السعادة إلى حياة الحاج حسن أيضاً بعد ما تزوجها، تطورت أعماله وكثرت ثرواته بعد مجيئها. تزوجها يوم كان يسعى جاهداً لتوفير مطالب الحياة بإدارة متجر صغير، بالإضافة إلى ما ورثها من أبيها من خمس فدانات من حقول الأرز ومزارع نخيل الفوفل.. وكان العمل الجاد نمط حياته حتى في ذلك العمر. كان والد خديجة تاجر الأخشاب في المدينة، وكانت تجارته في تلك الأيام في أوج نجاحها. بعد تزويجها، أخذ والدها صهره إلى المدينة سنداً له في أعماله وعلمه حيل التجارة وطرق نجاحها. ولما تعلم فتل الحبال، قدم له بسخاء كل المساعدة اللازمة لإنشاء منشرة خاصة به. بعد ذلك لم يلتفت الحاج حسن إلى الوراء أبداً، وواصل تقدمه في طريق النجاح، متسلحاً بالكد والجهد ليلاً ونهاراً، وأنشأ العديد من الأعمال التجارية الأخرى وظلت مساعدة والد خديجة متاحة له طوال مسيرة حياته العملية. في تلك الفترة، جاءه التوفيق لشراء مزرعة

مطاط بثمن زهيد، فاشترى أيضاً التلة المجاورة للمزرعة، ثم قام بحرثها وزرع شتلات مطاط عليها. واليوم، صارت مزرعة المطاط المملوكة له لوحدها تمتد إلى أكثر من مائتي فدان.

لم ينتقل الحاج حسن إلى المدينة إلا بعد أن ثبتت أقدامه في مجال التجارة. كان يقيم الحاج حسن في البداية في بيت مستأجر في المدينة. وبعد ولادة آمنة، اشترى هذا البيت بسعر رخيص من رجل أوربي، حيث كان يبيع كل شيء يملكه هنا قبل عودته النهائية إلى بلده. كان المبنى متهدماً أجزاؤه هنا وهناك، أنفق على ترميمه مالاً كثيراً. لم يكن ذلك صفقة خاسرة، فهل يوجد في هذه المدينة حتى اليوم قصر يضاهيه في فخامته وجماله؟ لم ترغب خديجة أبداً في الانتقال إلى المدينة.. كانت هي وعائلتها تسكن في القرية حتى عندما كان والدها في قمة نجاحه. قريتهم تبعد من المدينة فقط بخمسة وعشرين كيلو متراً. ولكن الحاج حسن قرر أخيراً الانتقال إلى المدينة حينما واجه صعوبة بالغة في إدارة أعماله كلها من القرية. لم توافق خديجة على هذا القرار إلا بعد أن أجبرها والدها.

بحلول ذلك الوقت، كان الحاج حسن مانيكوت قد أصبح شخصية معروفة في المدينة. ألا يجب أن تعيش زوجته وأطفاله بمنا يناسب مكانته هذه؟ إلا أن زوجته خديجة لم تفهم مثل هذه الحجج والمبررات ولم تقتنع بها أبداً، وكانت تقول لزوجها:

-"لا نستطيع نسيان جذورنا. ولنا بنتان، علينا تزويجهما.. وستعيشان في بيوت الآخرين".

-"هوني عليك يا خديجة. علينا أن نواكب العصر وأنماطه.. هذه الأيام، يعلم الميسورون بناتهم. دعي بناتنا أيضاً يدرسن.. أخذ الله الابن الوحيد الذي رزقنا.. يا ليته كان معنا اليوم.. قدر مكتوب.. فوق تدبيرنا لله تقدير..

لا يصل الحديث إلى ذكر ابنها حتى تمتلئ عيونها دموعاً. المولود الأكبر كان ولداً.. صبي ذكي.. مات جراء إصابته بالتايفود يوم كان في السنة الخامسة من عمره. بعد هذه المأساة، قرر الحاج حسن الانتقال من القرية.. لو تمكن من نقل ولده إلى المستشفى قبل فوات الأوان..

لم تجف عيون خديجة بعد وفاة ابنها. تمنت أن يرزقها الله ولداً آخر، لكن أمنيتها لم تتحقق، حيث إنها ظلت تعاني من أمراض مختلفة بعد وفاة ابنها.. ولم يكد يمر عليها يوم إلا وهي مصابة بمرض ما.. ومع ذلك، لم تسترح ولم تقصر في القيام بمسؤولياتها. تعرضت لنوبات متكررة من الحمى والصداع.. إلا أنها لم تستعد أبداً لزيارة أحد من الأطباء، أصحاب الطب الحديث، وظلت مصممة على الاكتفاء بطب الأعشاب التقليدي، تحت إشراف معالج قروي. كان الحاج حسن يراقب ويتأكد أنها تأخذ دواءها بانتظام، ولم يكن في وسعه أكثر من ذلك، حيث كان مشغولاً جداً، بالسعي في جمع الأرباح.

رعاية الشؤون المنزلية كانت من المسؤوليات التي تولتها خديجة. يسلمها الحاج حسن المبلغ الكافي لتغطية النفقات مع التحذير من التقصير في شيء، قائلاً: لا تبخلي في شيء.. نستحق حياة كريمة، أليس هذا هو السبب الذي نواصل الكد والجهد من

أجله؟ كان هناك عدد كبير من الخدم في بيتهم. ومع ذلك، لم تطمئن خديجة أن تستريح ولو للحظة. حتى في يوم وفاتها، رآها زوجها حين خرج إلى معمل نشر الأخشاب، واقفة في حوش البيت، تتكلم مع تاجر جوز الهند حول تسوية الحسابات، وتوبّخ البستاني لعدم تنظيف الفناء.. ولذلك لم يشعر الحاج حسن بوجود شيء يدعو إلى القلق حتى عندما اتصلت به صفية إلى المكتب، وأبلغته أن أمها ليست على ما يرام، وطلبت منه العودة إلى البيت على الفور.. فلم يخرج إلا بعد إتمام فحص الحسابات وتكليف الموظف ببقية المهام.. وصل إلى البيت مع الطبيب.. عندها كانت خديجة تستلقي على السرير، ملفوفة بالبطانية. تحسس جبينها بيده.. كانت تعاني من حمى شديدة مصحوبة بحالة هذيان. فحصها الطبيب، وصف لها بعض الأدوية؛ وأعطاها حقنة عاجلة. وطمأن الحاج حسن قائلاً إنه ليس بها ما يدعو للقلق. لكن درجة حرارة جسمها ارتفعت عالية رغم كل العناية والمعالجة. بحلول منتصف الليل، فقدت خديجة وعيها، وكان الطبيب قد وصل قبل ذلك، وطلب بنفسه سيارة الإسعاف. تم نقلها إلى المستشفى على الفور، إلا أنها توفيت قبل الصبح.

أصبح الحاج حسن وحيداً في البيت مع الطفلتين الصغيرتين جداً. من سيحميهما داخل هذا القصر الواسع الذي كانت كل غرفة فيه كبيرة لدرجة أنه لن يسمع الواقف في إحدى الغرف ما يحدث في الغرفة المجاورة. حتى اليوم، لم يضطر الحاج حسن إلى الاهتمام بالشؤون المنزلية.. فنصحه الكثيرون بالزواج مرة أخرى، غير أن نفسه لم تطاوعه على قبول ذلك. بلغت الابنة الكبرى صفية خمسة

عشر سنة. بدأت تأتي لها عروض زواج كثيرة باستمرار.. كانت خديجة تذكره دائماً بقبول أحد العروض الجيدة حتى لا يتأخر الزواج، إلا أنه كان يؤجل الأمر دائماً، قائلاً؛ "دعيها تكبر.. دعيها تكمل دراستها" أو غيرها من المبررات. في الحقيقة، لم يعجبه معظم المتقدمين بعرض الزواج، ففي نفسه مؤهلات ومعايير يجب توفرها في صهر التاجر الكبير الحاج حسن مانيكوت. وفي تلك السنة، أسعده التوفيق للحج، كانت خديجة تود الذهاب معه. ولكن كيف يمكنها أن تسافر لأداء فريضة الحج تاركة فتاة في سن الزواج وحدها في المنزل؟ كان يواسيها قائلا لها إنهما سوف يحجان معاً بعد زواج صفية.

كان عبد الكريم قد تقدم بطلب يد صفية قبل وفاة خديجة.. هو شاب وسيم ذو نسب وأصل، يعمل مهندساً، ينتمي إلى عائلة عريقة، وإن أصبحت اليوم تواجه بعض صعوبات مالية، جراء تدهور أعمال والد عبد الكريم مؤخراً.. طلب والده مبلغاً ضخماً وثروات كبيرة قبل الزواج كمهر يلزم والد العروس بدفعه حسب التقاليد السائدة في البلاد، لم يعجب ذلك الحاج حسن على الإطلاق. كان سيعطي أمواله لابنتيه عن طيب نفسه، ومن سيعطيها غيرهما؟ لكن لا ينبغي لأحد أن يطلبها منه طلباً!

سألته خديجة:

-"الشاب وسيم وله أيضاً مؤهلات دراسية عالية. ولقد أعطاك الرب القدرة على إعطائهم ما يطلبون. فلم لا تزوج له ابنتك؟"

"هدئي من روعك يا خديجة.. ما الذي ينقص ابنتنا؟ أليست جميلة؟ متعلمة؟ ألا تمتلك الذهب والمال؟ فقط انتظري حتى يتقدم شاب متكامل الصفات مثلها، يطلب يدها للزواج.. أضمن لك أنه سوف يأتي لها شاب رائع بارع..."

لكن خديجة رحلت عنه في وقت لم يتوقع فيه فراقها أبداً، وتركته وحيداً محطماً متدهوراً تماماً، ولم يعد قادراً على مزيد من التفكير.. وإنما أراد أن يحقق رغبتها ولو بعد موتها.. أقام الزفاف بعد ثلاثة أشهر من وفاتها، بصورة أقل مستوى وفخامة.. كان يتمنى أن يقيم بمناسبة زفاف كريمته احتفالاً ضخماً يدعى إليه أهل القرية برمتهم، ولكن لن يتحقق إلا ما سبقت به مشيئة المولى عزّ وجل.. ربما كان ذلك نقمة الله التي وقعت عليه بسبب تفاخره وتباهيه.

لم يكن لدى عبد الكريم أي انحرافات سلوكية، إلا أنه ليس دمث الخلق وخفيف الظل مثل جمال. ولكنه شاب يمكن الاعتماد عليه ولا يخاف عليه.. رغم مشاجرته المتكررة مع صفية، إلا أنه يحبها حباً حقيقياً. وكان مصدر المضايقة هو والد عبد الكريم، حيث اضطر الحاج حسن لزيارته من حين لآخر حاملاً هدايا غالية الثمن، لأنه، في حال عدم تنفيذ مطالبه دون تأخير، يفتعل المشاكل والمضايقات.. لا يرسل ابنه إلى بيت زوجته، تتدهور صفية قلقاً وشوقاً إذا لم يحضر عبد الكريم لمدة أسبوع. وكان عبد الكريم وأبوه على علم جيد من ذلك، بالإضافة إلى يقينهما أن قلب الحاج حسن سينصهر من رؤية دموع ابنته.. فسرعان ما يسعى للإصلاح بين ابنتها وزوجها بإعطاء المبلغ الذي يطلبه أبوه. اكتسب

ذلك الرجل لعائلته ثروات هائلة، بجز وسلب أموال الحاج حسن، واليوم كل واحد من أعضاء أسرته صار في وضع مادي جيد. يشتغل أخاه الصغيران في الخليج، وأزواج أخواته أيضاً حصلوا على وظائف خليجية. توفي الرجل العجوز مؤخراً. وبعدها، بدأ عبد الكريم يمكث في بيت صفية في شكل دائم.

كانت صفية ذكية شاطرة تعرف كيف تحصل على ما تريده من زوجها، تسلك من أجل ذلك أي طريق، بكاء كان أو كلاماً معسولاً.. وكان وجود صفية في البيت هو الذي ساعد الحاج حسن على مقاومة الصدمة التي انتابته جراء فراق زوجته الحبيبة.. قامت صفية مقام والدتها في إدارة شؤون المنزل. أما آمنة فهي فتاة مسكينة ليس لديها سلاح سوى البكاء والصياح، فتكون أمورها كلها مكشوفة للجميع مع أنها لا تنجح في تحقيق مطالبها.

لم تذق آمنة طعم الراحة والسعادة في حياتها الزوجية التعيسة مع جمال منذ بدايتها. وما أكثر من تقدم من الشباب بطلب يدها. في البداية، لم يعر والدها الحاج حسن اهتماماً بعرض الزواج من جمال حين تقدم به صديقه الحاج كوتيمي الذي كان يعرفه منذ فترة طويلة. وهو شخصية معروفة في منطقة واياناد الجبلية، حيث يملك فدادين عديدة من مزارع البن.

قال الحاج كوتيمي لصديقه الحاج حسن:

-"كما ترى، لا أقول هذا لأنه ابن أخي، إن جمال شاب مميز كفء ليكون صهركم، حالياً يدرس في مدينة مدراس، في إحدى

كليات الدراسات العليا. أقوم بمبادرة الأمر فقط لأن والده متوفى. تعالوا إلى وايناد يوماً على راحتكم وانظروا نظرة إلى الشاب، وسنفكر في باقي الأمور حسب رأيكم فيما بعد."

كان الحاج حسن يود تزويج ابنته آمنة من طبيب. وبالفعل تقدم لطلب يدها شاب طبيب، لكنه لم يكن وسيماً، وكان ذا بشرة داكنة ومصاباً بحول العين. وجاء بعد ذلك عرض الحاج كوتيمي. لم يكن والدها راغباً قط في الذهاب إلى وايناد، وإنما استعد لذلك تطييباً لخاطر صديقه.. وكانت نيته أن يعود فوراً بعد إلقاء نظرة إلى الشاب. لكنه حينما رأى قصرهم وممتلكاتهم من مزارع البن والعقارات، غير رأيه.. كيف لا وقد انبهر بقصرهم من الطراز القديم ذو أجنحة أربعة، وسط حديقة مترامية الأطراف والحظائر المحصود فيها أكوام من محاصيل القهوة والفلفل. والشاب حسن المظهر، دمث الخلق، والوريث الوحيد لكل هذه الثروات، لا شك أن هذه الزيجة ملائمة جداً ولا بد من إتمامها على الفور.. لم يتردد الحاج حسن ولم يفكر في الأمر مرتين. لم يغادر منزلهم إلا بعد إعطاء كلمة الوعد لأم جمال. احتجت صفية قائلة حين علمت بالأمر:

-"ألا يوجد في بلادنا شباب حتى ترسل آمنة إلى تلك المنطقة الغابية؟"

أدار الحاج حسن أذنا صماء لاحتجاجها. بالنسبة له، كان ذلك فرصة سانحة لإقامة مأدبة كبيرة تعويضاً عن عقد زفاف صفية، الذي أقيم على نطاق صغير. فلم يترك أحداً من معارفه وأهل قريته إلا دعاه لحفل الزفاف. ونظم فعاليات ترفيهية مصاحبة للزفاف..

الحفلة الموسيقية، رقصة أوبانا، وفرقة العرض والغناء.. لم يقتصد ولم يقصر في أي شيء. أقام مهرجاناً كبيراً بكل معنى الكلمة.. اشترى لآمنة من الحلي الذهبية ما يغطيها من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها. حتى أنه ذهب إلى مدينة بومباي البعيدة فقط من أجل شراء أدوات تجهيز غرفة العروسين وملابسهما.

قالت له صفية:

-"تهدر أموالك على زواج ابنتك المحبوبة؟ أعطني أيضًا قدر الذهب الذي أعطيته لها. وإلا فإن زوجي سيعكر صفو حياتي!

-" دعينا نخلص هذا يا عزيزتي، البقية ستتبع إن شاء الله"

-"لا يكفي فيما بعد.. زوجي زعلان.. يقول إنه لن يحضر الزواج".

-" الذي لا يرغب في الحضور، غير ملزم بذلك. بس لا ترقصي على لحنه، هذا كل ما عليك."

-"لكن يا بابا لا أظن أنه....؟"

وبالتالي، انتهى الأمر بتضاعف النفقات فكأنه أقام زفافين..

كان الحاج حسن يخشى ألا تقدر آمنة – التي تربت وعاشت في المدينة– على التكيف مع الحياة في منطقة واياناد التي تقع على قمة الجبل. لكنها سرعان ما تأقلمت مع محيطها الجديد وتصادقت مع جميع من حولها. في البداية، كانت تغرق سامعيها بكل حماس في تفاصيل حياتها السعيدة في بيت زوجها. ومع مرور الأيام، أصبحت صامتة عن أدنى شيء من مديح زوجها وأهله..

لا توجد معايب ولا نقائص في نظر آمنة إلا وهي متوفرة في والدة زوجها المتعجرفة، وهي المرأة التي لا تدع ابنها ولا زوجته يفعلان شيئاً إلا بإذن مسبق منها، لا ترضى أن يتحدث إليها في حضورها، وابنه مطالب بالحصول على موافقة أمه إن أراد الخروج مع زوجته، ولن تسمح بذلك أبداً عن طيب خاطر.

في معظم الأيام، يصل جمال إلى غرفة النوم بعد منتصف الليل. سمعت آمنة الخادمات يتهامسن فيما بينهن أنه يلعب الورق كوتشينة فوق الطابق العلوي من المنزل الخارجي. عندما أخبرت آمنة والدته بذلك، وبختها توبيخاً نهائياً وحذرتها من أن تعود إليها بمثل هذه الشكاوى أبداً..

طلبت آمنة من زوجها:

-"ضع يدك على رأسي ونحن أمام والدي وعدني أن لا تعود إلى فعل ذلك مرة أخرى".

-"لم يحدث شيء من هذا القبيل الذي تخافين منه يا آمنة. أنت تنظرين إلى كل شيء بعين المبالغة".

-"كذبت! لن تتمكن من خداع عيني. إذا كنت تريدني أن أعود معك إلى منزلك، فاعطني وعدك بعدم العودة إلى ذلك".

-"عزيزتي، ها أنا ذا أعدك، هل هذا يكفي؟ هيا بنا، لنذهب. أين ابنتنا منيرة؟"

عندها قال والدها بصوت مسموع:

-"الحمد لله الذي أصلح بينهما"..

6

قال جمال وهو يغادر إلى العمل في الصباح:

-"آمنة، سأعود مبكراً في المساء؟ خليك جاهزة وانتظريني"

لقد صار رجلاً جديداً منذ أن رجعا إلى بيتها بعد أن وعدها لامساً رأسها أمام والدها. برغم ذلك، لم يكن هناك تغيير في روتينه المسائي؛ الجلوس في الحديقة على زجاجة الخمر. الفرق الوحيد هو أنه يكون وحيداً دون رفقة أصدقائه الشاربين، مما أتاح لها فرصة للنزول إلى الحديقة لتجلس معه وقد تنضم إليهما الطفلتان أيضًا.

تبدأ نصيرة في طرح الأسئلة:

-"بابا، ماذا تشرب؟ أعطني منه أيضًا."

يجيبها وهو يطبع قبلة على خدها:

-"هذا دوائي يا حبيبتي. يعاني بابا من آلام في المعدة".

-"إلى متى ستخدع العيال؟ لا تنس أنهم يكبرون"

تنبهه آمنة، ولن يكون هناك استجابة لتنبيهها".

-" تعالي واجلسي بالقرب مني. الجو بارد جدًا."

يمسك بها ويقربها إليه.

تعود إليها ذكريات الأيام الماضية الجميلة وهي تجلس هكذا محدقة إلى السماء المرصعة بالنجوم.

في بعض الأحيان، يخرجان خلسة عن أنظار أمه، ويذهبان في جولة تنزهية إلى أماكن سياحية؛ مدينة أوتي أو مدينة كودايكانال، أو غيرهما. وكان يفضل دائماً مدينة أوتي. إذا علمت أمه بأمرهما، ستمنعهما حتماً عن الذهاب، ولذلك كانا يغادران البيت بحجة أنهما ذاهبان إلى بيتها، على أن يتم إبلاغ والدها مسبقاً، وذلك احتياطاً من أن يخطئ في جوابه لأم جمال إذا اتصلت به بحثاً عنهما.. يتم حجز فندق الإقامة في وقت سابق. كان جمال يحب البقاء داخل غرفة الفندق بينما تفضل آمنة استكشاف المكان.

تقول مستاءة:

-"قطعنا كل هذه المسافة للاعتكاف داخل الفندق كل وقت؟"

-"أليس هنا فقط أنفرد لك وتكونين لي وحدي؟ إذا رجعنا إلى البيت، هل يمكننا فعل شيء إلا خلسة؟

تحمر وجنتاها خجلاً.

-"خدك كتفاحة كشميرية.. تعالي اقتربي..."

كانا يقضيان المساء على عشب الحديقة، يتجاذبان أطراف الحديث إلى أن يحل الظلام. في غضون ذلك، يلتقط جمال العديد من صور آمنة، في وضعيات مختلفة. يضبط الكاميرا الأوتوماتيكية

على وضع التصوير، ثم يركض ويجلس بجانبها، وقبل أن يتسنى لها الممانعة والرفض، تكون الصورة قد التقطت.

-"ما رأيك لو نذهب في نزهة إلى أوتي أو أي مكان آخر..."

تجاهل جمال اقتراحها... هكذا تحول مزاجه منذ بضعة أيام. لا يعير لما تقوله أذناً صاغية.. ولا يهتم بتحقيق أي من رغباتها.

مع حلول الصباح، يكون في عجلة من أمره للذهاب إلى المكتب. عندما استفسرت عن ذلك، علمت آمنة من بعض المصادر أنه تم تعيين موظفة جديدة للطباعة.. ودت آمنة أن تراها.. أرسلت لها أن تجيء إلى البيت فجاءت.. فتاة غير مسلمة اسمها أنّاما. من النظرة الأولى، لم تعجب آمنة نظراتها وأسلوبها.

لم تستطع آمنة الكف عن سؤال زوجها:

-"ما الحاجة إلى تعيين موظفة جديدة للطباعة الآن؟".

"هل أنت الشخص الذي يقرر ذلك؟ حتى الآن، أرسل رسائلي لمكاتب الطباعة في الخارج لطباعتها"

-"إذا، ألا تستطيع أن توظف رجلاً؟"

-"ماذا لو كانت فتاة؟ تشعرين بالغيرة من رؤية فتاة جميلة؟ أليس كذلك؟"

-"جميلة هي!؟ هل الجمال مجرد بشرة بيضاء وجسم سمين؟!

-"إذن، لماذا أنت غاضبة؟"

-"فتاة واحدة وسط كل هؤلاء الرجال داخل مكتب يقع في قلب الغابات.."

-" لو وظفنا رجلاً، سيطلب راتباً كبيراً، وزيادة على ذلك، سينضم لاحقاً إلى نقابات العمال ويشارك في الإضراب وإثارة المشاكل".

لم يكن لديها إجابة لذلك. لم تكلف نفسها عناء التحقيق، حتى عندما بدأت خادمات المطبخ تبادل التلميح وأحاديث ذات مغزى. كانت عاملة النظافة في المكتب هي التي تأتي بالأخبار إلى مطبخ المنزل. وكانت آمنة قد تعودت على التغاضي عن كثير مما ترى وتسمع.

ومع ذلك، انتابتها حالة من الارتباك والخزي الشديد عندما سمعت ما قاله علي، مراسل المكتب، شاب صادق لا يكذب البتة، وظفه جمال في مكتبه بناء على توصية الحاج حسن، حيث إنه ابن الرجل الذي كان مدير أعمال الحاج حسن سابقاً. كان علي دائماً ضد حمزة في كيده وخبثه واحتياله، وظل مخلصا صادق الولاء لآمنة. لم يكن جمال راضياً عن علي أبداً، ربما يكون ذلك بسبب ما أوقعه حمزة بينهما من فتنة ونميمة.

أخبرها علي مؤخرًا:

- "أرى أن الأفضل تسريح تلك الموظفة".

-"لماذا يا علي؟"

-"إنها... لا تجيد الطباعة... وأنها... لا ، لن أقول شيئاً..."

غلظ صوتها:

-"علي..."

-"اسمحيني.. لقد تعبت من كثرة ما أرى.. كنت وعدت نفسي ألا أخبرك بشيء، لكن ضميري لا يطاوعني.."

باتت تحدق إليه صامتة واجمة، حين لاحظ ذلك، غيّر الموضوع.

-"هل علمت أن حمزة اشترى مزرعة جديدة؟"

-"الأفضل عدم العلم بأي شيء جديد."

كلما خرج علي إلى منزل جمال، يتبعه حمزة متنصتاً ويسأله.

-"ماذا تفعل هنا علي؟ سيدي جمال ينادي عليك منذ وقت طويل."

بعد مغادرة علي، يقدم لها حمزة نصيحة مضللة:

-"علي رجل يمشي بالنميمة ونشر الفضائح والإشاعات. سيدتي، لا تصدقيه أبداً".

-"لا أدري من يمكنني تصديقه الآن."

-"لم تقولين هكذا؟"

-"كيف أخبار مزرعتك الجديدة؟ كم قدر محاصيل القهوة التي تحصل عليها؟"

-"ها أنت تقولين هذا..ألم أقل لك أنه ناشر الإشاعات؟ صحيح أنني اشتريت نصف فدان من أراضي الغابات، وكان ذلك

بالمال الذي حصلت عليه برهن الحلي الذهبية لزوجتي.. ربما قال لك علي بأنني اشتريت خمسين فدانًا".

-"هنا يا حمزة سوف يعرف الجميع كل شيء، حتى ولو لم يخبر بها أحدٌ أحداً"

ومن عادته أنه إذا لاحظ أي تغيير في أسلوب آمنة ونبرة صوتها، فلا يلبث أن يعتذر بأنه مشغول ويترك المكان مسرعاً. تعرف آمنة جيدًا أن حمزة رجل ماكر انتهازي لن يصغي إلى صوت الضمير. بذلت قصارى جهدها لإقصائه من الخدمة، لكنها قد أصبحت في بيت زوجها الشخص الوحيد الذي لن يتحقق شيء من مطالبه ورغباته. شعرت آمنة بأن ثمة أشياء مكروهة تحدث حولها وهي غير عالمة بها، كأنها لم تعد تدرك كنه الأمور التي تقع نصب عينيها. يغمرها زوجها بالحب أحياناً، وفي نفس الوقت.... تمنت ألا يكون ما سمعت صحيحاً.. وطمأنت نفسها أن كل ذلك مجرد مخاوفها التي لا أساس لها!

صار جمال يعود إلى البيت للنوم منذ بضعة أيام.. يصل البيت بعد المغرب، ثم يخرج إلى الحديقة فوراً حاملاً زجاجة الخمر.. وتطول تلك الجلسة إلى وقت متأخر من الليل، ثم سرعان ما يغط في النوم كالميت. أهذا يعني أن الأمر قد وصل إلى أن يقوم برذائل أفعاله حتى خلال النهار..؟ ونصب عينيها.. شعرت بقلبها يتحطم من التفكير في خطورة تماديه.

سألتها منيرة:

-"ألا تتجهزي يا ماما؟ سيصل بابا الآن. ألا تأتين إلى الفيلم؟"

-"دعي بابا يأتي أولاً، ثم أتجهز"

"لماذا لا يأتي بابا؟ هل لا يزال مشغولاً هناك؟"

-"كيف أعرف؟ اذهبي واسألي بابا".

صرخت آمنة في منيرة بلا ذنب منها. انفجرت الطفلة بالبكاء وانسحبت إلى غرفتها. شعرت آمنة بالاستياء حين رأتها تنصرف باكية. أصبحت آمنة هذه الأيام في حالة تتفوه فيها بما لا تريد قوله، يتحرق قلبها لوعة وأسى.. كيف تعيش مع زوج يبقى ثملا حتى منتصف الليل، وفي ساعات النهار يفعل في مكتبه كل ما يشاء من الألاعيب.. ويترك رعاية شؤون أمواله إلى خادمه الخدوع.. إلى أين يكون مصير الأمور إذا خرجت عن سيطرة من هو مسؤول عنها؟

كان جمال يذهب كل يوم إلى مكتبه بعد أن يعدها بشيء أو آخر، ثم يرجع في المساء ناسياً وعده. ولكن الأطفال المساكين يصدقون قوله فينتظرون عودته ليفي بوعده.. وتكون هي أيضاً بانتظاره.. وكل يوم يستمر الانتظار إلى الساعة السادسة مساء.. ماذا يمكن فعله في ذلك الوقت المتأخر..

-" سيتأخر السيد اليوم، يطلب منا السائق إرسال عشائه إلى مكتبه."

رفعت آمنة رأسها عند سماع صوت الخادمة بياثوتي وألقت إلى وجهها نظرات مفجوعة. ودت أن تمنعها من إرسال العشاء، وتقوم هي بنفسها بإيصاله إلى المكتب لترى بعينيها ما يحبسه هناك من الأشغال..

7

أضحى قلب آمنة كبركان تغلي أحشاؤه منذ أن أخبرها علي بأمر أنّامّا. حاولت التحقق منه عن طريق العديد من المصادر وبدأت تشعر بوجود خطب ما عنده في المكتب. لقد أصبحت مضغة في الأفواه قصة موظفة الطباعة التي لا تفارق مكتب مديرها.. تبلغ الأخبار إلى كل الناس إلا آمنة، فهي الوحيدة التي لم تكن تعرف أي شيء يحدث حولها! يصل جمال إلى غرفة النوم في معظم الأيام، بعد منتصف الليل وهو مخمور تماماً.. وإذا حاولت الاحتجاج، فسيكون عنده ألف تفسير وتبرير لكل ما يفعل، لقد سئمت من سماعه. ذكرت نفسها أنها إذا سكتت أكثر، فإنها ستفقد إلى الأبد أشياء كثيرة من حياتها. حاولت آمنة إصلاح الأمر ونصيحته، تارة بالمحبة وتارة بالحدة. كان يجيبها بنفس الرد دائماً:

-" لا أزال أبحث عن شخص آخر."

لم يمنحها أبداً فرصة للاستفسار عن المزيد من التفاصيل.. كلما تطرقت آمنة لمثل هذا الموضوع، زعل وافتعل الضجة، أو ترك الغرفة قبل أن تكمل حديثها، أو يسرد عليها ما يبرر لنفسه أفعاله، ملقياً اللوم كله على عاتقها. اقتنعت آمنة بأنه لا جدوى من التحدث إليه مباشرة، ولم يكن أمامها إلا التوسط بحمزة، حيث بدا لها أنه هو أول من يستطيع إقناعه.

-"لماذا ناديتني؟" سألها حمزة الذي حضر على الفور حين أرسلت له.

-"ما هي وظيفة أنّامّا في المكتب؟ هل تجيد الطباعة؟"

-"هي مشغولة دائماً بأعمال متراكمة. لم تسألين؟"

-"ما هذا الذي أسمعه من غيرك! هناك من يقول إنها ستحل محلي عن قريب، إذا سارت الأمور على هذا المنوال."

-"هي كلها قصص يختلقها الحساد. تلك فتاة فقيرة حريصة ألا تفقد عملها، وإلا لشاعت أخبار أسلوبه المتعجرف في القرية كلها.. مسكينة ليس لديها مصدر رزق غير هذا"

-"لا داعي أن تتحمل مآسي الآخرين.. حمزة، أعطها مستحقاتها دعها تروح"

-"هذا من الأمور التي لا يسمح لي التدخل فيها.."

-" بالعكس، لن يحدث ذلك إلا إذا أردت أنت"

-"هل تتوقعين أن يأخذ كلامي من لا يستمع إلى أم عياله؟

شعرت آمنة بالخزي يملأ نفسها ولم تجد ما تقوله، عقدت المهانة لسانها.. ولم تقو على النظر إلى وجهه.

وقف حمزة هناك قليلاً ثم مشى كما لو لم يحدث شيء. تسلط على آمنة شعور بالكراهية لنفسها.. امرأة لا يستمع إليها زوجها ولا يقيم لها أدنى قيمة في حياته..

صممت آمنة على عدم الاستسلام بسهولة، وقررت مواصلة الكفاح من أجل استعادة زوجها. حينما تراه، تفتح الحديث حول موضوع الموظفة الجديدة "أنّامّأ".. يتظاهر بعض الأحيان بأنه لم يسمع ما تقول.. وفي معظم الأيام، يتحول البيت إلى مسرح المشاجرة التي تنفجر بين الزوجين حول ذلك الموضوع.

-"لا تفرضي علي قوانينك، لست محكوماً أن أعيش حياة عبدك، حافظي لسانك وإلا سترين مني ما لم تريه حتى اليوم"

يصرخ فيها مهدداً وهو يغادر.

لقد تغير جمال وبدأت ترى منه ما لم تره تماماً كما هددها به. توقف عن الذهاب إلى المكتب وأصبح يقضي معظم أوقاته خارج البيت ويعود إليه في أوقات متأخرة جداً، على كيفه. وبالإضافة إلى ذلك، باع دون علمها حقول الأرز التي كانت من أهم ثرواتهم. وقبل أن تعلم بالأمر، كان قد أنفق كل الأموال التي حصل عليها من صفقة البيع.

-"ماذا فعلت بتلك الأموال كلها؟ ألم يكن بإمكانك أن تحصل على الإيجار كل شهر، لو كنت اشتريت بها عدداً من غرف المتاجر على الطريق؟

-"أتستجوبينني!!. هي عقاري سأبيعها كيفما أردت. وسأنفق المال كما يحلو لي. من أنت كيف تتجرئين على محاسبتي؟

يكون كل من حمزة وسيده مشغولين جداً، منغمسين في

عالمهما الغامض، ما دام المال متوفرا في جيب جمال. بات حمزة يحرص أن يختفي عن أنظار آمنة منذ فترة طويلة، حيث رتب كل لقاءاته مع جمال فقط داخل المكتب. وكان جمال دائماً مسروراً للاجتماع مع حمزة، وإذا ناداه ولو في الهزيع الأخير من الليل، لانتفض مستيقظاً من نومه، وانطلق يطير من الفرح للقائه.. وتظل آمنة ساهرة حتى يعود، وهي لا تدري على أي حالة يكون زوجها حين يعود. لم يكن ثمة أحد في بيت زوجها لتتقاسم معه أحزانها وأثقالها ويقف إلى جانبها عند مطبات الحياة. أما والدة جمال فلن تخمد نيران الحقد والشحناء التي تسرها في صدرها تجاه زوجة ابنها، وقد منعت الأقارب من من زيارة آمنة في بيتها، بل قامت بتقسيم ممتلكات أبيه انتقاماً منها على قرار جمال للانتقال إلى البيت الجديد من منزل أبيه، وذلك بأن أعدت وثيقة الوصية وفقًا لرغباتها الخاصة، قسمة لا دخل فيها للعدل والإنصاف. استأثرت لنفسها بجميع الأراضي الخصبة والثرية، وتركت لجمال الأراضي الصخرية الجرداء.

-"أليست زوجته شيطانة تملك ثروات وأموالاً لا تعد ولا تحصى؟ فهي لا تكون في حاجة إلي ولا إلى مالي.. ومن سيملك هذه كلها بعد موتي سوى ابني؟"

كان هذا تبريرها.

مؤخراً، بدأ جمال أيضًا استجوابها حول الأمور المالية بشكل صريح.

-"كل الدنيا تقول أن زوجتي تملك ثروات هائلة.. ولم أر بعد شيئاً من ثرواتها يأتي إلى بيتي ولمنفعتي.. هل منح والدك كل شيء لصهره الأكبر؟"

سبق أن يقسم والد آمنة ممتلكاته، أخذ لنفسه جميع مؤسساته التجارية ومباني الإيجار في المدينة. وقسم مزارع البن بين ابنتيه، على أن يقوم هو نفسه بالاعتناء بكل شيء، حيث سيتم إيداع عائدات كل سهم في حساب صاحبه. وهذا أمر يعلم به جمال سابقاً. اعتاد أن يقوم زوج صفية بفحص الحسابات البنكية كل شهر، بينما جمال لم يكن يتحدث أبداً عن هذا الموضوع، ولا يهتم بفحص الحسابات أيضًا، وكانت عادته التهرب عندما يبدأ والدها النقاش حول هذا الموضوع، قائلاً له:

-"ابنتك ومالها.. فأعطها حساباته، ولا تعنيني"

لم يعد جمال ذلك الرجل، لقد تغير تمامًا. يتصرف في معظم الأوقات وكأنه قد نسي أن له زوجة وعيال، بل صار لا يعطيها المال الكافي لتغطية مصروفات البيت. حينما واجهت النقصان، كتبت إلى والدها، حول الحاج حسن الفلوس إلى حسابهما المشترك حتى لا يشعر صهره بالحرج. ولكن عندما أهدر جمال خلال شهر واحد الكثير من المال الذي حوله والدها، لم تستطع آمنة الصمت، فتكلمت! وللصبر حدوود! فألقى بدفتر الشيكات في وجهها، وهو يصيح:

-"أتسألينني عن الحسابات لأنها مال أبيك؟ هل كان هو من

دفع مصاريفنا هنا حتى الآن؟ هل كنت أعيش على كرم أهل زوجتي، مثل صهرك؟ لا تنغصي علينا عيشنا بطمعك وبخلك.. ألا تفكرين في شيء غير المال؟"

لن يتحمل جمال نكد زوجته، إذا تحدثت عن أي شيء لا يرغب في سماعه، يخرج من البيت غاضباً ثائراً، وقد لا يعود ليومين أو ثلاثة أيام، لكن يجب إرسال ثلاثة وجبات من الطعام يوميًا إلى المكتب، حيث الموظفة أنّامّا تقوم بتقديم الطعام له، وممنوع على آمنة الذهاب إلى هناك..

لم تستطع أن تتحمل هذه المهانة.. اتصلت بشقيقتها وحاولت أن تفضي إليها بما يختلج به صدرها، فقالت:

-"الآن، بعد كل هذه السنوات، ماذا نفعل يا آمنة؟ أقنعي نفسك بأن هذا قدر مقدور ولا يغير المقدور إلا مقدّره.. إذا انفضح الأمر وعلم به الناس، ألن يكون ذلك وصمة عار لنا جميعًا؟"

أحست بشعور عميق بالوحدة يحاصرها من كل الجوانب وتجرعت مرارة الخذلان وهي تستمع إلى كلمات أختها. أدركت أنه ليس لها أحد تهمه مساعدتها وقررت بداخلها مواجهة كل شيء بمفردها، وعدم الإفضاء بمآسها إلى أحد. مرت أيام وهي لا تزال تفكر في حل مشاكلها من كل جهة ومنظور.. لم تهتد إلى شيء ممكن عملياً وعاطفياً.. تضرعت إلى الله كل يوم ليهديها إلى مخرج من هذا المأزق الخانق الذي وقعت فيه. حرصت كل الحرص على إخفاء كل شيء عن طفلتيها حتى لا تتألمان وتتأثران نفسياً.

انتظرت آمنة لقدوم يوم لا يكون فيه جمال مشغولًا في المكتب، فقررت الذهاب إلى هناك بعد أن تأكدت من عدم وجود أي شخص ينتبهها.. صعدت الأدراج المؤدية إلى الممر الأمامي، حيث يجلس علي، وسألته:

-"أهو موجود؟"

رفع علي - الذي كان منهمكاً في كتابة شيئا ما- رأسه، وسرعان ما تغيرت ملامح وجهه وانتقع لونه. لاحظت آلة الطباعة متروكة على طاولة مهجورة، وقد غلفها الغبار، مما يثبت أنها لم تستخدم منذ زمن قريب، وأمامها كرسي شاغر ليس بقريب العهد بجالسه الأخير. دفعت آمنة باب مكتب زوجها دون انتظار رد علي.. فوجئت بأنّامّا على السرير، تتكئ على صدر جمال الذي يستمتع بحديثها الناعم المدلل. وبمجرد سماعهما صوت الباب، انقلب المشهد إلى حالة ارتباك شديد، وأسرعت أنّامّا لإعادة الساري الذي انزلق من صدرها، وهمت بالخروج من الغرفة وكأنه لم يحدث شيء.. فقدت آمنة كل السيطرة، وهي تحاول جاهدة لضبط أنفاسها المتسارعة من شدة الغضب وهول الصدمة.. وعندما وصلت أناما إلى الباب، أمسكت آمنة بكلتا يديها، رأت أساور ذهبية تتلألأ على ذراعيها، وكانت آمنة أيضاً قد سمعت عن تلك الأساور التي شوهدت على ذراعي أنّامّا بعد عودة جمال من إحدى رحلاته مؤخراً.. ولم تطق رؤيتها بعينيها.. صفعتها على خدها صفعة قوية.

-" آمنة، ماذا تفعلين؟ هل جننت؟"

-"ليس بي الجنون حتى الآن، لكنني سيصيبني الجنون عما قريب، إذا استمرت الأمور هكذا".

دفعت آمنة بأنّامّا خارج البوابة.

-"روحي أنت ووجهك، ولن أراك داخل هذا المجمع مرة أخرى."

ارتمت أنّامّا على الأرض بالقرب من علي، الذي كان يقف بجانب الباب. أمرته آمنة:

-"علي، أعطها مستحقاتها وأَنْهِ خدمتها"

استعرت نيران الثأر والانتقام في عيون أنّامّا، وتقول ملامح وجهها: "سأراك لاحقاً لتصفية حسابي معك".

تلقت آمنة نظراتها المهددة بما تستحقه من الإهمال واللامبالاة. سلم علي أنّامّا ظرفاً من المال على الفور. ظلت آمنة واقفة مكانها إلى أن نزلت أناما الأدراج وابتعدت في الطريق عن أنظارها. أحست آمنة حينها أن هذه الورطة لن تنتهي عند هذا الحد، فتلك امرأة وقحة، وستبدأ المشاكل في الظهور مرة أخرى.

لم تعد آمنة تتمالك قواها في ذلك الموقف.. هرولت إلى بيتها وانهارت على الكرسي وهي تشهق.. وما لبث أن وصل هناك أيضاً زوجها. وصاح فيها بصوت عال يصل إلى أقصى القرية وهو يمسك بها من شعرها:

-"أتقللين من شأني في مكان عملي، هاا؟ سأوظف عندي أي شخص أريده. من أنت لتحاسبينني؟ إذا كنت لا تكبحين غرورك... لا... أحذرك!!.. قد لا ترين وجهي مرة أخرى... "

لم تر وجهه بمثل هذه الملامح والتعابير المضطرمة من قبل: الانتقام.. الغضب..

ترك المكان بخطوات غاضبة ثقيلة زحزحت سكون المكان حوله.. جاءت ابنتاها مسرعتين مرتعدتين خوفاً واحتضنتاها.. فلم تتمالك نفسها وانفجرت بالبكاء..

8

سار علي متوجهاً إلى بيت حمزة، رغم إرادته. تسري نوبات الغضب في عروقه من أخمص قدمه إلى رأسه، كلما يرى تصرفات حمزة المتغطرسة. مرت أيام ولا يزال ينتظره جمال، ولم يحضر بعد، مع أن جمال أرسل له عدة أشخاص. وقد بلغ الأمر إلى الحالة البائسة التي تستوجب على انتظار عامله حمزة للحصول على مال مبيعات القهوة من مزرعته الخاصة! يرسل له جمال حينما يكون بحاجة عاجلة إلى المال، ولكنه أصبح اليوم مشغولاً حتى عن المرور على سيده حين يناديه. وخرج علي إلى بيت حمزة هذه المرة حينما لم يتحمل رؤية سيده وقد ضاقت به السبل من كل الجوانب..

رأى علي حمزة في مزرعة جمال منذ أول يوم جاء فيه إليها، وكان يعمل في تلك الأيام مشرفاً، ومنذ ذلك الزمن، لقد شهد علي من حمزة حالات الكذب والخداع.. وكان كل ما يمتلكه حمزة عندها فداناً من الأرض التي بنى فيها بيته الصغير المسقوف بالقش، الآن أصبح مالك الأراضي ومزارع البن التي لا يعلم سواه عدد فدادينها.. وبنى منزلاً كبيراً واسعاً ذا سقف من القرميد.. مؤخراً، قام بإنشاء حظيرة بجانب فناء منزله الواسع لأغراض تجفيف حبوب البن. والآن، صار يملك حقول الأرز أيضاً.

في رأي علي، كان سيده جمال رجلاً طيب القلب، لا يقوى على رؤية دموع أحد، حينما يكون لديه المال، لن يتردد في تقديم المساعدة لأي شخص محتاج بسخاء. إن اللوم كله على حمزة الذي يقود سيده دائماً إلى الضلال ويحرفه عن طبائعه الحميدة. يوم كان يعمل حمزة مشرفاً، كان من عادته أن يصل كل يوم إلى المزرعة في وقت مبكر، ويقدم نفسه مرافقاً لسيده في جولات مشيه الصباحي، ولا هدف له من ذلك سوى فضح أعراض الناس وكسب رضى سيده الذي يعرف جيداً ميول قلبه ومواطن ضعفه، ويدرك كم هو مولع بالنساء، يصف له بنات المنطقة وصفاً مبالغاً فيه، ويأخذ على عاتقه مهمة إحضارهن إلى المكتب في الليل.

وكان أيضاً من علم جمال تعاطي الهيروين. وقد لاحظ علي، منذ بعض الأيام، أن حمزة يدخل على جمال خلسة ليسلمه علبة مسحوق أبيض اللون.. وكان يعلم أن ذلك المسحوق لا بد أن يكون مخدراً قوي المفعول، وأنه سوف يحطم صحته تماماً.. لكن علي مضطر إلى أن يتظاهر بعدم معرفة أي شيء. إلى متى يمكنه هذا الكتمان والتظاهر؟ ما أكثر المال الذي يسرقه ذلك النصاب من سيده بالخداع والاحتيال! كثيراً ما أراد علي أن يصارح بكل تلك الأمور لزوجة سيده، لكنه لم يستطع فعل ذلك أبدًا، حينما ينظر إلى عينيها الكئيبتين على الدوام، ووجهها المعشعش فيه الاستياء، فينصرف دون أن يقول لها شيئاً، مخافة جرحها أكثر وأعمق.. هل هناك أي خير يمكنني فعله من أجلها..؟ ساورته التساؤلات

والهموم وظل غارقاً في أعماقها وهو في طريقه إلى بيت حمزة، ولم يشعر بالمسافة التي قطعها حين وجد نفسه أمام بيته.

تجري أعمال بناء سور عال حول البيت، وتم تثبيت بوابة حديدية ضخمة..

-" مرحباً بك! أنت عم علي؟"

استقبله محمد كوتي الذي كان سابقاً عاملاً في مزرعة جمال. وكان علي قد سمع أنه أصبح الآن اليد اليمنى لحمزة.

قال علي بنبرة غاضبة:

-"جئت لأقابل "سيدك المحترم!".

دون أن ينتظر لرده، تعدى علي البوابة ودخل إلى فناء البيت.. ممر مرصوف ممتد من البوابة إلى حوش المنزل، وعلى جانبيه فاصل جداري ذو ارتفاع منخفض. لما وصل علي أمام واجهة البيت، كان حمزة يدخن سيجاراً، جالساً على كرسي الاسترخاء، وعلى الأرض، بالقرب من قدميه، يجلس القرفصاء كونجالي، الذي كان خادماً في بيت جمال سابقاً، يدلك بيديه ساقي سيده الجديد.

-"دلّك جيداً، أيها الوغد. ألا توجد العظام في ذراعيك؟"

رفع كونجالي رأسه، اصفرّ وجهه خجلاً من أن علي يراه وهو في هذا الحال، وقال لسيده مطرقاً رأسه.

-"جاء المدير"

-" من مديرك! فليأت الآتي كائن من كان، لا يعنيك! وشغلك تدليك ساقي!"

صرخ حمزة فيه، قاصداً إسماع علي.

ثم التفت إلى علي وسأله بصوت جاد:

-"ما الأمر؟"

ارتعد علي من شدة الغضب وقال متماسكاً:

- "يا حمزة، يريدك سيدنا في منزله، وسبق أن أرسل إليك مرات عديدة"

لم يعجب حمزة ذلك الأسلوب الذي خاطبه به علي. فقال وهو ينظر إليه نظرة قاسية:

-"يرسل إلي لشأنه! وأنا لا أجد الوقت حتى لإدارة شؤوني الخاصة..!".

-" تجمل كما تشاء لكن لا تنس أصلك وجذورك، يا حمزة!".

-"هل أتيت إلى هنا في الصباح الباكر لتلقي علي محاضرتك؟"

-"ليس حباً فيك، لكني لست ناكراً للجميل مثلك. أحضر نفسك إلى هناك إذا كان يناسبك".

-"ماذا نفعل إذا صار المرأ يطمع في كل ما يراه ولا يملك المال في يده؟ أنا لا أملك مزرعة أشجار تثمر النقود حتى أوفر له المال كلما يطلبه.. ألا يعرف أن كل شيء ارتفع سعره هذه الأيام بشكل خيالي؟"

-"أنا راحل!"

انصرف علي غاضباً مستعجلاً، غير راغب في سماع المزيد من تباهي حمزة. ولما وصل إلى منزل سيده، وجده منتظراً قدومه في الفناء وسأله فارغ الصبر:

-"ماذا حصل؟ ماذا قال لك.."

تمتم علي:

-"سوف يأتي بعد قليل"

نادته آمنة التي كانت تتمشى في الحديقة وسألته:

- "ما الأمر علي؟ لماذا يبدو سيدك محبطًا للغاية؟"

تسارعت ضربات قلب علي، دون أن يجد ما يقول لها.. كيف يمكن أن يقول لها أن زوجها ينتظر مخدراً يحطم جسمه، السموم التي ستتأكل بها كبده وأحشاءه؟

مشى علي بخطوات مسرعة نحو المكتب بعد أن تمتم قائلاً:

-"هذا... يبدو أنه يريد بعض الأدوية..

شعرت آمنة بقلق شديد لرؤية زوجها الذي يمشي مضطرباً، وهو يهمهم كمن أصابه الهذيان. اقتربت منه وسألته بلطف:

-"ما لك؟ لمذا تريد الدواء؟"

واصل مشيه كما لو أنه لم يسمعها.

-"لماذا لا نستشير طبيباً نفسانياً؟ هناك علاجات لكل شيء في هذه الأيام."

عند سماع ذلك، اكفهر وجهه، وأحمرّت عيناه. سألها بصوت أجش متحشرج:

-"الآن تريدين أن تجعليني مجنوناً؟! احتفظي بهذه الأمنية لنفسك."

لدى سماعه يتكلم هكذا، بدأت آمنة تبكي. لقد أصبحت هذه الأيام تخيفها تصرفات زوجها.. ينفجر غضباً لأصغر الأمور ولم يعد يتمكن من السيطرة على نفسه. يضمر لها كراهية شديدة منذ أن تم طرد أنّامّا، ولم ينبس بعد ذلك بكلمة تسر زوجته. والأدهى من ذلك أنه لم يأت إلى البيت لمدة أسبوع بعد مغادرة أنّامّا. أرسلت آمنة لأبيها أنها قررت مغادرة بيت زوجها، متخلية عن كل شيء، إلا أن والدها لم يسمح لها بذلك، وذكرها بأن طفلتيها تكبران، ولا يمكن لها العيش في أي مكان دون مواجهة الناس، وستندم لاحقاً على القرارات الطائشة التي تتخذها دون تفكير في لحظة انفعال..

انهارت قواها النفسية عندما رأت أنه لا يوجد أي دعم من أي مكان وضاقت بها الدنيا بما رحبت وأصبحت تشعر بأن حياتها يائسة بلا معنى ولا قيمة.. لمن أعيش هذه الحياة! بدون كرامة، كالعبد.. فقدت رغبتها في كل شيء.. لم تأبه بعواقب الأمر بعد أن عزمت عليه واستقرت نفسه على قرارها الصارم.. ولم تسمح لعقلها إعادة النظر فيه مرة أخرى.. كانت منيرة أول من رأت والدتها تتدلى من الساري المربوط على السقف، فصرخت بصوت عال يسمعها من هو في أقصى الدنيا، هرع إلى المكان والدها والخدم كلهم، أخذوها على

الفور إلى المستشفى. كان الطبيب صديق جمال، هو الذي أبلغه بالأمر، فحضر عاجلاً وسألها بصوت ملؤه القلق والجزع:

-يا آمنة، ما هذا الذي فعلت!؟"

بكت آمنة أيضاً بداخلها عندما رأته يبكي، غير قادر على إكمال جملته. كان الأمر سينتهي إلى نهاية كل شيء وإضاعة سمعة عائلتها العريقة، فقط لو تأخر الطبيب في تقديم الدعم الصحي اللازم في وقته، لم تزل تسري في أوصالها رعشة كلما فكرت عن ذلك اليوم المشؤوم. لم يمر يوم دون أن تتأسف على ذلك الخطأ الذي ارتكبته في لحظة ضعف واستكانة. تتذكر أن والدها كان يجلس إلى جانبها متدهور القوى جسدياً ونفسياً.. زوجها يطرق رأسه من التحسر والشعور بالذنب والتقصير.. ابنتاها تبحلقان في وجهه بعيون محمرة من البكاء المتواصل – شعرت آمنة بالازدراء من نفسها.

وبعدها، تغير جمال بصورة جيدة لا عهد لها بها. يبدأ يومه بشرب الخمر فور أن ينهض من الفراش في الصباح الباكر، ولن يدع السيجارة المولعة تتغيب من بين أصابعه في أي وقت.. وألزم على نفسه صمتاً لن يكسره سؤال موجه إليه.. لا سلام ولا كلام ولا وداع! صار لا يأكل إلا قليلاً ونادراً.. لم يسمح أحداً يأتي إلى البيت للقائه.. بل لازم غرفته المغلقة طوال الوقت هرباً من الدنيا ومن فيها. مرت أيام وهو على ذلك حتى أيقنت آمنة أنها لن تعود قادرة على تحمل هذه الحالة.. ألقت نفسها في حضنه وقالت له:

-"إذا كان كل هذا بسبب أي خطأ ارتكبته، أرجو أن تغفر لي وتعفو عني، لم تدمر حياتك؟ ما الذي ينقصنا؟ أعطانا الله من المال أكثر مما نحتاج إليه. رزقنا طفلتين كالأزهار البيضاء الناصعة.. يمكننا أن نجعل هذا المنزل جنة في الأرض، فقط إذا أردت.. انسَ كل شيء، واعف عني فيما قصرت، دعنا نذهب الآن لنستشير طبيباً".

بكت وهي في أحضانه.

قال جمال يواسيها:

-"ليس بي شيء.. إنه مجرد إعياء سيزول قريباً".

لاح الألم والندم واضحاً في عينيه.

وفيما بعد، صار جمال يمتنع عن لقاء حمزة إذا جاء إلى البيت، وارتسمت على وجهه دائماً ملامح الخوف والذعر كلما سمع عن قدومه.. انسحب إلى غرفته حالما يراه قادماً من البعد. في الحقيقة، كانت هي الأخرى تخاف حمزة وزياراته. رغم ذلك كله، لم يمر أسبوع حتى تجددت صداقتهما لسبب ما.. وأصبح حمزة من جديد ضيفاً مرحباً به في البيت وإذا جاء، يظل هو وجمال يتهامسان فيما بينهما وقتاً طويلاً، ولم تتمكن آمنة من التنصت لشيء من حديثهما على الرغم من محاولتها المتكررة..

وذات يوم كانت آمنة تجلس في واجهة البيت منغمسة في أفكارها، إذ سمعت صوتاً ما.. انقطع حبل أفكارها. رفعت رأسها ونظرت إلى الفناء حيث لم يوجد زوجها. مشت إلى الحوش

الخلفي، حيث فوجئت بحمزة يقف على نافذة غرفة نوم جمال كلص يحاول سرقة شيء غال. تملكها خوف مباغت منبعث من أعماقها.. اختبأت وراء شجرة تشاهد المشهد.. سلم حمزة جمال علبة من خلال النافذة، وأعطاه جمال مظروفًا في المقابل.

حدثت نفسها "لابد أن يكون في المظروف مبلغاً من المال، أية قطعة أرض قد بيعت! لن يتردد جمال من تناول أي شيء يقدمه له حمزة، ولو كان ذلك سماً قاتلاً.."

تسارعت نبضات قلبها. وحينما هم جمال بالمغادرة، نادته آمنة من الخلف، حازمة ألا تدعه يمر مرور الكرام، فتوقف حمزة عن المشي متردداً وملامح الارتباك والشعور بالخزي ظاهرة جلية على وجهه.

-" حمزة، ما لك؟ تدخل من الخلف هذه الأيام؟ ما الذي جاء بك خلف بيتنا؟"

-"أنا.. بس أردت لقاء سيدي.."

-"لماذا تبدو في حيرة وارتباك؟ لمذا تزوره سراً؟ هل الموضوع إحضار الفاجرات؟"

-"سيدتي، تقص الناس عليك القصص وتشكين في دون داع. جئت الآن لأنه أرسل إلي عليا، ليطلب مني الحضور"

-"طيب.. فليكن كذلك. لكن لا تدخل من خلف البيت مرة أخرى، وإذا كنت تريد زيارته، ادخل من الباب الأمامي، فاهم؟"

-"حسناً."

ولما هم حمزة بالانصراف مظهراً تواضعاً مبالغاً فيه، نادتها مرة أخرى:

-"صارت محاصيل البن قليلة جداً هذا العام، أليس كذلك؟ وسيدك يحصل على دخل أقل مما تحصل عليه أنت يا حمزة؟"

-"سينقص العائد طبعاً إذا لم يتم حرث الأرض وتفكيكها وتسميدها بانتظام. والذي أحصل عليه ثمار جهودي ليل نهار."

-"ألست الشخص المعني بترتيب عمليات الحرث والتسميد؟ ألا تأخذ من سيدك الفلوس الكافية لذلك أيضاً...

-"أنا أعطيه حسابات واضحة لكل ما أستلمه منه. إذا كان عندك شك، فيمكنك دائمًا مراجعتها وتدقيقها حتى تتأكدين منها. الناس حساد للنقود التي يكسبها المسكين من عرق جبينه.."

-"لست حاسدة على أي أحد، يا حمزة. أما تدقيق حساباتك، فذلك أمر لن يحتاج إليه سيدك، لأن الحساب الصحيح في نظره هو حسابك.. وإنما حساباتي هي التي تخطئ دائما يا حمزة.."

بعد أن غادر حمزة المكان، كاتماً غيظه، توجهت آمنة نحو نافذة غرفة جمال واختلست النظر إلى الداخل.. أخذ جمال شيماً مما في العلبة التي أعطاها له حمزة ووضعها في فمه، وشرب الماء من الإبريق الموضوع على الطاولة. ثم أعاد تغليف العلبة بإحكام ودسها تحت الوسادة. فجأة عادت إليه قوته وحيويته.. سرعان ما

انتعش ولم يعد ذلك الشخص الذي كان يقعد خاملًا حتى ذلك الحين.. بدأ يمشي في أرجاء الغرفة وهو يهمهم بأغانيه المفضلة.. وبعد قليل، استلقى على فراشه، سرعان ما غط في نوم عميق. ولم يقم حتى حينما نادته لتناول الغداء.

وفي المساء، أيقظته آمنة وقدمت له الشاي. ولما رجعت إلى غرفته بعد قليل، رأته يتناول ذلك المسحوق مرة أخرى. تمنت لو استطاعت منعه، ولكنها لم تتجرأ على ذلك.

خرج بعد قليل إلى الحديقة، ليتمشى فيها، لحقت به هي أيضاً، فقال لها حين رآها قادمة:

-"تعالي آمنة، استريحي هنا بجانبي".

جلس هو أيضاً على المقعد الإسمنتي، منحنياً على كتفها. وجعل يتحدثان مع بعضهما البعض بكل مرح وسرور يتبادلان أحاديث طريفة، ولم تلبث أن تنضم الطفلتان أيضاً إلى حلقة والديهما، وما زالوا كذلك حتى أخذ جمال بشكل مباغت في التمايل كمن غلبه النعاس ولم يلبث أن يسقط في حضن آمنة.. حاولت أن ترفع رأسه.. كانت جفونه تسقط فوق عينيه من الإعياء وانهار جسمه كله كخرقة مبتلة.

-"ما لك عزيزي؟ ما الذي حل بك؟ دعني أتصل بالطبيب؟"

غمغم قائلاً:

-"لا، لا داعي لذلك، أشعر فقط بإعياء شديد. أريد فقط أن أستلقي".

ساعدته آمنة في النهوض. لم يكن قادراً على المشي بنفسه، لا تثبت به خطواته المترنحة.. حملته كل من آمنة ومنيرة من جانبيه، وجعلتاه يتكئ على أكتافهما، ونقلتاه إلى الداخل وأضجعتاه على الفراش. كانت البنتان في حالة من الخوف الشديد. سألت منيرة أمه بصوت مرتجف:

-"ماما، ما الذي أصاب بابا"

-"لا شيء. إنه مجرد إعياء. اذهبي واحضري كوبًا من الحليب".

ولم تقدر آمنة على فهم الموقف.. دب الخوف في أوصالها أيضاً وساورتها الشكوك. هل أعطاه حمزة السم؟ يتقلب جمال في الفراش ويئن ويلهث.. أخذت آمنة كوب الحليب الذي أحضرته منيرة وسقته إياه شيئاً فشيئاً بملعقة صغيرة. ولما فرغ نصف الكوب، كان جمال قد غرق في النوم. عندما غادرت منيرة لإرجاع الكوب، أخذت آمنة العلبة من تحت الوسادة وفتحتها.. علبة بلاستيكية صغيرة مشحونة بمسحوق أبيض اللون، يشبه بعض أدوية هوميوباثي. هل يكون هيروين؟! مهما كان، لا شك أنه بعض المخدرات قوية المفعول. أغلقت آمنة العلبة في الدولاب ونوت أن تعرضها على الطبيب للاستفسار المزيد عنها لاحقاً.. لم تطمئن أن تغادر الغرفة تاركة جمال لوحده في هذه الحالة.

-آمنة تعالي وتناولي عشاءك، وقد أخذ العيال في النوم..".

نادتها الخادمة بياتوتي عدة مرات فقالت لها آمنة وهي لا تبرح مكانها:

-"أنا لا أشعر بالجوع.. أكلي العيال، وبعد ذلك، أقفلي الأبواب قبل النوم"

ظلت آمنة جالسة هكذا طويلاً بعد أن غادرت الخادمة من عندها.. لم تعلم متى استسلمت جفونها أخيراً لسلطان النوم.. استيقظت على سماع شخص يصرخ. قامت فزعة منتفضة، فإذا بالغرفة قد انقلبت رأساً على عقب، في حالة من الفوضى؛ مزقت الوسادة، وشقت البطانية وملاءة السرير.. نعم، جمال قد تحول تماماً كمجنون هائج يفعل كل أفعاله. تلقت منه آمنة ضربة قوية حين حاولت منعه، سقطت على الأرض بعد أن اصطدم رأسها على الحائط، جرح جبينها ونزف الدم من الجرح. ركل جمال طاولة التسريحة؛ تكسرت المرآة وتناثرت قطع الزجاج في كل مكان، محدثاً صوتاً عالياً مفزعاً استيقظ عليه البيت بأكمله.. جاء الخدم يركضون، وأجهش الأطفال بالبكاء فزعاً من هول المشهد. لم يستطع أحد ممانعة حركاته العنيفة، وقفت آمنة متجمدة في مكانها من شدة الخوف والرعب.. أخيراً تمالكت نفسها واستجمعت قواها لتقول:

-"فليتصل أحدكم بالطبيب".

- أنتم التعساء تحرمون راحة بالي.. ألن تتركوني أعيش.. هل اجتمعتم كلكم على قتلي؟

صرخ جمال وانهار على الفراش، منهوك القوى، وهو يشد بيده على بطنه بكل قوة..

غطت آمنة عينيها بكلتا يديها غير قادرة على مشاهدة المنظر.

9

وجه شديد الشحوب.. شفتان جافتان.. عينان تحيطهما هالات سوداء.. هيئة من الجلد على العظام.. عروق زرقاء بارزة على الذراعين.

جلست آمنة بجانب سرير زوجها في المستشفى محددة نظرها على قطرات الجلوكوز التي تتساقط من الزجاجة المعلقة إلى الأنبوب الموصول إلى يده اليسرى. أوصاها الطبيب ألا تدعه يحرك يده. لم تكن تعرف كم مضى من الوقت وهي جالسة هكذا!

- " آمنة، تمددي وخذي قسطاً من الراحة.. سأعتني بأمر جمال حتى تقومي"

قال لها والدها.

قامت آمنة تمشي نحو النافذة ووقفت تنظر إلى الخارج.

أمسكت بقضبان النافذة حيث شعرت بفقد توازنها وكادت تطيح على ظهرها.. آلمها ظهرها بشكل رهيب من الجلوس الطويل. وفي الشارع في الخارج، لم تزل السيارات تسير سيراً متدفقاً مستمراً، ويركض الناس متسارعين من هذه الطريقة وتلك، كل في عجلة من أمره.. وفي الجهة المقابلة من الشارع، يسير القطار على

السكك الحديدية، حاملاً البضائع الثقيلة.. وداخل الغرفة، لا يزال زوجها في سبات عميق، وعيناه المغمضتان كزهرة يابسة ولم تتلاش بعد ملامح الذعر من وجهه.

تم زواجها من جمال وهي في سنتها الأولى في الجامعة بعد اجتياز الثانوية العليا. تم اتخاذ قرارات الزواج بشكل عاجل، على عكس ما كان يقول والدها دائماً: "لا يتم زواج آمنة إلا بعد أن أكملت دراستها."

لكنه غير موقفه عندما جاء صديقه بعرض يستوفي شروطه ومعاييره واتخذ الخطوات التالية بسرعة. يوم الزفاف، أخرج ابنته مغطاة بالمجوهرات والحلى الذهبية. أشرقت فرحاً وجوه النساء اللواتي جئن لمرافقة العروس إلى منزل العريس، حين رأينها، وأعربن عن دهشتهن من ضخامة حلاها وفخامتها، وقلن فيما بينهن:

-"لا يقل وزن حزام الخصر عن 400 غراماً.. ما أطول هذه القلادة التقليدية، تشاكرامالا؟"

-"العقد أحلى من ذلك بكثير.. انظري لمعانه!"

-هل هذا الذي تقولون أنه كثير!؟ هل رأيتم الذهب الكثير في حياتكم؟ وكم من عروض زواج، أحسن من هذا بكثيير، قد جاءت لانبي جمال..! اختيارنا هذه الزيجة، فقط إرضاء لوالد آمنة؟"

جرحت كلمات والدة جمال مشاعر آمنة.. تساءلت: "من تظن ابنها جمال؟ أمير البلاد؟". استرقت النظر إلى عريسها عندما قدم إلى غرفتهما بعد عقد النكاح، قالت في نفسها: إنه حقاً أمير! كانت تلك العيون الآسرة أكثر ما أعجبها فيه. ولم يتبادلا بعض النظرات، حتى طرقوا على الباب طرقات متكررة، وهم يقولون من الخارج بسخرية: العريس، اكتف بهذا القدر الآن، والباقي في الليل إن شاء الله.. وقد حان الوقت لخروج العريس.. "

كانت هكذا العادات المتعارف عليها بعد عقد القران؛ يتركون العروس والعريس لحالهما في غرفة النوم لفترة قصيرة، حيث يسلم العريس عروسه المهر الموعود به. وكان الغرض من هذه العادة السماح لهما بلقاء تمهيدي سريع.. وإذا استغرق اللقاء وقتًا أطول من العادة، يبدأ أصدقاء العريس بقرع الباب، وهم يطلقون نكتاً ساخرة كفيلة بإخراجهما من الغرفة إخراج الاستحياء.

فتح جمال باب الغرفة وخرج منها برأس منحني من الخجل، اصطحبه أصدقاؤه ضاحكين، يسردون نكتاً ذات مغزى.. وحالما ذهب الرجال، أخذت النساء في التدافع إلى الغرفة.

-"ما شاء الله.. انظروا إلى وجه آمنة؟ إنه محمر مثل زهرة الكركدية.. لكنها فتاة جريئة.. لقد اغتنمت الفرصة...ههههه!"

-"لا تحسدوا عليها، هكذا الفتيات الشاطرات..!"

أخذت النسوة يمازحنها ويدغدغنها فاحمرّ وجهها خجلاً.

قال أحد من جانب الرجال:

-" لا ينس أحد أن يعطي الإكرامية للخياط بعد رؤية غرفة العروسين".

تحكم العادة المتبعة أن يقدم الضيوف بعد رؤية الغرفة شيئاً إكرامياً للخياط الذي قام بتجهيزها وتزيينها..

قادتها النساء، اللائي جئن لأخذها إلى منزل العريس، إلى السيارة المزخرفة المخصصة للعروسين. ركبت السيارة، حينها حل الخوف محل الخجل.. شعرت بقلبها يتقافز في صدرها.. لم تنجح في تهدئة روعها أغاني راقصات أوبانا ولا حديث التدليل والدغدغة الذي تلاطفها به النساء من كل جوانبها... تزايد قلقها حين خرجت السيارة من بوابة منزلها. تتوسط سيارتها أسطولاً من السيارات المتنوعة الألوان، المتجهة إلى بيت زوجها بمنطقة واياناد. اختفى بيتها وبلدها من عينيها شيئاً فشيئاً، ولم يسبق في حياتها يوم ابتعدت فيه عن بيتها ولو لليلة واحدة. ولم تقض ليلة واحدة في حياتها في أي مكان دون أبيها وأختها.. لم تستطع السيطرة على رغبتها في البكاء..

-"ما هذا! تبكين! عما قريب سيتحول هذا البكاء إلى الضحك والغنج حين يداعبك ولدنا جمال؟

قال إحداهن في محاولة لتهدئتها.

شحب وجه الشمس في كبد السماء التي تلونت بشيء من

الاحمرار ثم نشرت تدريجياً عتمة غامضة في أرجائها، ولم تزل سياراتهم تتسلق الطرق الجبلية المؤدية إلى منطقة واياناد حيث منزل زوجها. تسير السيارات ببطء شديد، عبر تلك الطرق المتعرجة الشاهقة الارتفاع، امتدت التلال والغابات بهيئات غير واضحة على مدى البصر.. سرعان ما اختفت رؤوس الأشجار وتحولت إلى أشباح الروع والأسى مع انتشار الظلام معلناً بداية ليلة غامضة..

صعدت السيارة منعطفات الجبل ومرتفعاته بصعوبة بالغة. تعلقت نظراتها بشجرة ضخمة مقطوعة من الوسط، شبه مقلوعة من جذورها، تقف على صدر أجمة خضراء بجانب الطريق، وكانت على وشك السقوط على الطريق في أي وقت. ودت أن تلتفت إليها مرة أخرى، إلا أن السيارة كانت قد سبقت المشهد.. وفي الجهة المقابلة، مضيق هوة عميقة.. أخافتها فكرة انزلاق سيارتها إلى أعماقه لو انحرفت عن طريقها بعض أشبار..

أطبقت آمنة عينيها خشية أن ترى شيئاً يرعبها، ولم تكن تسمع شيئاً من أصوات حديث من معها في السيارة وضحكاتهم مع أنها كانت وسط الجلبة التي يحدثونها داخل السيارة، كما لو أن أذنيها محشوتان بشيء ما. ارتجفت آمنة عندما هبت ريح باردة، أحست وكأن هناك شيء يتدحرج داخل صدرها.. أسندت رأسها على المقعد، وانزلقت إلى غفوة مريحة.. عندما استيقظت، كانت السيارة قد وصلت في فناء بيت زوجها. بدا لها ذلك المنزل وما حوله كقصر في قصص الليالي العربية، بفعل الأضواء الساطعة التي

تم تركيبها حول البيت بمناسبة الزفاف.. لم تثبت خطواتها حين نزلت من السيارة وكادت تترنح، ولكن إحداهن أمسكت بها قبل أن تطيح، وساعدتها على صعود الأدراج المؤدية إلى داخل الصالة. استقبلتها والدة جمال عند الباب.. ظهرت ملامح الجدية جلية على وجهها الدائري. حنت آمنة رأسها احتراماً لحماتها.. أمسكت بيد آمنة وقادتها إلى الصالة الوسطى، حيث أجلستها على الكرسي المخصص المفروش عليه الحرير. عندها بدأت راقصات أوبانا رقصتهن وأغانيهن. صاحت الأم بالاعتراض:

-"الأغاني بعد إهداء المجوهرات والهدايا"

وجاءت بصندوق مخملي أحمر اللون، واستخرجت منه عقداً من أربع طبقات وألبست آمنة إياه حول عنقها وبعده أسورة عريضة على معصمها. جاءت القريبات واحدة تلو الأخرى بهداياهن للعروس ووضعنها في حجرها، ولم يلبث أن يمتلئ حجرها بعلب الجواهر.

-"هل فرغ الجميع من تقديم الهدايا؟ يا فاطمة، ضعي هذه الأشياء في الخزانة. وأحضري للفتاة كوبًا من الشاي."

جاءت امرأة وأخذت العلب من حجر آمنة. وأحضرت أخرى إبريق الشاي ووضعته على المنضدة أمامها مع عدة أطباق من الحلويات وألوان من المأكولات.. لم تجد رغبة في أكل شيء منها، ولكنها شعرت بالانتعاش حين شربت الشاي الساخن.. علت أصوات المطربات الراقصات بطريقة مطردة رنانة..

ولما انتهت الرقصة ومراسيم المأدبة، دقت الساعة في الغرفة الوسطى بالإشارة إلى اثنتي عشرة ليلاً. بدأت كثير من الضيفات في الاستأذان، واحدة تلو أخرى.

أمرت والدة زوجها:

-"أدخلي العروس إلى غرفتها"

- "تعالي، يا بنيتي.. سأريك الغرفة"

قال لها إحداهن ممسكة بيدها. تبعها جمع غفير من النساء اللاتي ظللن في الغرفة منغمسات في أحاديثهن الجانبية، بعد إدخال العروس إليها.

-"يكفيكن حديثكن.. والآن دعنها ترتاح".

رفع صوت الوالدة. عند سماعه، انصرفت النساء على مضض.. لما غادر الجميع وخلا الغرفة، شعرت آمنة وكأن هطول الأمطار قد توقف فجأة. زال خوفها حين رأت جمال جالساً على السرير.

تقام المأدبة بعد ظهر اليوم التالي. عادة يبيت الزوجان الليلة الأولى من الزواج في منزل العروس، ثم يأتي أقارب العريس ليأخذوها إلى منزل زوجها بعد المراسيم. وفي نفس اليوم، يذهب أقارب العروس إلى بيت العريس ويأخذونهما إلى بيتها الذي تقام فيه تلك الليلة وليمة العرس. ولكن آمنة لم ترجع إلى بيتها في ذلك اليوم نظراً للمسافة الطويلة ومشقة السفر.

حضر أقاربها في اليوم التالي، ولمجرد رؤية أختها الكبيرة قادمة من البوابة، ركضت آمنة نحوها وعانقتها، امتلأت عيونهما بدموع الفرح.

بعد الغداء، خرجوا جميعاً إلى بيتها، تبعهم العريس وأصدقاؤه في سيارتهم. أقاموا أسبوعاً كاملاً في بيتها، لم تشعر بمرور الأيام حيث كان كل يوم حافلاً بالزيارات والولائم.

في طريق العودة إلى واياناد، كان جمال وآمنة لوحدهما في السيارة، جلست في المقعد الخلفي ملتصقة بزوجها، يتبادلان أحلى الأحاديث.. كانت حقاً رحلة ممتعة. ظلت تقرصه في فخذه حينما تظهر منه ظواهر الدعابة والشيطنة، وهي تلمحه إلى أن السائق يسترق النظر بطرف عينيه عبر المرآة الخلفية ويضحك منهما.. لم يكن جمال يأخذ الموضوع بجدية فيسأل السائق بنبرة تغلبها الممازحة:

-"حمار، تختلس النظر؟"

يضع السائق يده على فمه محاولاً قمع ضحكته.

عندما وصلت السيارة إلى المنعطف الخامس في الطريق الجبلي المؤدي إلى واياناد، طلب جمال من السائق إيقاف السيارة، ثم أخذ بيدها وأنزلها من السيارة.

-"أنظري إلى أسفل الجبل، منظر رائع لن تشبع منه عيونك".

صدقته كاملاً حين نظرت إلى ما أشار إليه.. ما أجمل هذه

الشجيرات الخضراء، المكللة بالزهور الحمراء والبيضاء. وفي أسفل الجبل، تمتد حقول الأرز كسجادة خضراء، مناظر خلابة تتلألأ حين تلمسها أنامل أشعة الشمس الساطعة. قالت مأخوذة بسحر المنظر:

-" ما أجمله!".

-"بل خدك أجمل حبيبتي!"

قال جمال وهو يقرص خدها بلطف. خجلت آمنة وغنجت، وأشاحت وجهها متظاهرة الممانعة.

همس في أذنها:

-" رائعة أنت كالبرتقالة."

نبههم السائق بالوقت:

-"سيدي، لقد تأخرنا. وستقلق عليكم والدتكم لو تأخرتم أكثر".

-"خلاص، تحركنا، يا وغد. ياله من مفسد للبهجة!"

أجاب جمال بلهجة لطيفة.

ركبا السيارة وسرعان ما استغرقا في العالم الخاص بهما حتى لم ينتبها حين وصلت السيارة أمام البيت. كانت الوالدة بانتظارهما، جالسة على كرسي الاسترخاء في واجهة البيت، وخلفها تقف خادمة تحرك لها المروحة اليدوية، وأخرى قاعدة على الأرض على جانب قدميها، تضع لها الفوفل على أوراق التنبول.

رفعت الوالدة صوتها فور ما رأتهما:

-"ما الذي أخركم؟"

-"تحركنا متأخرين بعد المأدبة"

-"مممم"

همهمت الوالدة بصوت مبطن بمعان، وألقت إلى آمنة نظرات تفتشها من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها، ثم قالت:

-"أين مجوهراتك؟ تتوافد العديد من النساء هنا للقاء العروس. تجلبين العار لي إذا خرجت إليهن هكذا."

-" إنها في الصندوق. طلب مني جمال ألا أرتدي كلها معا".

-"ادخلي بسرعة وارتدي كل شيء. لا تنس أنك زوجة ابن الحاج محي الدين كيريادان!.

تضايقت آمنة وشعرت أن الوالدة تنغص أيام فرحها، وأنها قد انسلت من قلبها السعادة التي كانت تغمرها. ولم تنجح في التأقلم مع طبيعة والدة جمال حتى مرور كل تلك السنوات.

بيت زوجها بالنسبة لها مبنى كبير واسع يسكن الظلام غرفه! حماة لا تتحدث إلا لتأمر! ليس لها هناك أحد تفضي إليه ما يختلج في صدرها.. شعرت بالاختناق.. كان جمال مصدرها الوحيد للراحة والمواساة، ولكنها لا تراه إلا في وقت متأخر من الليل، ويغادر في الصباح الباكر.

إذا أرادت آمنة التحدث إليه لبعض الوقت مع الراحة والطمأنينة، فعليها الانتظار حتى يصعد جمال الطابق العلوي فتختلي به. عندما يأتي إلى البيت لتناول الغداء، لا يكون حظها منه إلا نظرات عابرة مختلسة. ولن يستطيع هو أيضاً التحدث إليها إلا بعد التأكد من أن والدته بعيدة عن مكانهما. كانت آمنة تقطع ساعات النهار بطريقة أو بأخرى. لم يكن هناك كهرباء في المنزل. قبل حلول وقت الغروب، تقوم الخادمات بمسح وتلميع الفوانيس ومصابيح الكيروسين وإضائتها. ولم يكن بمقدور تلك الأضواء الضعيفة تبديد طبقات الظلام الراكنة في زوايا الغرف والممرات. تخاف آمنة الظلام خوفاً شديداً. ممرات طويلة يستحوذ عليه الظلام الرهيب والسكون المرعب طيلة الليل.. وفي الخارج، فغابات شاسعة تضيع في طيات الظلام الذي يغمر الكون.. وحشة الصمت الكثيف تخيفها في الليل.. بل كل شيء هنالك يروعها من أعماقها.

أرسل والدها الخادمة فاطمة إلى واياناد لمرافقتها وخدمتها. إذا حل الظلام، لن تسمحها آمنة أن تتغيب عن نظرها ولو للحظة، وتطلب منها ملازمتها كل وقت. في الطابق العلوي، كانت هناك غرفتا نوم كبيرتان، وصالة ضخمة بجانبها ممر طويل، الحمام ملحق بالصالة. إذا احتاجت آمنة الذهاب إلى الحمام، تطلب من فاطمة أن ترافقها. تغضب حماتها إذا رأت ذلك وتقول:

-"يا للعار؟ لا تزالين طفلة صغيرة لا تدخل إلى الحمام إلا ومعها أحد الكبار يمسك بيدها؟"

ثمة جيش من الخفافيش الصغيرة قد عشش بين عوارض السقف. إذا حل الليل، تحدث تلك الحيوانات البائسة جلبة وضوضاء دون انقطاع، مما تجلب الخوف إلى قلب آمنة فتسري رعشة في أوصالها.. أما الخادمة فاطمة، فكانت طبيعتها أن تغفو بسرعة، بمجرد انتشار العتمة.

-"ما بلاؤك يا مرأة، كم ساعات تنامين..!"

وحين تحركها آمنة في محاولة إيقاظها، تعتذر فاطمة وتقول:

-"لا أنام يا سيدتي.. أعاني من صداع شديد، فتأخذني غفوة."

تبدأ مع الغروب ساعات الانتظار لزوجها.. في الأيام الأولى بعد الزواج، كان يأتي مبكراً قبل المغرب. في تلك الأيام، كان يلتفت هنا وهناك حين يدخل إلى البيت، قبل أن يذهب إليها، للتأكد من أن والدته لم تره، لأن الوالدة لو علمت بأنه قد وصل وصعد إلى غرفته في الطابق العلوي، فستستدعيه على الفور، فيضطر جمال للنزول إلى الأسفل، تاركاً آمنة وحدها في الغرفة، تنتظر عودته، ولما تسأم من الجلوس بمفردها، تنزل إلى الأسفل، حيث تجد الأم وابنها يتبادلان أحاديث غير عاجلة على الإطلاق.. وإذا رأتها حماتها، سرعان ما يكفهر وجهها، وتقول بلهجة ذات تلميح:

-"هل وصلت قلة الحياء بالفتيات إلى هذا الحد؟ أ ما ناديته لمناقشة أمر مهم..؟"

عند سماع ذلك، تشعر آمنة بالخجل والخزي الشديدين.

ذات مرة، قالت آمنة لخادمتها فاطمة:

-" اذهبي إلى مكتبه وانظري ما الذي يبقيه هناك إلى وقت متأخر من الليل"

-"يا إلهي، اخفضي صوتك سيدتي، كي لا تسمعك والدته".

-"ما الذي يدعو لخفض الصوت؟ فهل هناك خطب ما؟ تعلمين شيئا؟"

-"سيدتي، لا تخبري أحداً أنني أبلغتك. إنهم يلعبون الورق هناك. كل مساء أراهم يبعثون إلى هناك كل المأكولات المطلوبة.. السيدة العجوز عالمة بالأمر كله. ليس فقط لعب الأوراق، بل يشربون الخمر أيضاً ".

-"شرب الخمر؟ من يشرب منهم؟"..

-"لست متأكدة يا سيدتي.. إنما سمعتهم يقولون.. دعيني أنزل إلى التحت، ورائي الكثير من الأعمال.."

كانت آمنة تستشعر الرائحة الكريهة عندما يقترب منها جمال.

-"ما هذه الرائحة؟ يصيبني منها الصداع عندما تقترب مني."

كانت تشكو إليه.. فلا يكون رده سوى ابتسامة ساخرة.. وهو يعلم أنها ستنسى الموضوع بعد قليل..

لم تر آمنة في حياتها شخصاً مخموراً حتى اليوم، ولم تكن تعرف كيف تكون رائحة الخمور. ولكنها بعد فترة قصيرة، بدأت تعرف كل شيء واحداً تلو آخر.

يأتي جمال إلى غرفة النوم في معظم الليالي بخطوات مترنحة، ولا يعي ما يفعله أو يقوله.. لم تستطع آمنة تحمل ذلك. اشتكت لأمه أخيراً مع أنها كانت تخاف من رد فعلها:

-"لا أشكو إذا كان لا يأتي إلي.. ولكن كيف يمكننا أن نتغاضى عن الأمر إذا كان يضيع عمره يشرب الخمر ويلعب الورق إلى منتصف الليل ثم يرجع إلى البيت ثملا لا يعي فعله ولا قوله؟

انفجرت الوالدة قائلة:

-"هل كبرت إلى أن تستجوبيني؟ هل تختلقين قصصاً عن ابني؟"

أرسلت لابنها على الفور، وقالت له:

-"مرأتك المتسلطة هذه تؤدبك وتمشيك على العجين! ليس ذلك إلا لأنك رجل محكوم لها"

-"ما الأمر؟ ماذا الذي حدث؟"

-"اسألها، هي قدامك."

أجهشت آمنة بالبكاء، صعدت الدرج مسرعة هاربة إلى غرفتها. ولما هم جمال أن يلحق بها، منعته والدته:

-"لا تذهب إليها الآن."

في تلك الليلة، وصل جمال مبكراً، حاملاً كيساً في يده. وكانت آمنة لا تزال تبكي مستلقية على بطنها. قال لها:

-" آمنة، انظري ما الذي أحضرت لك."

لم ترد عليه وتأت بحراك.. اقترب منها ورفع رأسها بيده، وقال وهو يمسح دموعها من خديها:

-"ما هذا يا حبيبتي! أتبكين كالأطفال؟ هل يشكو إلى والدتي أحد غيرك؟! ألا يمكنك أن تقولي لي مباشرة إذا كان عندك شيء؟ هيا آمنة، قومي".

-"لا أطيق الإقامة في هذا البيت بعد الآن، أريد الرجوع إلى بيتي حالاً، إن لم توافق على الانتقال إلى بيت جديد".

-"كيف يمكننا الانتقال؟ أتظنين أن الوالدة ستوافق على ذلك؟"

-"عليك إقناعها".

-"طيب. سنرى.. دعنا ننام الآن. والباقي كله فيما بعد إن شاء الله".

كررت آمنة شكواها كل يوم وأصرت قائلة: لو لا ننتقل إلى بيت جديد، سأرحل حتماً إلى بلادي.

عندما أيقنت أن جمال موافق على طلبها ولو جزئياً، أبلغت والدها بالأمر. وكان جمال هو نفسه من أخبر والدها أن هناك للبيع منزلا مع فدانين من مزارع البن، بمكان قريب من بيتهم.

جاء والدها الحاج حسن لمقابلة والدة جمال وأخبرها:

-"قال لي جمال إن هناك قصرا قديما وفدانين من المزارع للبيع.

يبدو أنه معجب به.. ما رأيك لو أشتريه باسمه؟

-"ابني جمال ليس في حاجة إلى تبرع أحد.. ولكن لا مانع عندي لو اشتريت شيئاً باسم ابنتك"

-"إنه عقار يقع في موقع هام.. فسيفيدهم في المستقبل. ولم أستحسن فعل أي شيء دون مراجعتك".

-"أنت تعرف الآداب والمبادئ، لكن ابنتك لا تعرف شيئاً منها.. لا أراها إلا ووجهها مكفهر.."

-"أليست هي فتاة صغيرة لم تنضج بعد ولا تعرف كيف تتعامل مع الكبار، ولم تتعود على الحياة خارج المدينة"

-"لا بد لها من التعود على كل شيء من الآن.. لأنها ستعيش هنا وليس في بيتها ولن أسمح ابني أن يعيش كحارس في بيت زوجته."

اشترى الحاج حسن العقار باسم ابنتها آمنة، قام أيضًا ببعض أعمال الصيانة على المنزل الذي اشتراه، متحججاً أنه يريد عرضه للإيجار. وكانت آمنة قد قررت عدم العودة إلى منزل والدة جمال، حين خرج إلى بيت أبيها، لتضع مولودتها الأولى. لكنها لم تبح أحداً بنيتها. بعدما أكملت تسعين يوماً بعد الولادة، حان وقت العودة، فرفضت العودة إلى بيت أم جمال. أخيراً أرسلت أم جمال لها، فتحججت آمنة بأن برد المنطقة الجبلية قد يضر الطفلة. ولكنها صارحت لجمال بخطتها الحقيقية:

-"لن أعود إلى تلك القلعة المظلمة. دعنا ننتقل إلى منزلنا الجديد"

-"يبدو أنه ليس لديك أدنى فكرة عما ستفعله أمي".

-"كلما عليك أن تتظاهر بأنك لم تكن تعرف شيئا.. ستتكيف أمك مع الواقع عندما نبدأ الإقامة في المنزل الجديد.. فلا ينفعها أن تقول شيئًا بعدها".

كان جمال أيضاً يود الانتقال، ولكن، ليس لديه الشجاعة لمواجهة أمه.

أما آمنة، فظلت مصرة على أمرها بكل حزم وشجاعة. لما جاء جمال ليأخذها إلى واياناد، خرجت معه، من غير أن تسمح حتى لأبيها بمرافقتهما. عندما وصلوا إلى واياناد، أمرت السائق بالذهاب مباشرة إلى المنزل الجديد. نزل جمال على الطريق وقال لها:

-"سألحق بك بعد قليل".

لم يستغرق الأمر الكثير من الوقت حتى وصلت الأخبار إلى آذان والدته. استشاطت غضباً تهتز له الدنيا كلها وصاحت في ولدها:

-"يا وغد، ألا تستحي؟ إذا كانت زوجتك لا ترضيها الإقامة معك في بيتك، فخلي سبيلها.. النساء غيرها كثير، وهل يرفض أحد في هذا البلد أن يزوج ابنته من ابن الحاج محي الدين كيريادان؟ طلقها ثلاثاً الآن! هذا ما تستأهله تلك المتسلطة!"

حبست ابنها في بيتها ولم تسمح له بالخروج، فانحصرت آمنة لوحدها في المنزل الجديد.. عندما علم بذلك، جاء والدها الحاج حسن وأقام معها، وذهب يوماً لمقابلة والدة جمال في رفقة الحاج كوتيمي، عم جمال، حيث تعرضا لوابل من السب والشتائم التي أمطرتها عليهما، ولم تترك ولا عضواً من أعضاء أسرة آمنة إلا وطعنت فيه.. وظلت متعنتة مصرة على عدم إرسال ابنها إلى حيث تسكن زوجته. تطوع الأقارب والسكان المحليون بمحاولات التوسط، ونجحوا أخيراً في إقناعها بأن يقضي جمال طوال النهار مع أمه، ويذهب إلى زوجته فقط في الليل، كان ذلك هو الاتفاق، مصحوباً بعدة شروط أخرى وضعتها أم جمال. لكن مع مرور الأيام، تذللت كل العراقيل.

و كان ذلك بداية البلايا والمصاعب، حيث لم يكن جمال على استعداد لتغيير نمط حياته السابقة، حتى بعد الانتقال إلى المنزل الجديد.. لم تتوقف عن عاداته القديمة؛ بل أضاف إليها أخرى جديدة.

وها هو الآن في هذه الحالة! أصبح اليوم بصحة أحسن قليلاً.. لا تستطيع آمنة أن تتذكر حالته في تلك الليلة المشؤومة.. تعتريها رجفة في أوصالها كلما ظهرت في ذهنها تصرفاته الوحشية العنيفة، قبل أن يحضر الطبيب ويعطيه حقنة التسكين.. قام الطبيب نفسه بإبلاغ الحاج حسن، الذي وصل في نفس الوقت الذي وصلت فيه سيارة الإسعاف. وكانت أم جمال أيضًا قد وصلت، حين بلغت إليها الأخبار.

-"هل قتلتِ ابني، أيتها الساحرة الوقحة؟ ما السحر الأسود الذي عملته عليه حتى صار في هذه الحالة؟"

صرخت أم جمال بصوت عال مسموع للجميع، وهي تضرب صدرها. ولا يزال صوت صراخها يتردد في آذان آمنة حتى اليوم.

-"اشتريتم الدواء للحقن؟"

نهضت آمنة من أفكارها على سؤال الممرضة، فمشت نحو الطاولة لتعطيها الدواء.

10

كانت آمنة تغط في نوم عميق. ناداها جمال، فحاولت أن تفتح عينيها، لكنها شعرت بثقل في جفونها. سألته، وهي لا تزال مستلقية على السرير:

-"ما الأمر؟ لم ناديتني؟"

-"أنت نائمة طوال الوقت، قد مرت ساعات بعد شروق الشمس. هلّا أعطيتني كوبًا من الشاي؟"

-"يا الله، ما لك يا جمال! هذا منتصف الليل! الساعة الثانية ليلاً.. اخلد إلى النوم."

-"ليس الليل الآن. قد أصبح الفجر.. أحضري لي كوبًا من الشاي."

-"هناك قهوة سوداء في الترامس.. ممكن أعطيك إياها؟"

-"لا، أريد الشاي."

-"يا إلهي، أين سأذهب في هذه الليلة لإحضار الشاي؟ يفتح مقصف المستشفى فقط في الساعة الخامسة."

-"ألم أقل لك أن الوقت ليس ليلاً؟"

تغير مزاج جمال. انتفض واقفاً بقوة أطاحت على الأرض زجاجة الدواء من فوق الطاولة، فتكسرت محدثة صوتاً مدوياً في أرجاء المكان في سكون الليل. لم تطمئن آمنة أن تخرج من الغرفة لاستدعاء الممرضة، تاركة إياه وحده في الغرفة. مضت لحظات ثقيلة طويلة.. ثم انهار جمال على السرير وتكور حول نفسه وهو يلهث بشدة.. ركضت آمنة على الفور لاستدعاء الممرضة.

-"أنا قادمة"

قالت الممرضة وهي تتبع آمنة إلى غرفتها وفي يدها الدواء للحقن، بينما كان جمال لا يزال على السرير، يضرب بأطرافه على الفراش ويصرخ عالياً..

- " أمسكي يده هذه".

طلبت منها الممرضة. وعندما همّت بإمساك يده، دفعها جمال بقوة.

-"لا تلمسيني... يا الله.. يا رب... يؤلمني جسدي كله.. يحترق بطني.. "

غير قادرة على تحمل المشهد، بدأت آمنة في البكاء.

-" راقبيه. سأذهب وأعود فوراً"

قالت الممرضة خارجة من الغرفة، وعادت على الفور مع الطبيب ومساعده.. أمسكوا جمال بقوة وأضجعوه وحقنوا الدواء. فما لبث أن ينام مرة أخرى، وهو يئن و يرتعش..

قال الطبيب لآمنة محاولاً مواساتها قبل أن يغادر الغرفة:

-"لا داعي للقلق.. كل شيء سيكون على ما يرام في غضون بضعة أيام. أنصحك أيضًا أن تأخذي قسطاً من الراحة".

لم تستطع آمنة النوم. أغلقت الباب وجلست على الكرسي. لم يذق قلبها طعم النوم والاطمئنان تلك الليلة.. وقد مر أسبوع كامل منذ أن رأت ابنتيها، حين جاءتا لزيارة أبيهما، لكنه لم يعرفهما، إذ كان على حالة هذيان شديد، فزعت منها نصيرة فبكت خائفة وغطت منيرة وجهها وهرولت من الغرفة. بعد ذلك، منعت آمنة بناتها من المجيء إلى المستشفى.

أقامت أم جمال معهم في المستشفى أسبوعاً ملأت أيامها بالتذمر والتبرم..

-"لم يذق ابني راحة البال منذ انتقاله من منزل أبيه.. كل يوم هو مريض.. ولم يمر عليه يوم إلا وهو في معضلة جديدة.. انظري إلى حالة ابني هذه! قلبي يتقطع من رؤية هذا المشهد.. لا بد أن أحداً قد صنع له السحر الأسود.. هذا المرض لن ينفع لشفائه علاج الدكاترة.. لما أرجع إلى البيت، سأطلب من الشيخ القيام باللازم، ولن ينفع الاعتماد على هؤلاء الدكاترة المخبولين".

مر على كلامها هذا أسبوع ولم تحضر بعدما اختفت ذلك اليوم.. وكانت آمنة سعيدة بذلك، لأنها تعلم جيداً أنها لو جاءت لجرحت مشاعرها بلسانها الحاد، حتى تفيض الدموع من عيونها،

فيؤثر ذلك على الصحة النفسية لجمال ربما يؤدي ذلك لعودته إلى الحالة السابقة..

كانت آمنة مستلقية بأمل أن تنعم بشيء من النوم، عندها سمعت أذان الفجر من مسجد قريب. فذهبت إلى الحمام وفرشت أسنانها، وتوضأت وصلت صلاة الفجر. قرأت القرآن لفترة طويلة وهي جالسة على سجادة الصلاة..

-"آمنة.. آمنة..."

توقفت آمنة عن القراءة عندما ناداها جمال. أغلقت المصحف وذهبت إليه. وقد انقشعت عن وجهه تلك الملامح الوحشية الشرسة التي ارتسمت عليه في البارحة. وبدت نظراته تحتضن الألم والأسى في طياتها.

سألها جمال:

-" كم الساعة الآن؟"

-لا بد أنها تجاوزت السادسة.. هل تريد الشاي؟

-"أكملي صلاتك أولاً."

-" انتهيت من الصلاة.. بس دعني أطوي سجادة الصلاة."

وعندها، وصل السائق ومعه الشاي وأغراض أخرى. دخّلت آمنة جمال إلى الحمام وفرشت له أسنانه، وجففت وجهه ويديه بالمنشفة، ثم أجلسته على السرير.

-"أحتاج أن أحلق شعري ولحيتي.. أشبه في هذه الهيئة مخلوقاً غريباً، أليس كذلك؟"

-"لا يهمك الأمر، محل الحلاقة قريب من هنا. هل آتي بالحلاق:

سأل السائق. فالتفت جمال إلى آمنة، يسألها:

-"ما رأيك يا آمنة ؟"

-"صحيح، شعر لحيتك متشابك، ستريحك إزالته.. لكن ألا ينبغي أن نسأل الطبيب؟"

-'لماذاا؟ هل سيعترض الطبيب على حلاقة شعري؟ اذهب واحضره يا ولد".

بدا جمال شخصاً جديداً تمامًا بعد التزيين والاستحمام وتغيير الملابس. بدا وجهه بشوشاً محبباً..

-"انظري، آمنة. لا أود العودة إلى واياناد حين نخرج من المستشفى.. ما رأيك؟"

-"هذا ما وصى به الطبيب أيضًا. واستحسن أن تبتعد عن تلك البيئة لفترة من الزمن."

-"ما رأيك لو أنشأنا بعض الأعمال التجارية في مدينتكم؟ الدخل من محاصيل البن يتضاءل يوماً بعد يوم، لن يثمن ولا يغني من جوع."

أجابت آمنة:

- "دعنا نتشاور الموضوع مع بابا وسنتخذ القرار الأفضل إن شاء الله.. تحتاج الآن إلى شيء من الراحة. دعني أستدعي الممرضة وقد قرب وقت تناول الدواء.

كان جمال يقضي النهار هادئ الطبع، محبب الحديث. وإذا جن الليل بظلامه، فيتحول طبعه ويصير مضطربا شرساً. يؤكد لها الطبيب بكل ثقة أن كل شيء سيعود إلى طبيعته في غضون أسبوعين. أصبح كل حديثه يتمحور حول الانتقال إلى المدينة بشكل دائم، منذ بضعة أيام ماضية.

-"حين نخرج من هنا، سنذهب مباشرة إلى بيتك يا آمنة.. ليس لدي أدنى رغبة في الرجوع إلى واياناد، مع أني لا أدري كيف يكون رد فعل أمي حين تعلم بالأمر.. وهل تحدثت مع والدك في موضوع إنشاء الأعمال؟"

-"لا تصدع رأسك بهذه الأفكار الآن. وقد تولى بابا كل شيء. عنده مستودع بطريق الشاطئ، لا يزال شاغراً. أخبرته أننا سندفع له إيجاره. يقترح عليك بإنشاء وكالة البيع بالجملة فيه، على أن يكون له حصة في الاستثمار. وقد بدأ بالفعل الأعمال الورقية اللازمة لذلك"

-"دعيه ينهيها بسرعة، يا آمنة؟"

-"أوصى الطبيب بشدة أنه لا بد من الاستراحة على الأقل لمدة

شهر. بدأت عطلة المدرسة للعيال.. ماذا لو نذهب إلى مدينة أوتي لقضاء أيام العطلة فيها؟ قال لي بابا لديه صديق يملك بيتاً هناك، فاضي لا يسكنه أحد.. سيكتب بابا إلى صديقه إذا كنت موافقاً على الخطة. "

-"فكرة رائعة.. إذهبي إلى الطبيب واطلبي منه التصريح للخروج من هنا في أقرب وقت. لقد مللت من الإقامة هنا."

قالت له الممرضة التي جاءت بالدواء وهي تمازحه:

-" تبدو وسيماً اليوم!"

11

-"آمنة، أنا بحاجة ماسة إلى خمسين ألف روبية. عندي أمر مهم".

-"ليس لدي حتى خمسون روبية."

-"ألست أنت من تقومين بإدارة الأعمال حالياً؟ كل الناس يتحدثون عن ازدهار أعمالك ونجاحك. ماذا تفعلين بعائدات البن؟"

-"نعم، إذا استهتر الرجل بمسؤولياته، تضطر المرأة إلى أن تتولى زمام الأمور بمفردها.. هل تفكر أبداً كيف أعيش أنا وبناتي؟"

-"لا تتفلسفي كثيرا. فقط أخبريني ما إذا كنت ستعطينني المبلغ أم لا."

-"لن أعطيك ولا روبية واحدة، لتهدرها. لا تنس أن لدينا ابنتين، أخاف ألا يأتي أحد يطلب أياديهما حتى ولو عرضنا لهم مبلغاً خيالياً كمهر البنت، تدري ما هو السبب؟ أنهما ذريتك! لا ترني وجهك مجدداً لتطلب مني المال".

-"هل أنت واعية ما تقولين؟"

-"نعم."

-"ستندمين على ذلك. إذا كنت تريدين رؤيتي مرة أخرى، ستتوسلين إلي، ووجهك على قدمي! وإلا فلا يكون اسمي جمال!".

- حتى كلبي لن يسجد على قدمك! اغرب عن وجهي.. في ستين داهية!

تأسفت كثيراً حين أدركت أنه يرجع تدريجياً إلى حياته السابقة.. كان رجلاً جديداً يوم خرج من المستشفى وذهب معها إلى بيتها. بعد استراحة أسبوع في بيتها، خرجا مع العيال إلى مدينة أوتي حيث قضوا شهراً سعيداً تفنن جمال في ملء أيامه وساعاته بالسعادة والهناء، أيام ذات ألوان بهية من حياتها، والتي لا تزال تعيش في ذاكرتها.

وبحلول وقت عودتهم من الرحلة، كان والدها قد قام بكل الترتيبات اللازمة لإنشاء المشورع التجاري من أحل صهره.

سأله جمال:

-" أليس الأحسن أن أرى أمي وأطلب موافقتها؟"

لم تطمئن آمنة أن ترسله وحيداً إلى واياناد، نظراً للمسافة الطويلة وصحته.. فرافقت معه حين ذهب إلى أمه التي استقبلتها بطريقة كانت تماماً كما تتوقعت آمنة؛ سمّعتها وابلاً من الشتائم وألفاظ اللعن، لم تطعنها هي فقط، بل أيضاً جميع أعضاء عائلتها وأجدادها.. أجلست ابنها إلى جانبها وأخذت في سرد شكاويها

وتبرماتها، واحداً تلو الآخر، حتى امتلأت عيون جمال بالدموع عطفا على أمه.. ولم يلبث أن يغير رأيه، وقال لزوجته:

-" آمنة، بإمكانكم، أنت والعيال، الذهاب الآن، سأعود بعد يومين."

-لم توافق آمنة على ذلك واحتجت قائلة:

-"الله وحده يعرف مدى عنائي وجهدي من أجل إعادتك إلى الحياة بهذه الحالة.. ما يصير أبداً أن تقيم هنا لوحدك".

ولم تزل تصر على رأيها إلى أن انقاد لها جمال ووافق على مرافقتها. على الرغم من أن جمال غادر واياناد، وانتقل إلى المدينة على مضض، إلا أنه بدأ يحب الحياة المدنية شيئا فشيئاً. وكان سريع الفهم والاستيعاب فيما يتعلق بالأمور التجارية، كما أنه أثبت مهارته في التصادق مع الناس والاندماج في محيطه الجديد بسرعة وسهولة. ولم يكن أمراً عجيباً أن اجتمع حوله لفيف من الأصدقاء خلال فترة وجيزة، بالإضافة إلى أنه سرعان ما أصبح مقربا مرحباً به لدى أصحاب المناصب والشخصيات المرموقة في المدينة، وحصل على عضوية عديدة في الأندية المخصصة للشريحة العليا من المجتمع. فما لبث أن كان مشغولاً جداً في حياته الجديدة الزاخرة بالالتزامات والمواعيد.

على الرغم من ذلك كله، مل من المكوث في بيت زوجته، فقط بعد مرور شهر من الإقامة. قال لها:

-"اسمعي يا آمنة، العيش في بيت الزوجة ليس بأمر محمود بالنسبة للرجال. فلننتقل إلى بيت جديد".

وافقت آمنة على اقتراحه. استأجر منزلاً وانتقلا إليه. فجاء بشكواه التالي بأن المنزل المستأجر لا يناسب مكانته الاجتماعية. يجب بناء بيت جديد على الفور بما يتناسب مع مستواه. أعطاها والد آمنة قطعة أرض بمساحة نصف فدان، غير بعيدة عن بيتها. ولما أبدى جمال رغبته في بناء قصر ضخم، حاولت آمنة الاعتراض، قائلة:

-"نحن نمر حالياً بفترة الكفاح.. ونواجه قلة السيولة.. أليس الأفضل أن نبني بيتاً معتدلاً في هذا الوقت؟

-"لا تحملي نفسك هم كل ذلك.. اتركيها لي.. أهم شيء أن يكون بيتنا ملائماً لمكانتنا وكرامتنا".

كان البيت الجديد متكوناً من ثلاث غرف نوم ضخمة في الطابق العلوي، وشرفة، وفي الطابق الأرضي، صالة واسعة يتوسطها الدرج المؤدي إلى الطباق العلوي، غرفتا نوم عريضتين إلى يمين الصالة وإلى يسارها، صالة الطعام، وصالة صغيرة أخرى، تفتح إلى غرفة نوم أخرى، المطبخ، الممر الواسع، المخزن الكبير..

بدأ جمال أعمال البناء بالمال الذي حصل عليه ببيع قطعة أرض مملوكة له في واياناد. ولما نفد ذلك المبلغ، توقفت أعمال البناء، تماماً كما نبهته آمنة في البداية، إلا أن والدها لم يقصر في ضيقهما،

حيث ساعدهما بسخاء. كان جمال قد استثمر كمية كبيرة من المال في أعماله التجارية، إنه هكذا، إذا أولع بشيء، لا يعمل لخ حساباته، ولا يلتفت يميناً وشمالاً للتفكير عن عواقب قراراته.

أكملت الأعمال وانتصب البيت الجديد بهيئته الرائعة المهيبة الكفيلة بإعجاب الجميع. كانت تنويان إقامة مأدبة كبيرة بمناسبة حفل الترحيب بالبيت الجديد بمشاركة جميع الأقارب والأصدقاء. لكن، عندما ذهبا إلى واياناد لدعوة أم جمال، افتعلت جدالاً وشجاراً كالمعتاد، وأقسمت لابنها أنها لن تدخل بيته الجديد. فانتهى الأمر بإلغاء فكرة إقامة أية احتفالات، وإنما انتقلوا إلى البيت الجديد في يوم ميمون اختاراه.

كانت آمنة تذكر زوجها بزيارة أمه كلما وجد فراغاً في أوقاته، وأحياناً ترافقه هي أيضا في زيارته لها، لكنها توقفت عن زيارتها بعدما أدركت من تلميحاتها الجارحة أنها ضيفة غير مرغوب فيها لدى حماتها.

قد تمضي أسابيع متتالية دون أن يتمكن جمال من المرور على والدته، لسبب ارتباطاته الكثيرة، ولكن الأمر ينتهي في النهاية بأن تلقي حماته اللوم كله عليها، حيث تتصل بها وتشتمها بكل ما استطاعت حفظها من اللعنات. عادة تلتزم آمنة بالصمت وتسمع كل شيء بمنتهى الصبر.. ولكن عندما تتجاوز حماتها أقصى حدودها، تضطر للرد عليها، فتصبح الأمر جحيماً عندما يزور جمال والدته في المرة القادمة.

كان جمال في البداية لا يأخذ تبرم والدته على محمل الجد. ولكنه قد تغير وسأل آمنة مؤخراً:

-"لماذا تستفزين أمي بأن تردي عليها..؟"

لم تعر آمنة أذنا صاغية لسؤاله.

وكثيرا ما حذرته من العودة إلى حياته السابقة، مذكرة أنهما الآن بصدد تحقيق الازدهار وبناء حياتهما من جديد..

كلما زاد عدد أصدقائه، كلما تأخرت عودته إلى البيت. كانت آمنة تعرف جيدًا أنه سيمل من كل شيء بسرعة، وعما قريب يبحث عن الجديد.. إنه رجل تنقصه قوة الثبات على رأيه ومشاعره.. سرعان ما ينجذب إلى أي شخص يسعده بكلمة أو كلمتين بهدف نيل رضاه، ولن يتردد من الإنفاق عليه بكل سخاء. ولذلك كانت تحرص كل الحرص من البداية لضبط الأمور بالمراقبة المباشرة، ولم يكن هو أيضاً يعترض على ذلك.. لكن، بطريقة ما، بدأ كل شيء ينفلت من سيطرتها شيئاً فشيئاً..

وجدت نفسها مرة أخرى في موقف يجبرها على شن الحرب على زوجها.. تعرف جيداً أنه لن يقبل النقد والاعتراض.. وإنما يريدها أن تكون زوجة خاضعة خانعة منصاعة لكافة رغباته ونزعاته. كانت آمنة على استعداد لتكون أمامها ذليلة ومنخفضة أخفض من سطح الأرض.. ولكن كيف تستطيع التحمل إذا جعل يتصرف، غير ناهض بمسؤولياته بل مطلقاً زمام أمره كله إلى

اللامبالاة.. وكان جمال يعود إلى أنماط حياته السابقة، رغم محاولاتها عدة مرات لإقناعه بأساليب الحب والمودة، فلا يكون جوابه سوى أن قال:

-"كل ذلك عادي جداً بين رجال الأعمال.. حياتهم لا تخلو من مثل تلك الأمور".

-"لكن، إذا صرفت المال بلا حد ولا حصر هكذا، فلن يلبث أن يفضي الأمر بأعمالنا إلى الفوضى.."

-"يعطي الله المرأ من ماله لينفقه.. وليس ليدخره في الخزانة، ثم يدور حوله يحرسه، لا يدع أحدا يقترب منه، كعفريت من الجن.. يقل نومه، ويزيد قلقه.. ولن ينعم بالراحة حتى بعد الموت..

-"نعم، حرست المال كالعفريت، لذلك استطعت الآن التفنن به في وجوه البذخ التبذير"

-" أليس في عقلك شيء أهم من المال؟! فلا ألوم أمي التي تقول عنك ما تقول..."

-"لماذا توقفت.. أكمل! ما الذي همسته أمك في أذنيك هذه المرة؟ قول..".

صرخ قائلاً:

خففي غرورك، ما أحقر الظنون التي تغذين بها كراهيتك.. لسانك الوقح أطول من جسمك..

كانت الأم قد شحنته بغضاً لها.. فلن يكف عن جرحها حتى يفرغ ما في داخله.. دعه يفعل كيفما يشاء، تساءلت آمنة. عاد جمال بعد زيارة أمه كل مرة حاملاً في ذهنه قائمة طويلة من الشكاوى.. وكان ضمن قائمة تلك الاتهامات أنها امرأة لا تحترم زوجها وتتحايل مع والدها لإخراجه من مشاريعه التجارية، إلخ..

وأصبح هذه الأيام يزور أمه عدة مرات في الشهر قاطعاً كل المسافات إلى واياناد. لا تصيب أمه بوادر حمى خفيفة، حتى تتصل بابنها هاتفيا تطلب منه الحضور فوراً. وصارت لا تكتفي بخدمات العلاج المتوفرة لدى الأطباء المحليين وتطالب لنفسها أدق الفحوصات في المدينة حتى لأبسط الأمراض، إلا أنها لم تدخل أبداً إلى بيت آمنة في أية مرة جاءت إلى المدينة للعلاج.

-"لم لا تأتي بأمك إلى بيتنا حين تجيء إلى المدينة؟ علها تشتاق على الأقل لرؤية العيال..."

-"لماذا آتي بها هنا؟ ترغبين بالتباهي والتفاخر أمامها؟ أمي ليست بحاجة للاعتماد عليك ولا تريد شيئاً منك".

تشعر آمنة بالاستفزاز عند سماع ذلك، لأنها تعرف جيداً عن حسب وشرف أسرة كيريادان التي يفتخر بها جمال وأمه أمامها. لقد باعوا جل ممتلكاتهم، وما بقيت منها إلا ما هي مهملة مهجورة دون أن يهتم بعنايته أحد. ولا تجهل آمنة أن جمال يأخذ من مالها من حين لآخر، إلا أنها تتغاضى عن كثير من أفعاله نظراً لمصلحة ابنتيها اللتين ناهزتا سن الزواج.

لما يتم إدخال أم جمال إلى المستشفى القريب من بيت آمنة، لن يقوم جمال بإخبارها بالأمر، مع أنه يلقي اللوم عليها في النهاية إذا لم تستوح الخبر بأية وسيلة لتقوم بزيارة حماتها في المستشفى، وتعد لها ثلاث وجبات يومياً وترسلها إلى المستشفى بانتظام، مع أن الاستيفاء بجميع تلك المهام لا يضمن لها النجاة من اللوم والإهانة.. كثيراً ما قالت لها حماتها:

-"تقول الناس أموري طيبة هنا في هذا المستشفى القريب من بيت ابني، لأنهم يظنون أن زوجته ستقوم برعايتي! ولا يدرون أنها لا يهمها مرضي أو شفائي ولا شيء من شأني.. ولولا خادمتي فُطيمة، لما حصلت على ما يحفظني على قيد الحياة من الطعام وأنا في هذا المستشفى..

قالت آمنة مرة خلال إحدى زياراتها إلى المستشفى:

-"أليس من الأفضل والأريح لكم استشارة الأطباء المحليين هناك في واياناد لمثل هذه الأمراض البسيطة بدلاً من قطع كل هذه المسافة والقدوم إلى المدينة؟ قد تتسبب هذه الرحلة الطويلة الشاقة عبر تلك الطرق الجبلية المتعرجة وحدها في إصابتك بالمرض وتفاقمه."

ثارت أعصاب حماتها لدى سماع ما قالت والتفتت إلى ابنها وقال له بلهجة ملأها التذمر:

-"ألم تسمع يا وليدي جمال ما قالت مرأتك؟ أليست ما تقول

أنني ليس بي شيء وأني أتظاهر بالمرض وأتمدد في المستشفى دون داع؟؟ حسنا، كفى.. رجعني حالاً إلى بيتي"

أصرت على الخروج من المستشفى في ذلك اليوم نفسه، ورجعت إلى واياناد، ورافقها ابنها أيضاً، وانقطع تماماً عن التواصل مع آمنة لمدة أسبوع. وأخيراً، اتصلت به تستفسر عن أحواله، فرد عليها قائلاً:

-"لا أشعر أنني على ما يرام. فلا أستطيع السفر الآن.. سآتي بعد بضعة أيام.

ولم يستعد جمال للعودة إلا بعد أن توسلت إليه آمنة عدة مرات. كانت تقول له، لتشجعه على العودة:

-"كيف يمكنك أن تقيم هناك وأنت قد استثمرت الملايين في أعمالك هنا؟ لا تنس أن بابا لم يعد بصحة جيدة كما كان في السابق حتى توكله كل شيء".

-"أنا أيضًا لم أعد أستطيع السعي والجري كالسابق.. وهنا تتلف الأموال التي اكتسبها الأجداد من عرق جبينهم، فقط بسبب أنه لا يوجد هنا أحد يعتني بها. بالإضافة، لقد أصبحت أمي كبيرة السن ضعيفة الصحة ودائمة الإصابة بالأمراض.. تسخر الناس مني بأني رجل هجر أمه في الغابة في شيخوختها ليقيم مع زوجته في المدينة ويستمتع برغد الحياة..

-"كل هذه أفكار جديدة لم أسمعها منك من قبل. ما الذي جاء بها إلى رأسك الآن؟"

-"السبب الوحيد أنت وسلوكك.. ألم تجعلي كافة المعاملات المالية باسمك؟ فقومي بإدارة كل شيء بنفسك."

-"ألا أعطيك كل ما تطلبه؟ لو كنت أنا أيضاً تهاونت في الأمر، لضاع كل شيء تمامًا"

-"قال لي حمزة حين جاء أول أمس إن هناك مزرعة بنّ معروضة للبيع، لها أفضل المواصفات، وتقع قريبة جداً من مزرعتنا. يبدو لي الآن أن الأعمال التجارية لا تناسبنا، دعينا نبيع مشاريعنا هناك ونشتري بمالها تلك المزرعة هنا في واياناد."

-"الآن فهمت سبب رغبتك في العودة إلى قريتك. هل وجد ذلك الوغد سبيله إليك مجدداً؟ هل نفدت مدخراته المسلوبة؟ الآن يمد بصره على ممتلكاتنا؟ دعه يحتفظ بهذا المخطط لنفسه".

-"هدئي أعصابك ولا تضخمي الأمر.. وإنما شاركت معك الفكرة، هذا كل ما في الأمر. على أي حال، لقد قررت أن أقيم هنا بعض الوقت، يجب أن أعتني بشؤون مزارعنا. يمكنك أنت وعيالك أيضاً الانضمام معي".

-"مهما كان الأمر، وعلى أي حال من الأحوال، لن أرجع إلى هناك.. أرجو أنك لم تنس حالتك حين غادرت ذلك المكان في المرة الأخيرة؟ إن كانت نيتك أن تعود إلى عاداتك السابقة مرة أخرى، فلا أملك القوة لرؤية ذلك".

-" لا تقلقي. ليس لدي أي رغبة في استئناف حياتي القديمة،

ولذلك أود أن تكوني معي.. أما شؤون الأعمال هناك، فسيعتني بها والدك."

-"لا تتوقع أن آتي هناك مهما قلت".

خرج صوتها مبحوحاً متحشرجاً وهي تقول ذلك..

علمت عن طريق علي أن حمزة أصبح مجدداً يتردد إلى جمال، وأنه يرجع من بيته وبيده المال الكثير.. فقدت السيطرة على نفسها وسألت جمال:

-"لماذا تعطي المال لحمزة كلما يأتي إليك؟ ما هي اللعبة الجديدة التي تجري بينكم هذه الأيام؟"

-"هذا ما يهمس في أذنيك ذلك الحمار الشرير، علي، الذي يزين لك الأخبار والقصص التي يختلقها.. ألم أقل لك إنني لا يسرني أن يتوظف ذلك الحقير عندنا؟ لكن من يسمع كلامي هنا؟!

-"أيا كان المبرر، لن أسمح لذلك اللعين حمزة أن يطأ بقدمه فناء هذا البيت مرة أخرى."

-"إنما أعطيت له المال لتسميد المزرعة. وسأرجع لك المبلغ كله بعد بيع محاصيل البن في الموسم. لكنك تلومينني في كل ما أفعل.. تعتبرينني مخطئاً مهما كان موقفي.. إذا كان الأمر هكذا، فالأريح لي أن تقومي بنفسك على كل شيء"

قال جمال زاعقاً ثم بدأ مستعجلاً بحزم ملابسه في حقيبة السفر، وخرج مسرعاً إلى الخارج، حاملاً أمتعته، مأخوذاً بنوبة من

الغضب. أصبح ذلك عادة تتكرر من حين لآخر، بمجرد ما يسمع منها شيئاً لا يرضيه.. ولا ترجى عودته إلا حينما يرضى بها لنفسه، ولا يكون متاحاً للتواصل الهاتفي أيضاً.. تكرر ذلك مراراً حتى تعصبت آمنة هي الأخرى وشددت على موقفها.

قالت لوالدها ذات يوم:

-"قررت أن أتولى إدارة المتجر يا بابا، فعلمني كل شيء"

-"لا داعي أن تحضري في المتجر، يكفي أن تقومي بمراقبة الحسابات وأنت جالسة في البيت.. لكن علينا توظيف مدير مؤهل، لأن علي لا يمكن الاعتماد عليه كلياً. أعرف فتى أميناً يناسب لذلك المنصب.. مهما كان الأمر، لا داعي للقلق ما دمت حياً؟"

بينما كانت آمنة هكذا، تجد شيئاً من الثقة بالنفس والطمأنينة، إذ جاء علي من المزرعة بخبر جديد يقضي على أمنها وسلامها:

-"انتشرت في القرية شائعات أن امرأة تسكن مع جمال في بيته، يقول البعض إنه قد تزوجها بينما ينفيها البعض الآخر".

-"هل تحققت من الأمر بنفسك يا علي؟"

-"لم يسمحني بالاقتراب من بيته"

تمنت على الله أن يكون الخبر مجرد شائعة مفتراة.. نسيت من هول الأمر الخصام القائم بينهما.. وحاولت الاتصال به، لم تتمكن من محادثته إلا بعد عدة محاولات. فتحت الحديث بأسلوب ودي سائلة:

-"اختفيت عني كأنك نسيت الطريق إلى هنا؟"

-"كنت مشغولاً جداً في الأيام الماضية.. على أية حال، سآتي هناك غدا إن شاء الله، لأني أحتاج بعض المال على وجه السرعة، اعتبريه كقرض، سوف أرده إليك.

-"لا تأت إذا كان غرضك الحصول على المال"

-"أشتاق أيضاً لقائك ولقاء بناتنا. سآتي غداً بالتأكيد".

لقد حضر كما وعد، لكنه سرعان ما رجع غاضباً حين رفضت أن تعطيه المال.

ذات يوم، قالت الخادمة بياتوتي لآمنة:

-"هل تعرفين يا سيدتي، أن أم زوجك تستخدم السحر الأسود.. أسكنت في بيتها شيخاً ساحراً لعمل السحر والشعوذة.. هذه حقيقة رأيتها بأم عيني. وهذا الذي يجعل زوجك لا يهتم بك، فيجب أن نصنع السحر المضاد، هل توافقين أن نذهب للقاء السيد الشريف في مقاطعة مالابورام؟ لا أظن أن هناك شيئا لا يستطيع السيد الشريف فعله..

حدقت آمنة في وجهها مغتاظة وسألتها:

-"هل لدى السيد الشريف سحر لتغيير قدر الله وقضائه؟!

12

لم تستطع آمنة النوم، كانت متوترة مضطربة، مشت في أنحاء الغرفة ذهاباً وإياباً.. بينما هي كذلك، أخرج العصفور البلاستيكي رأسه من فتحتها بالساعة الحائطية وزقزق ثلاث مرات، بالإشارة إلى تمام الساعة الثالثة صباحاً.. كانت تلك الساعة هدية قدمها لها زوجها في عيد زواجهما الماضي. شعرت برغبة شديدة في رميها بعيداً. شعرت بكراهية شديدة تجاه الجميع.. تحرق قلبها وروحها وجف حلقها. ثمة قارورة مليئة بالماء البارد على الطاولة الجانبية، لكن جمال هو الذي اشترى أيضاً تلك القارورة الجميلة. كل شيء في تلك الغرفة يذكرها بزوجها الذي يبيت الآن مع امرأة أخرى، أدخلها إلى فراشهما... كلما فكرت آمنة في الأمر، تصاعدت نيران الغضب والألم في صدرها.. لم تكن لتصدق ذلك لو كان الأمر مجرد شائعة وجدت طريقها إلى مسمعها.. لكن الأمر شيء متحقق منه، وقد رآها علي بأم عينيه.. سئمت آمنة من الحياة وفقدت طعمها.. أحست بأنها لا تمت لجمال بصلة.. وحدثتها نفسها أن زوجها قد مات ولم يعد لها زوج.

كانت تقضي أوقاتها مضطربة النفس ومشغولة البال منذ خروج جمال من بيتها غاضباً جراء رفضها منحه المبلغ الذي طلبه. شعرت باستياء شديد لاحقاً، رغم أنها كانت تفوهت له كلمات حادة في

لحظة الغضب. حاولت الاتصال به عدة مرات، لكنه كان يغلق الهاتف حين يعرف أنها هي على الخط. تعصبت هي الأخرى ولم تحاول الاتصال به لعدة أيام.

-"لا جدوى من العناد بهذا الشكل، لن تفقدي من كرامتك شيئا إن ذهبت إلى بيت زوجك واطمأننت عليه، وتذكري أن قلب الرجل سريع التقلب.."

نبهتها أختها صفية عدة مرات، غير أنها كانت تغضب على كل ناصح لها، حتى اقترح عليها والدها:

-" آمنة، ما رأيك لو مررت عليه؟"

لم تسمح له بزيارته، وأصرت أنه لا داعي إلى أن يذهب إليه أحد من بيتها، يترجى منه العودة إليها. دعه يأتي من تلقاء نفسه عندما يريد ذلك. ردت آمنة بشكل حازم على اقتراح أبيها، رغم أن قلبها كان ينصهر قلقاً عليه، داهمتها فكرة أنه قد يكون هناك شيء ألم به.. إنه الآن في صحبة حمزة، فلا يلبث أن يعود إلى جموحه الأول.. وفي تلك الأثناء، سمعت أيضاً أنه قد باع مزرعة أخرى..

مر شهر كامل والحال لا يزال كما كان.. فقدت آمنة السيطرة على نفسها وتجافى النوم أجفانها.. وشعرت أنها ملقاة في هوة ضيقة مظلمة نسيها الزمن في مكان سحيق..

أخيرا قررت الاستسلام وهي تسائل نفسها: "ألست امرأة في النهاية؟

حاولت الاتصال بجمال عدة مرات، فرد عليها كل مرة أحد الخدم وكرر جواباً واحداً أن سيده غير موجود حالياً، كما لو أن شخصًا ما يملي عليه.

ولم يبق أمامها سوى الاتصال بحماتها، إلا أنها رفضت الرد عليها كل مرة حين عرفت أن آمنة هي المتصلة. تمكنت من محادثتها أخيراً مقلدة صوتاً غير صوتها وادعت لنفسها اسماً غير اسمها، ولكن عندما أدركت أم جمال أنها آمنة، استشاطت غضباً وازدجرت قائلة:

-"ما الذي ذكرك بحماتك الآن؟ كيف تسألينني عن جمال وأنت التي انتزعته مني وتسلطت عليه؟"

-"لقد مر شهر منذ مغادرته من هنا. لا أريد أي شيء سوى الاطمئنان على صحته".

-"الله.. الله كلام معسول يسيل عشقاً وغزلاً.. إذا كنت تعرفين عمل السحر لاجتذابه واختطافه من أمه، فيجب أن تعرفي أيضًا طرق الاحتفاظ به عندك. هل توقعت أنك تستطيع استعباد الرجال بسهولة؟ أظن أن طردته من بيتك حين مللت منه، والآن تبحثين عنه عند أمه مرة أخرى".

أنهت آمنة المكالمة دون أن ترد على حماتها بشيء مما طعنتها به. وقررت في نفسها أن ترحل إلى واياناد مباشرة، وأبلغت والدها بقرارها، فعرض نفسه مرافقاً لها، إلا أنها لم تقبل ذلك.

تحركت من البيت في الساعة الخامسة صباحًا، حتى بدون إخبار ابنتيها، لأنهما إن عرفتا، ستصران على الذهاب معها. اصطحبها فقط خادمها علي، وكان الوقت قد تجاوز الساعة السابعة حينما وصلا إلى بيت جمال.

-"البوابة مغلقة".

قال السائق. فقال علي وهو يهمّ بالنزول من السيارة:

-"لا يهمكم، سأدخل أولاً وأرجع بالمفتاح".

فقالت آمنة:

-"أدخل معك أنا أيضاً، أود أن أرى كيف سيستقبلني إذا رآني بشكل مباغت".

-"لكن كيف تدخلين إلى البيت؟ هل ستقفزين فوق البوابة؟"

كانت آمنة متحمسة جداً فقالت:

-"أليس هنالك جزء منهار في مكان ما بالسور حول البيت؟"

تسلقت بصعوبة الأحجار المتكومة عند الجزء المتحطم من السور ودخلت إلى الفناء. بدت الحديقة مهملة دون رعاية، احتلتها أعشاب وحشية، وامتلأت الممرات بأوراق يابسة متساقطة من الأشجار المجاورة.. انتشرت القمامات في كل شبر من الحوش.. يسود الصوت والسكون المكان كله، ما يعني أنه لم يستيقظ بعد أحد في البيت..

-"ألا يقوم أحد بتنظيف البيت يا علي؟ لن يقول أحد أن هذا بيت يسكنه البشر"

منعت آمنة علي الذي كان يهم أن يدق الجرس، ومشت تطوف حول البيت.. سمعت صوت المروحة من غرفة النوم، وهي مروحة قديمة تحدث صوتاً عالياً حين تدور.. كان نوافذ الغرفة مغلقة. حاولت تحريكها وفتحها فوجدت أنها غير مقفلة من الداخل. فتحت النافذة وألقت نظرة إلى الداخل، فإذا بها بمشهد صادم اهتزت له روحها.. يغط زوجها في نوم عميق على السرير، وترقد بجانبه امرأة أخرى! أغلقت النافذة بشدة وركضت إلى الحوش الأمامي. استيقظا داخل الغرفة، على سماع الأصوات من الخارج.. حين وصلت آمنة أمام البيت، كان جمال يخرج من الباب الأمامي، تتبعها تلك المرأة، تلملم شعرها الثائر، وثوبها ملفوف حول نفسها على عجل بشكل عشوائي، دونما عناية. لم تطق آمنة النظر إلى ذلك المشهد مرة أخرى. هرعت نحو السيارة، تبعها علي بخطى مهرولة.

كانت منهوكة القوى، لم تعد قادرة على الخروج بالقفز فوق السور كما دخلت.. انهارت جالسة على الأرض أمام البوابة المغلقة.

-"علي، خذ هذا المفتاح. اطلب من السائق إدخال السيارة إلى الفناء."

قال جمال الذي جاء يلحقهم، وهو يمد المفتاح لعلي.

حاولت آمنة النهوض، لكن الإعياء الشديد أقعدها في مكانها..

وكأن الدماء قد تجمدت في عروقها وتهب في رأسها العواصف العاتية.. رغم ذلك، وجدت نفسها تنتفض واقفة حين لاحظت جمال يتجه نحوها، ليساعدها. هرعت هاربة نحو السيارة، وهي تبكي.. ألقت بنفسها داخل السيارة، بينما وقف جمال مشدوهاً مذهولاً.. ولما هم جمال أن يقول لعلي شيئاً يبرر موقفه، صرخت آمنة تقاطعه، ملتفتة إلى علي:

- "علي، تأتي معنا أم لا؟ يا سائق، انطلق بنا!."

-" آمنة.. أرجو أن تدخلي بيتنا ولو لدقائق.. أرجو أن أقول لك شيئا".

نظرت آمنة إلى جمال نظرة تتلظى فيها نيران الغضب والكراهية، ودت أن تصرخ في وجهه بكل الانفعالات التي تختلج في صدرها، ولكن لسانها بات شبه مشلول.. شعرت كما لو كان حلقها منسداً بالرصاص المنصهر، إلا أن عينيها فاضتا بالدموع أنهاراً.. صاحت في السائق:

-"اذهب بنا بسرعة".

التفتت آمنة إلى الوراء رغم إرادتها، تأملت صورة جمال.. جسم نحيف، جلد على عظام، وجه شاحب، يرتدي فقط إزاراً، ظلت تتأمل صورته تلك إلى أن توارى عن الأنظار.

أطلت شمس الصباح الساطعة، متسللة من خلال أوراق الأشجار المبللة بضباب الليل. تتعالى أصوات العمال، القادمين إلى

مزارع البن في جماعات، رجالاً ونساء، حاملين علب غدائهم في أيديهم، ووجوههم مشرقة ترتسم عليها ملامح النشاط والحيوية.

خضرة تسود المكان.. تتساقط قطرات الندى من أطراف أوراق الأشجار. تتخلل أشعة الشمس غصون الأشجار المتمايلة فكأنها تلعب لعبة الغميضة.. تتلون أشعتها بلون الذهب حين تنعكس على براعم البن المتأرجحة التي تشبه نسيجاً بديعاً مفروشاً على المزارع الممتدة على مد البصر. ترقص أغصان الأشجار الظليلة الشامخة باسطة أطرافها على ألحان نسيم الصباح. تتدلى سنابل الفوفل اليانعة الذهبية اللون فوق قمم أشجارها المصطفة بانتظام.. وإذا رأت آمنة ثم رأت نعيماً ورخاء وملكاً كبيراً.. إلا أن كل شيء أخذ يتلاشى من عينيها شيئاً فشيئاً.. تساءلت متوجعة هل سترى هذه المناظر الآسرة مرة أخرى؟ بدا لها أن كل شيء يبتعد عنها.

خيل إليها أنها الآن على أرض قاحلة جرداء، متشققة بعمق، تتحرق شوقاً لقطرات المطر التي تنتظر لها منذ سنين عديدة.. فجأة، غارت الأرض من تحت قدميها وخسفت بها ولم تزل تجذبها أعمق وأعمق إلى قعرها، ولا يعلم قعرها إلا الذي خلقها.. ظلام دامس يغلفها.. لا أشجار ولا خضرة.. وإنما يسود اللون الأسود الكون من حولها.. اختنقت أنفاسها في صدرها وجف حلقها.. أحست وكأنها تشتعل من الداخل.. تمنت لو استطاعت أن تصرخ بصوت عالٍ.. لكن الجمرة الحمراء المتوهجة انحشرت في حلقها.. صممت أن تستجمع جميع قواها لمحاولة التخلص من تلك النيران

المستعراة التي تحف بها من داخلها وخارجها.. علي إنقاذ نفسي منها.. انتفضت آمنة بكل قوة تملكها..

أين أنا الآن؟ تساءلت آمنة. فوقها السماء الزرقاء، تتخلل سطحها الصافي قطع السحاب السوداء.. بدأت الغيوم السوداء في الانتشار حتى امتلأت بها أرجاء السماء.. شاعت العتمة الكالحة التي تكتّلتْ من كل صوب حتى صارت كتلة واحدة انحشر بها جوفها.. أعمت عيونها بل أعمى قلبها.. كانت لها أجنحة قوية حين انطلقت إلى قلب السماء.. وهي الآن مكسورة.. لا، بل كسرها أحد ما.. حاولت أن تواصل الطيران بأجنحتها المكسورة.. فجأة انقشعت الغيوم.. واضمحل الظلام. الآن استعادت قدرتها على الطيران.. لكن إلى أين تطير؟ لا ترى حولها سوى السماء الزرقاء التي لا حدود لها.. قررت أخيراً أن تطير إلى أسفل، وتهبط إلى الأرض.. بدأت تحرك أجنحتها المكسورة، إلا أنها لم تستطع أن تتقدم ولا شبراً واحداً.. ظلت معلقة في الفضاء، لا يدعمها شيء.. أحبت أن تبقى هكذا أبد الدهر.. وإذا بشيء يقبل نحوها.. نسر عملاق يسرع إليها لينقض عليها، تشع عيونه طمعاً وجشعاً، يحدد صوبها منقاره الطويل المعقوف.. نظرت إلى الأسفل، شعرت بدوار.. الأرض بعيدة عنها بعداً عميقاً سحيقاً.. أنهكها الإعياء.. أخذ النسر ينقر بقوة على رأسها..

صرخت آمنة بصوت عالٍ:

-"يا الله.. يا لطيف"

أفاقت وفتحت عينيها.. كانت السيارة قد توقفت.

-"لماذا وقفت السيارة هنا؟ هيا، انطلق بي بسرعة."

-"لقد وصلنا إلى بيتنا."

-"أي بيت؟ ليس لي بيت.. وليس لي حبيب ولا قريب... علينا أن نهرب من الآن بأسرع ما نستطيع.. تحرك بسرعة..."

-"وصلت ماما.. وصلت ماما.. أين بابا؟"

تناهت إلى مسامعها ذلك السؤال الثقيل الذي طرحته عليها بنتاها.

- أين أبوهما؟ أين هو؟ لم تجد آمنة ما تجيبهما به...

أخرج العصفور رأسه من فتحة الساعة مرة أخرى... كم مرة زقزق؟ خمسة أو ستة؟ لم يعد يهمها التوقيت والزمن.. وقد توقفت عقارب ساعة حياتها..

13

لقد سمع جمال صوت ساعة الحائط تسقط على الأرض وتتكسر، وهو يعلم أنه أهدى زوجته إياها في يوم عيد زواجهم في السنة الماضية! تحطمت إلى أشلاء صغيرة. خيل إليه أن تلك القطع الزجاجية تحدق فيه، وتتسرب أشعتها المبهرة إلى عينيه.. قام متضايقاً وبدأ يمشي وبداخله بركان يحتدم، شعر بكراهية شديدة تجاه كل من في الكون.

-"أليس هناك أحد؟ أحضر لي كوبًا من الماء"

صاح وهو ينظر إلى الداخل.

-"الماء."

دهش جمال لسماع صوت المرأة التي قدمت له الماء.

-"ألم تذهبي بعد؟ من طلب منك أن تحضري لي الماء؟"

-"ذهب الولد إلى الخارج لغرض ما".

-" لا تريني وجهك بعد الآن أيتها الماكرة"

-"هل أنت صاحي؟! جئت هنا فقط لأن أمك لم تزل بي تلحني على الحضور.. فالآن، تعتبرني مصدر إزعاج؟ "

-"ألم آمرك بالخروج؟ ألا يوجد أحد هنا ليطرد هذه الشريرة من بيتي".

-"لا تلعب علي يا رجل! سوف أعلمك ما لم تعلم حتى الآن.. لعلمك، أنا اسمي رملة، أنتم لا تعرفون في الحقيقة من هي رملة".

-"اللعنة عليك... يا عبد القادر، أين اختفيت أنت؟! أرسلوا أحداً إلى أمي...

"مشى جمال إلى الداخل. استبدت على قلبه رغبة عارمة في رؤية آمنة وعياله حالاً. لديه أشياء كثيرة كان يود أن يقول لآمنة حين جاءت ذلك اليوم المشؤوم.. ولكنها خرجت مستعجلة، دون أن تنتظر لسماع شيء منه، ومن غير أن تنبس بكلمة.. لا بد من طلب عفوها ومسامحتها.. قام جمال فوراً بحجز مكالمة إلى خارج المقاطعة، وانتظر بجانب الهاتف، شوقاً للاتصال بآمنة، إلا أنه لم يحصل على الإشارة من البدالة الشبكية للاتصال، حتى بعد انتظار فترة طويلة، أفرغ غضبه بشتم كل شخص في مركز بدالة الهاتف، ثم قام بطلب مكالمة عاجلة.

كانت أم جمال هي من تستأهل أن يلقى عليها كل اللوم، لأنها لم تمنع ابنه أبداً عن انحرافاته رغم علمها بكل حركاته الطائشة وألاعيبه.. فهي أيضاً مشاركة في خطاياه.. ماذا يكون دافعها لذلك؟ لا شيء سوى عطشها للانتقام من آمنة! أعمتها العداوة والبغضاء إلى تعيين امرأة فاجرة تدعى رملة كخادمة منزلية في بيت جمال الذي يسكن فيها وحيداً..

وقعت تلك المرأة في عينيه لأول مرة حينما رجع إلى البيت في ساعة متأخرة من الليل، وهو مخمور، فوجدها على قدر لا بئس به من الجمال، وفتنته مواهبها وحركاتها المتدللة وأساليبها الغنجة... واندفع نحوها رغم إرادته في لحظة غاب فيها وعيه.. لم يرد أبداً أن يعود إلى فعله مرة أخرى، بل كان يشعر بالتقزز حينما رآها في الصباح، خاصة وهي تحاول أن تلعب دور ربة البيت.. شعر بالكراهية الشديدة حين تأتي في الصباح توقظه وتقدم له الشاي. فيلجأ إلى الخمر كي ينسى كل شيء، فلا يعي ما يفعله.. لكنه لم يتخيل أبداً أن آمنة ستأتي دون إشعار مسبق على حين غفلة.. يا ليته كان يعلم ذلك مسبقًا!

رن الهاتف.. هرول جمال إليه.. عندما سمع صوت آمنة، سرت في أوصاله رعدة دق لها قلبه دقات رهيبة. تلعثم قائلاً:

-"معك..أنا... يا آمنة."

-"من أنت؟ تعاكس النساء عبر الهاتف!؟

-"ألا تعرفينني آمنة؟ معك أنا، زوجك جمال، أبو منيرة

-"مات والد عيالي في قلبي! وسيوافيك ببقية الحديث من سيزورك اليوم."

انتابت جمال صدمة حين سمعت صوت إغلاق الهاتف من الطرف الآخر.

انهارت في داخله أشياء كثيرة عزيزة على قلبه، مجتثة عن

جذورها.. ظل صوتها المتحشرج يتردد في مسمعه. تساءل متضايقاً: من سيكون القادم الذي قالت آمنة عن قدومه؟ وما الغرض؟ دعه يأتي، كائن من كان.. لا أخاف أحداً، وما تهيبت حتى والدي الذي كان يهابه الجميع لنظراته الثاقبة وقامته الشامخة وجسمه الضخم الممتلئ، وجهه المستدير أسمر اللون وصارم الملامح، أحمر العينين، حليق الرأس المتوّج بعمامة بيضاء ناعمة.. يرتجف خائفاً حتى أشجع الناس في القرية، لمجرد نظرة حادة يلقيها في عيونه. لكن تلك العيون الحمراء كانت ستذوب حناناً عند رؤية ابنه جمال، وترتسم على وجهه ابتسامة حنونة. نعم، لم يخف جمال أحداً، ولم يرض لنفسه بالخوف أمام أحد.

عادت به الذكريات إلى أيام طفولته التي عاشها مع والده. كان والده يبيت في معظم الأيام في المبنى الخارجي الذي منع منعاً باتاً الدخول إليه للآخرين. مع ذلك، كان جمال يتجرأ أن يختلس الخطى ويدخل إليه، حيث رأى العديد من النساء التي لم يرهنّ من قبل، يغادرن غرفة الأب في الصباح الباكر، مما أثار تساؤلات في ذلك القلب الرقيق..

-"ماما، رأيت امرأة تخرج من غرفة بابا في الصباح الباكر. من هي ماما؟"

كثيراً ما استفسر جمال أمه، غير أنها لم تعر أبداً أذناً صاغية لتساؤلاته. وحين يزعجها بالسؤال المتكرر، تجحظ عينيها وتؤنبه:

-"وليدي جمال، لا تذهب هناك حتى لا ترى أشياء لا تعنيك، ولا ينبغي أن يعرفها الأطفال".

وقد وجه السؤال في بعض الأحيان مباشرة إلى والده:

-"بابا، لماذا تنام في المبنى الخارجي؟ أليس في بيتنا غرف كثيرة فاضية؟"

انفجر والده ضاحكاً ضحكة عالية، وانضم إليه أيضاً أصدقاؤه وأعوانه الذين لا يتغيبون من حوله أبداً، وتاهوا في الضحك وكأنه أطلق عليهم نكتة مضحكة جداً. ثم قال أحدهم:

-"لا تنس أن ابنك يكبر. أنصحك بوضع شيء من الستار ومسافة الأمان بينه وبين شؤونك".

رد عليه والد جمال:

-"لا حاجة إلى حجاب بين الوالد وولده.. دع ولد الحاج محي الدين كيريادان يكبر على دراية كاملة بمآثر والده ومفاخره..".

على الرغم من أن والد جمال كان أسداً شجاعاً يهابه جميع من حوله، إلا أنه كان دائمًا خروفاً هادئاً مطيعاً أمام أمه، ينصاع لجميع أوامرها ويلبي كل مطالبها على الفور.

-"اسمع، سجل باسمي مبانيك التجارية التي في السوق وانقل ملكيتها إلي.

إذا قالت أمه أمراً، فسيتم تنفيذه في اليوم التالي، تماماً كما

طلبت. وكانت مطالبها بلا عدد ولا حدود.

ذات مرة، قالت أمه لأبيه:

-"هل رأيت العقد الذهبي الذي ترتديه زوجة الحاج عبد القادر؟ لا يقل وزنها عن 400 غرام".

-"أليس من المحرمات أن أنظر إلى أعناق النساء الأخريات، يا عائشة؟"

-" لا تستفزني أيها الرجل الصالح التقي الذي لا تقع عينه ولا يده على الحرام.."

-"خلاص، ما الذي تريدينه يا عائشة؟ عقد؟ قلادة مثل التي عند زوجة عبد القادر، كم قلت وزنها؟

-"أربع مائة.'

-"بل انت اشتري عقداً بخمسمائة غرام.. لا ينبغي أن تنقص في شيء زوجة الحاج محي الدين كيرياداان، ولا يفوقها أحد في أي شيء".

في صباح اليوم التالي، كان الصائغ ماثلاً أمام أمه عند الباب.

لا ترى والدتها إلا مغطاة بالذهب والحرير، تفوح منها رائحة العطور الغالية.. تتبعها دوماً خادمتان، تحملان علبة التنبول والمبصقة.

كثيرا ما قالت أم جمال لآمنة حين تنكد على زوجها حول بعض انحرافاته:

-"بالنسبة للرجال الأثرياء، فعادي جداً أن يستدرجوا تحت المغريات والملذات. ولكن علينا نحن النساء، أن نتغاضى عن بعض أفعالهم ونرقص على أنغامهم من أجل ضمان مصالحنا.. وبهذه الطريقة يمكنك أن تجعلي زوجك خاتماً في إصبعك. هكذا تعمل المرأة الذكية الشاطرة، يكفينا مثالاً أمر أبي جمال نفسه، ما أكثر ما كانت مغامراته وألاعيبه.. ما الذي كان سيحصل لو كنت أسبر أغوار كل شيء يقوم به زوجي وأقابله منقبلة السحنة ومتهجمة الوجه، مثلما تفعلين مع زوجك؟ لم يكن يحدث سوى أن أضيع كل هذه الثروات فتكون كلها في متناول النصابين.. إن سلاح النساء مخها في رأسها.. أليس كذلك؟"

وجهت أم جمال سؤالها الأخير إلى الخادمة التي كانت تقف بجانبها. فأومأت برأسها موافقة على رأي سيدتها.

كان جمال أول طالب من القرية ليذهب خارج واياناد للدراسة العليا، التحق بإحدى الكليات بمدينة "مدراس" التي كانت في تلك الأيام في أوج عزها. لما اجتاز جمال الامتحان العام بالصف العاشر الثانوي، كان والده أكثر حماساً ورغبة من جمال نفسه في التحاقه بالجامعة، حيث إن الأمر كان من شأنه تعزيز سمعته ورفع شأنه. نزل جمال من السيارة أمام مبنى سكن الطلاب وكأنه أمير يتبعه أعوانه حاملين أغراضه، يرتدي قميصًا كامل الأكمام وإزاراً أبيض وقبعة ذات فرو أحمر.. أخذ الزملاء في الضحك حين رأوا المشهد؛ عمامة الوالد وقبعة الولد وأزياءهما التقليدية.

-"لماذا يثرثر ويضحك هؤلاء التافهون ويتابعوننا؟"

سأل أبو جمال خادمه الأول الذي كان يرافقهما.

-"يبدو أنهم مندهشون من مظاهرنا الفاخرة.. ربما لم يروا الأثرياء مثلنا من قبل"

لاحظ جمال مدير السكن تشاكو، وهو يحاول جاهداً كبح ضحكة تأبى إلا أن تفلت منه، مما سمع ما قال الخادم الأول.

لم يرض أبو جمال على الإطلاق بغرفة ابنه في السكن والتسهيلات المتوفرة فيها. التفت إلى المدير سائلاً:

-لماذا أرى في غرفته أكثر من سرير.. أربعة أو خمسة أسرة.. هل هذا يعني أنه سوف ينام مع الطلاب الآخرين من أراذل الناس والكفار؟ ألا يمكن توفير غرفة خاصة له".

وأغضبه جواب المدير تشاكو حيث قال إنه يمنح لطلاب السنة الأولى فقط القاعات المشتركة.. ولم يلبث أن استأجر له منزلًا صغيرًا بالقرب من حرم الكلية، واستدعى محمد كوتي، إبن الخادم الأول وعينه طباخاً لجمال. ولم يعد الوالد وحاشيته إلى البلاد إلا بعد أن تم ترتيب كل شيء بصورة ترضيه تماماً.

وما ان غادر والده حتى غير جمال مظهره كلياً حيث استبدل أزياءه التقليدية بملابس جديدة عصرية.. ألقى جانباً بإزاره وارتدى السراويل، وأرسل شعره طويلاً مواكباً الموضة السائدة بين الشباب.. تزايد عدد أصدقائه يوماً بعد يوم.. اجتمعوا جميعاً في بيته

مع حلول المساء.. قدم محمد كوتي للجميع الشاي والحلويات.

كان تومي، القادم من كيرالا أيضاً مثل جمال، أول من تصادق معه، وجعله قائد الشلة، قائلاً:

-"يا ولد، أنت قائدنا، ينبغي أن يكون القائد بهيئة مهيبة.. يكون قائد الشلة بصورته النمطية رجلاً مدخناً ينفث الدخان من فمه وأنفه ويتابع حلقاته حتى تتبدد في الهواء..

-"لا، لا يليق بي التدخين والأشياء مثله"

-"من قال لك إن التدخين عادة سيئة؟ فهل تعتقد أن عميد كليتنا رجل سيء؟"

-"هو مدخن؟"

-"بل هو سيد المدخنين! أستاذ مادة التجارة أيضاً مدخن مدمن..

-"هل رأيته يدخن؟"

-"كيف لا..!؟ أنت يا ولد ريفي أبله! جمال، خليك عصرياً إذا أردت أن تكون زعيمنا. هناك العديد من الأشياء التي ستراها وتتعلمها لاحقاً!"

علمه تومي كافة الغوايات، واحدة تلو أخرى، ولم يخيب جمال أمله في سرعة تعلم شيء مما علمه، بل فاقه في الإدمان على كثير منها.. أهدر المال ببذخ وأحسن أداء دور كقائد الشلة. رغم أن

حياته في الكلية كانت حافلة بكل أنواع المرح والملذات، إلا أنه تمكن من إحراز نتائج جيدة في الامتحان ما قبل الجامعة.. غدا فخر والده بنتائجه بلا حدود. لكن المنية المباغتة ألمت به على حين غرة، وتوفي حينما كان جمال في السنة الأولى الجامعية. وبعد تلك الفاجعة، لم تقصر والدته في حق ابنها بشيء، حرصت أن توفر له كل طلباته، حتى بدون استفسار عن الغرض والحاجة.

أضحى عمه بمثابة أبيه بعد وفاته، واعتنى بشؤونه كلها حق الاعتناء. ولكنه كان، على خلاف والده، رجلاً واقعياً متعلماً من مدرسة الحياة. عندما طلب منه جمال أموالاً كثيرة بين فينة وأخرى، كتب إليه كتاباً مفاده:

" عليك بإنهاء دراستك فوراً، وقد بلغتني حكاياتك ومحاسن أفعالك. إذا استمرت الأمور على هذا المنوال، فلن تكون هنالك نهاية لدراستك. وهنا، ليس عندي أحد يمكن تحميله بمسؤولية إدارة أموالنا وعناية أمورنا، فعليك بالرجوع فوراً إلى البيت"

استلم جمال كتاب عمه في الوقت الذي لم تكن فيه لديه أدنى رغبة في العودة إلى البلاد، إلا أنه لم يملك الجرأة على اعتراض عمه. لجأ إلى أمه طالباً منها التوسط له إلى عمه، فقالت لعمه:

-"كان أكثر ما تمناه أبو جمال أن يكمل دراسته ويصبح رجلًا كبيراً."

لم يقل عمه شيئاً رداً على ما قالته.

ذات مساء، بينما كان جمال منغمساً في شرب الخمر مع جلسائه، أقبل عمه إلى البيت الذي يسكن فيه من أجل الدراسة، دونما إشعار مسبق، بينما كان جمال ينزلق شيئاً فشيئاً إلى حالة الثمل، وكانت شلته قد قامت ببعض الترتيبات الأخرى أيضاً لاحتفالات الليل، وكانوا بانتظار المفاجأة، فصدحت أصوات الفرح عند سماع رنين الجرس وقال جمال لأحدهم:

-" روح وافتح الباب يا فاديفيلو.. لا بد أنه مونيسامي، الذي تولى إحضار مفاجأة الليلة."

-"ما الأمر؟"

-" مغامرة نسائية لا غير! قد تعهد مونيسامي أن يأتي الليلة بفتاة فاتنة للغاية."

ركض فاديفيلو نحو الباب ولكنه سرعان ما عاد مستاء مقلوب السحنة من خيبة الأمل وقال لجمال:

-"للأسف، هذا ليس من كنا ننتظره.. إنه رجل عجوز يسأل عنك".

توجه جمال إلى الباب متذمراً. فإذا به عمه واقفاً بالباب! وقف هنيهة متجمداً مكانه حائراً لا يدري ما يمكنه فعله.. ثم استدرك رشده فحاول منع عمه من الدخول متحججاً:

-"الغرفة غير مرتبة، كل شيء في حالة من الفوضى. دعنا نذهب إلى الفندق القريب"

-"دعني أرى بيتك أولاً"

قال عمه، وهو يلقي إلى وجهه نظرة ذات مغزى.

ولم تلبث أن تهرب الشلة كلهم من الباب الخلفي، مستشعرين بالخطر المحتمل. دخل العم وقام بجولة تفقدية في البيت كله، ثم قال:

- "خلاص، انتهت هنا دراستك.. يمكنك العودة إلى البلاد الليلة".

-"لكن امتحاناتي على الأبواب... لو غادرت الآن، فستضيع على الفاضي كل السنوات الثلاث التي قضيتها هنا!"

-"اسكت. إذا واصلت دراساتك هذه، فلن تعود إلى بيتك أبداً".

استشاط عمه غضباً. عندها أقبل مونيسامي ومعه الفتاة. حاول جمال منعه من الدخول بكل شكل من أشكال الإيماءات، إلا أن مونيسامي لم يفطن لقصده، بل واصل حديثه واصفاً كيف نجح في تنفيذ خطته لإحضار هذه المفاجأة.. استعرت نيران الغضب في عيني عمه.. أخيراً، رجّع جمال منويسامي كيفما استطاع ثم ارتمى على قدمي عمه، ملتمساً عفوه وسماحه، متسولاً أن يمهله إلى أن تنتهي الامتحانات، ومتعهداً أن يعود إلى البيت بعدها مباشرة.

لم يوافق عمه على طلبه في البداية، فلم يزل به حتى رق له قلبه، بشرط أن ينتقل جمال إلى سكن الطلاب العام، إلى أن يكمل الدراسة.

بعد الامتحانات، رجع جمال مباشرة إلى بيته، حيث شهد ترتيبات إقامة حفل كبير تجري على قدم وساق.. أعمال الطلاء والتزيين.. العمال متوزعون في كل جهات، يجرون مستعجلين'

"ما الذي يجري هنا يا ماما؟" سأل والدته.

-"والله إن هذا أمر عجيب مضحك.. ألم يكتب لك عمك؟ هذه تجهيزات حفل زفافك، إنه سينعقد في يوم أربعة من الشهر المقبل"

-"آها..! وأنا لم أعلم بشيء ولم أر مخطوبتي..!؟"

-"لا يلزم أن تراها، ولقد رأيناها. الفتاة على قدر من الجمال وكريمة ثري كبير، هو صديق عمك."

بينما هما كذلك، إذ حضر عمه، وقال له بلهجة حادة:

- ألم تتم دراستك كلها على ما يرام؟

وأضاف دون أن ينتظر لإجابته:

- "ألم تخبرك أمك بالأمر؟ إنها فتاة جميلة مثقفة وعصرية أيضاً.. تدرس حالياً في الكلية، هي مناسبة لك بكل الاعتبارات. أبوها الحاج حسن صديق مقرب لي. فإياك أن تجعلني في موقف حرج أمامه"

تذكر جمال أن عمه كان عرفه بصديقه الحاج حسن، خلال إجازته الماضية، حيث أن الحاج حسن كان موجوداً في واياناد في

جولة سياحية، على حد ما قال له عمه.

في يوم الزفاف، رأى جمال آمنة لأول مرة. وجدها أجمل مما توقع.

لما عادت الأفكار إلى آمنة، فقد سكون قلبه مرة أخرى..

من هذه التي تقف أمامه؟ آمنة! نعم، إنها هي! وقد ارتسمت على وجهها ملامح الحزن والاستياء.

-"كيف أمكنك أن تفعل بي ذلك!؟"

-آمنة.. أنا.. ".

-"أخرس أيها الخائن! لا أريد أن أسمع منك ولا كلمة.. نسيت حتى أنك أبو بنتين، فما أخدعك!."

احمر وجه آمنة وامتقع لونه، اضطرم النار في عينيها. ارتجف جسدها كله.

-" آمنة، أنا فعلاً آسف. اهدئي، أرجوك."

-"لن أفعل. لن أهدأ وأستسلم نفسي للإهانة مرة أخرى"

جاءت البنتان تتدخلان:

-" اصمتي ماما.. لا تروح بابا، نريدكما معاً..."

-"عزيزتي، حاولي إفهام أمك..."

جاءت أم جمال وسألت ابنه:

-"ما لك، أراك مضطربا؟ ما يقلقك؟".

-"ألم تعلمي أن آمنة تركتني ورحلت عني ولن تعود إلى بيتنا."

-"ولتبق هي في بيتها.. والنساء غيرها كثير، أنت ابن الحاج محي الدين كيريادان، إذا خطبت تنكح، لا شك في ذلك!"

-"اغربي عن وجهي، أقول لك.. لا أرغب في لقائك هنا مرة أخرى."

مشى جمال يجر خطواته الثقيلة إلى غرفته وانهار على السرير.

استيقظ على صوت أمه وهي تهزه:

-"جمال، قوم.. وصل أهل آمنة.. والدها وصهرها وأشخاص غيرهما..

وقال لها وهو يفرك عينيه معاً بكلتا يديه:

-"هل وصلوا!؟

شعر أن رأسه يدور، بدا وجهه منتفخاً.. وقد احمرت عيناه.. وكان واضحاً جداً من ملامحه أنه مخمور.. ومن يقلق علي إن شربت أم لم أشرب؟ سأشرب قدر ما أشاء.. وأفعل كل ما أريد.. من ذا الذي يهمه أمري وشأني!؟ – خاطب جمال نفسه.

-"دقيقة، وأنا عندهم"

دخل إلى الحمام، غسل وجهه وغير ملابسه المتسخة، ثم تجهز جيداً وتعطر طيباً. نظر إلى المرآة ومشط شعره مرة أخرى. قال

في نفسه: جمال لا يزال وسيماً، عريس لا يشيخ.. عريس آمنة! شعر أن خطواته قد فقدت اتزانها.. أم كان قلبه هو ما فقد اتزانه؟

لا يزال القادمون واقفين في الخارج بالقرب من السيارة. قال لهم جمال مرحباً مستقبلاً:

"مرحباً بكم! تفضلوا.. استريحوا في الداخل؟"

وقال عبد الكريم، زوج أخت آمنة:

-"لم نأت هنا للاستراحة.. يبدو أننا قدمنا في وقت غير مناسب!؟".

كان عبد الكريم رجلاً خشن الطبع، حاد المزاج.. يتحين منذ البداية لكل فرصة يستطيع فيه التقليل من شأن جمال، غير أن جمال لم يكن يدعه بعد ذلك يمر مر الكرام، بل كان يرد عليه بما يستحق. ولكنه الآن وجد نفسه يجلس صامتاً مغلول اللسان، مطرق الرأس..

-"ما عندنا الوقت للاستراحة ولا تسمحنا لذلك فعلتك التي فعلت.. إنما قدمنا الآن، لنطلب منك أن تطلق آمنة"

تكلم والد آمنة في نفس واحد، مكسراً خمود الصمت.

صعق جمال ما سمع من الوالد.. جف حلقه وشل لسانه وتصبب عرقاً..

نظر إلى الداخل وصرخ:

-"عبد القادر، أحضر الشاي"

قال كريم لجرح كرامته مرة أخرى:

-"نحن لسنا هنا لنتلقى ضيافتك. على أي حال، لقد كان أمرًا مخزيًا ما فعلته.. أخبرتنا آمنة بأنها علمت بأمر زواجك الثاني".

-"الزواج؟ لم أتزوج سوى آمنة."

-"إذن، أليس من المحرمات أن تضاجع امرأة غير زوجتك؟"

وضع جمال نفسه جالساً على الكرسي الأقرب إليه. لم يستطع رفع رأسه، سرت في جسمه رجفة من أعلى الرأس إلى أخمص القدمين. لم يجد ما يرد به عليه.. ولم يهتد إلى مبرر مناسب يشفع له في ذلك الموقف..

تدخل والد آمنة، مانعاً عبد الكريم من المزيد من الطعن وقال:

-"لا تنبشوا القضايا المدفونة التي لم تعد تعنينا.. إنما أطلب منك يا جمال أن تسرح ابنتي، لأنها لم تدخل شيئاً إلى فمها منذ يومين، وظلت تبكي طوال الوقت."

أجاب جمال:

- "دعني أزورها.. إني واثق من أن آمنة لن ترد طلبي".

-"تلك هي آمنة القديمة.. الآن هي امرأة جديدة لن تخضع لك وقد قالت قاطعة إنها لا تريدك".

-" لا أصدق أنها قالت هكذا."

-"بل أنت نفسك من جعلها تقول ذلك."

-"هل ستنكر عليها ما رأته بأم عينيها؟ لقد سئمت منك هي ونحن أيضًا".

-"ماذا لو لم أكن قد سئمت منها؟"

-"سنريك كيف نجعلك تسأم منها."

-"لا أخاف التهديد..

-"من نحن لنهددك ونخوفك!؟ لسنا رجال الشرطة.. إنما أرجوك أن تطلق سراحها دون افتعال مزيد من المشاكل"

قال والدها بلهجة متواضعة. ظل جمال صامتاً جالساً جلسته تلك، دونما حركة.

-"يبدو أنك مصمم على مواجهتنا وافتعال المشاكل، مع أنك على بينة من الأمر كله؟"

رد جمال:

-"نعم. ماذا ستفعلون؟ جربوا كل الوسائل المتاحة لكم! جمال لا يخاف التهديد! ولن يطلق زوجته".

14

شربت آمنة رشفة ماء، مع أنها لم تشعر بالعطش. ظلت تتأمل الغرفة.. السرير المزدوج المزخرف المصنوع من خشب غالي الثمن.. فراش وثير تغطيه ملاءة سرير مزركشة.. والستائر المكسوة بالحرير معلقة من النوافذ. يفرش الأرضية سجاد فارسي جميل. الرفوف الحائطية حافلة بالقطع الأثرية الجذابة. أجهزة الموسيقى على الطاولة الجانبية بالقرب من السرير، وإلى جانبها حامل موضوع فوقه عدة شرائط موسيقية.. وثمة جهاز تلفزيون والفيديو في زاوية الغرفة.. الجو البارد المريح في الغرفة المكيفة، بالرغم من ذلك كله، كانت آمنة تحترق من الداخل.

ما أكثر ما عانت منها آمنة وتغاضت عنها طول تلك السنوات التي عاشت فيها مع جمال! وما أشد مرارة تجاربها! ذات مرة، بينما كانا في إحدى فنادق مدينة بنغالور، إذا التقى بهما بالصدفة أحد معارفه داخل قاعة الطعام، سلم على جمال ذلك الرجل القذر ضاحكاً ضحكة قذرة وقال له:

-"بس حلوة المُزّة الجديدة"

حقاً تمنت حينها لو استطاعت أن تتبخر مكانها حالاً وتنصهر في الهواء! تذكرت آمنة أن جمال قال لها عند دخولهما إلى ذلك

الفندق: "أقيم في هذا الفندق كلما أنزل في المدينة، مما يعني أنه لا بد أن سبق أن يأتي هنا عدة مرات مع العديد من النساء. في عيون أراذل معارفه، ليست آمنة إلا واحدة منهن..!

حتى بعد ذلك التجربة المريرة، لم تترك آمنة الحياة الزوجية معه. لكن الأمر كان فوق ما تطيقها حين شهدت امرأة أخرى في غرفة نومها.. قررت أن تعيش حياتها لوحدها وتتركه مستقلاً في طرق ألاعيبه وغواياته. آمنة لا تريد زوجها بعد الآن.. لكن زوجها لا يوافق على طلبها، بل أعلن الحرب عليها للانتقام منها، وأرسل خادماً ليأخذ من بيتها جميع أغراضه وممتلكاته المتروكة فيه. لم تقو آمنة على مواجهة الموقف.. فتحت الخزانة، وسحبت سراويله وقمصانه التي كانت مطوية مرصوصة داخلها، عفستها جميعاً واحدة تلو الأخرى. فليذهب في ستين داهية كل شيء ينتمي إليه.. لا تريد بعد الآن أن ترى هنا شيئاً يذكرها به.

في تلك الأثناء، وقعت عيناها على ألبوم الصور. التقاط الصور كان من هوايته، أينما توجه، كانت الكاميرا تتدلى من كتفه دائمًا.. فتحت الألبوم الحافل بالصور الكثيرة التي تجمع بينهما في أوضاع مختلفة. زادت رؤيتها من امتعاضها وكراهيتها له.. مزقتها كل ممزق ورمى بها إلى كل جهة بعنف، كأنها حقا مجنونة. جاءت منيرة لمنعها، فصرخت فيها ودفعتها بيدها دفعة. هرولت منيرة خارج الغرفة، تغطي وجهها بيدها محاولة كبح بكاءها.

أخرجت آمنة من الخزانة كافة ملابسها التي اشتراها لها

زوجها.. ولما أخذت صندوق المجوهرات، دخلت أختها الكبيرة إلى الغرفة فسألتها وتحكم نبرة الاستغراب صوتها:

-"ما لك يا آمنة؟ هل أنت مجنونة؟ لا تفعلي أشياء دون تفكير."

-"اسكتي! لا يقل لي أحد شيئاً.. ألم يحدث كل في النهاية كما يرضيكم جميعاً؟"

-"ثرثرتك هذه تحسس أنني أنا من تسببت في هذا كله.. كنت من البداية ضد طلب الطلاق.. إنه رجل طيب محترم، إنما أمه هي التي تفسد أخلاقه وتجعله يتصرف هكذا"

صاحت آمنة:

-"إذا كنت معجبة به، اذهبي واسكني معه في بيته؟"

-"أرسلني إليك بابا لأسمع من فمك القذر كل هذا؟ خلاص، أنا نازلة".

-"فليرحل عني جميعكم.. لا أريد أن أرى أحداً لا يفهمني ولا يصدقني.. لقد كنت أقول لكم جميعاً عن سلوكياته، حتى منذ أن كانت منيرة طفلة صغيرة. إلا أن تحذيراتي المتكررة لم تلاق أذنا صاغية لدى أبي ولا أختي.. كانت سمعة العائلة هي الأهم في نظركم من حياتي وكرامتي.. وقلتي لي إذا انفضح الأمر بين الناس، فهذا سيصبح وصمة عار على الأسرة.. وأي وصمة وقعت الآن بالفعل؟ هل يبق اليوم أحد في البلاد إلا وعلم بالأمر كله؟ لقد اجتمعتم كلكم على تدمير حياتي".

-"لا تصرخي في وجهي. إنما قلت لك ما قلت، حين رأيت قلقك وحزنك. ولا تنسي أن لديك ابنتين. لا تستغنين عن أبيهما على الأقل يوم عقد قرانهما".

-" قبل ذلك اليوم، ستصبح بناتي يتيمات!".

-" ما هذا الهراء الذي تتفوهين به آمنة؟ ما الذي حصل الآن حتى تتحدثين بكل هذا؟"

-"ألم يحدث شيء؟ كيف ستتصرفين لو كنت في مكاني؟"

-"لا تتحدثي بظنونك.. إن بابا هو الذي خطط كل شيء... والآخرون وراءهم من الأشغال ما يشغلهم عن تقحيم أنفسهم في شؤونك.. خلاص، لا أريد أن أتخاصم معك."

كان الحاج حسن يجلس في الصالة، مستمعاً إلى حديثهما. لم يقل شيئاً حتى عندما رأى صفية تغادر غاضبة غرفة آمنة.. لأنه كان يعلم جيدًا أنها ستعود إلى أختها عن قريب ناسية كل مشاجرة دارت بينهما.

انهارت آمنة على السرير بعدما انتهت من تفريغ الدولاب..

على الرغم من كل قصوره ونقائصه، إلا أن جمال كان بالنسبة لآمنة يعني كل شيء في حياتها، واعتقدت أنه أيضاً يعتبرها بالمثل. لكنها أخطأت في تقييم ذلك الرجل الشرير الذي تجاسر على جلب امرأة أخرى إلى بيته وأسكنها معه كزوجته الثانية، وأمه تستر ألاعيبه هذه كلها بموافقة صامتة..! ومع ذلك، استشاط في إدعائه أنه لم

يحدث شيء! إنما أمه هي المسؤولة الوحيدة لكل ضلاله وفسقه وفجوره.. لو كانت أمه قد وقفت إلى جانبها في محاولاتها لإصلاحه، لتمكنت آمنة من تحويله إلى رجل جديد، إلا أنها لم تقف معها بل أفشلت كل محاولاتها بأن جذبت ابنها إليها بعيدًا عنها، وأقنعته أن زوجته هي التي تبعده عن أمه.. وما أطول قائمة الاتهامات التي نسبتها إلى آمنة.. لا حد لها ولا حصر لها.. وأخيراً اكتشفت أبشع وسيلة للانتقام منها.. سترى تلك العجوز بلا شك عواقب أفعالها عاجلاً أو آجلاً.. ولا يبدو أنها ستهدأ إلا بعد هلاك ابنها كلياً.

"أقسم لك أنني لن أعود إلى تلك الأفعال"

كان جمال يكرر قسمه ذلك، واضعاً يده فوق رأسها، في كل مرة يخرج فيها من المستشفى.. كم مرة كرر تلك المقولة الجوفاء! في كل مرة يتم فيها إدخاله إلى المستشفى، كان حريصاً ألا يعلم أهالي القرية أنه هو المريض.. وكيف يقول لهم إنه مريض؟ أليس هذا هو المرض الذي أتى به على نفسه بالإدمان المفرط على الخمر والإسراف في تعاطي المخدرات؟ ولكن، كيف يعترف بذلك للناس؟ ولذلك، يدخل المستشفى متحججاً أن زوجته آمنة اعتلت صحتها، وقد نصحها الأطباء بالمكوث في المستشفى لبعض الأيام. لم تحاول آمنة أبداً للكشف عن كذبه وإفضاح أمره أمام الآخرين..

على الرغم من أنها ظلت حتى اليوم صابرة متحملة على كل شي، إلا أنها أصبحت في النهاية من يلقى عليها اللوم كله! قالوا إنها تختلق الشائعات، وتشوه صورة زوجها أمام الناس. يلومها اليوم

حتى أهلها وأقاربها.. ولكنها تواسي نفسها بأن هناك ربا فوق سبع السماوات، يرى كل شيء، وهو على كل شيء شهيد.. كانت تأخذ في الاعتبار مصلحة جمال في أي شيء تقوم به.

وقد تناهت إلى مسامعها أيضاً ما تنشر أقارب جمال من الشائعات الطاعنة فيها؛ صحيح أن عند جمال بعض مواطن الضعف، ولكنه كان يحب زوجته، إلا أنه فقد توازن نفسه بعدما أبعدته زوجته عن أمه.. مشكلة زوجته أنها من عائلة ثرية فتتباهى أمامه وتتسلط عليه.. بالإضافة إلى أنها مريضة دائماً، لا ينتهي علاجها ولا تخرج من المستشفى.. الحاج كوتيمي خدع عائلة جمال بهدف نصب أموالهم. وهكذا تطول أحاديثهم عنها.

-"إنها مريضة نفسياً. لذلك تتشاجر معه دون سبب وتفتعل المشاكل بلا داع"

عندما سمعت آمنة أن جمال قال ذلك لشخص ما، ألمت بها مشاعر عميقة من الألم والأسى، لم تستطع أن تصدق أذنيها.. كيف تطاوعه نفسه أن يقول إنها مريضة نفسياً! لم تجد جواباً لكثير من شكوكها وتساؤلاتها.. لم تعد قادرة على تناول الطعام ولم تذق طعم النوم في ليال متتالية، حتى أخذت تشك في نفسها هل أصبحت حقاً مريضة نفسياً..! لكنها سرعان ما تداركت وشجعت نفسها بأنه لا ينبغي لها الاستسلام والانهزام.. يجب عليها استعادة قوة شخصيتها.. لماذا تدمر نفسها وتضحي بحياتها من أجل شخص لا يحبها ولا يستحق حبها؟

ترجتها أختها أن تغير موقفها وهي تقول:

-" آمنة، سمعنا أن جمال يريد أن يتعرس مرة أخرى. أنصحك أن تنهي المشاجرة وتحاولي الاتصال به بالتيلفون؟"

-"لا يعنيني إن تزوج ثانية أم لا.. إذا استطاعت زوجته الجديدة إصلاحه، فلتفعل، وتقر بذلك عيون تلك العجوز"

-"أنت هنا تقضين أيامك تبكين وتهجرين الأكل.. هل لديك أي علم عما يقوله هؤلاء الناس؟"

-"ماذا يقولون؟"

-"يقولون إنهم طردوك من بيتهم، لأنهم لم يكونوا قادرين على تحمل مزيد من مضايقاتك.. بل تفوهت تلك العجوز الشريرة أنك مريضة نفسياً وأنها ستزوج إبنها عن قريب من امرأة أخرى".

-"دعها تزوجه.. ماذا سأخسر؟"

قالت آمنة ذلك وهي تنفجر باكية.

ولكنها تمكنت شيئاً فشيئاً من استعادة قوتها وأصرت على مواجهة العيش، متغلبة على جميع مطباتها.. نسيت مرضها وإعياءها.. بدأت تخرج من بيتها لتلبية مطالبها بنفسها وهي ترتدي أجمل ملابسها على خلاف ما اعتادت عليه سابقاً حين تخرج لحالها.

-"يا لها من امرأة مغرورة! يا ترى، كيف تتزين وتظهر أناقتها.. لا لوم على زوجها الذي تخلى عنها! إنها امرأة لا تراعي الآداب والحدود"

هكذا تحولت أحاديث الناس.. ولم يتردد حتى الأقارب المقربين في تمرير مثل هذه التعليقات على مسمع منها.. ولكنها التزمت بالصمت ولم تعر لأحد منهم أذناً صاغية.

كثيراً ما تذمرت أختها وأنبتها قائلة:

-"ما الحاجة إلى حضورك شخصياً في المتجر؟ ألا يفي بالغرض إن قمت بمراجعة الحسابات وأنت في البيت؟ يتقول الناس عنك أشياء، وقد بلغت إلى أذن زوجي أيضاً"

حتى عندما كانت تبكي في الداخل، أظهرت في الخارج وجهاً طليقاً ومظهراً أنيقاً، كما لو أنها تود بذلك إحباط كل من يشمت بوضعها.. والتزم والدها الصمت، مع أنها تفعل كل ذلك على مرآى ومسمع منه. وكان يقون أحياناً:

-"ألم يقيدها ذلك الوغد بحبل غير مرئي؟ ربنا مقلب القلوب.. يا ليته غير رأيه وطلقها..."

-"ماذا تريد أن تفعل بي لو طلقني..؟"

-"سأزوجك من رجل آخر في اليوم ذاته.. ما الذي ينقصك؟ ألا تزالين شابة مثقفة وذات جمال ومال؟"

-"نعم، أتمتع بكل شيء يُطمح له.. إلا أني تعيسة الحظ.

-"عزيزتي، ما فات قد مات.. انسي ماضيك وعيشي حاضرك..".

ستغضب آمنة عند سماع ذلك. كيف يمكنها أن تنسى كل شيء؟ عيالها؟ هل يمكنها نسيانهما؟ ولكن طالما قد نسيهما أبوهما، لماذا لا تستطيع ذلك؟ ماذا لو رفعت ضده دعوى طلب الطلاق في المحكمة؟ المثول في القصف أمام القضاء..! الإجابة على أسئلة المحامي المزعجة والمستفزة.. هل تقدر على مواجهة كل ذلك؟ وحتى لو افترضت أن تصدرت المحكمة حكماً لصالحها، وتمكنت بموجبه فسخ العلاقة مع جمال، فهل تستطيع أن تعيش مع رجل آخر تاركة ابنتيها لوحدهما..؟

لا تسأل الابنتان أمهما شيئاً عن والدهما.. ولا هي تخبرهم شيئاً عنه. ولكنهما تشهدان وتفهمان كل شيء وتتظاهران أنهما لم تعلما شيئاً.. دع تلك الصفحات من حياتها مدفونة في غياهب النسيان، ولن تريد نبشها ونفض الغبار عنها. وقد أصبحت آمنة لا تريد لها رفيقاً لحياتها بعد الآن.. وليبق الشق الآخر من سريرها المزدوج شاغراً إلى الأبد.. ولا تظن أنها ستقدر، مهما اجتهدت، على اجتثاث ذكرياته من جذورها من قعر قلبها.

منذ أن غادرت بيت زوجها المغادرة النهائية، تحاول محاولة حثيثة لمحو ذكرياته ونسيانه كلياً، وحشو صدرها بكراهيته. كانت تعتقد أن ذلك سيكون أمراً سهلاً عليها، لأنها قد رأت منه ما قد تجعله تستهتر قتله. ولكنها أدركت فيما بعد أنه من المستحيل بالنسبة لها محوه من صفحة قلبها.. تأبى أفكارها أحياناً إلا أن تتمحور حوله.. وزادت شدة وطئها يوماً بعد يوم.. تلظى الشوق إلى

رؤيته في داخلها وانصهرت من حدتها يوماً بعد يوم.

-"يا لهوي، ماما تعالي بسرعة، جدي ليس على ما يرام، يعاني من ضيق في التنفس."

وقفت آمنة مصعوقة من هول ما سمعت وتتناهى إلى مسامعها صراخ بناتها..

15

تمنى الحاج حسن أن ينادي ابنته.. لكنه أحس بأن لسانه مشلول.. فشلت أيضاً محاولته أن يفتح عينيه.. أراد النهوض من السرير، لكن الأمر كان شبه مستحيل. شعر بالعطش الشديد، فتمتم قائلاً حين أحس بشخص ما يلمس جبينه:

-"الماء... هل يسمعني أحد؟":

-" ماذا تريد بابا؟"

تعرف الحاج حسن على صوت آمنة. ففتح عينيه بصعوبة بالغة.. رأى أمام وجهه مباشرة وجهها الشاحب الذي اكتسى بعلامات الإرهاق والسهر.. آلمه كل جزء من جسمه، ربما لأنه ظل راقداً على جانب واحد لفترة طويلة.

-"هل أعطيك شيئًا تشربه، بابا؟"

أومأ برأسه موافقاً. سكبت آمنة بعض الشراب الساخن في فمه، شراب هوريكلس، ابتلعه شيئًا فشيئًا. عندما غادرت آمنة بزجاجة الشراب، حاول النهوض.. فالتفتت آمنة للوراء صائحة:

-"الله! ماذا تفعل يا بابا؟"

ركضت إلى جانبه، أجابها بهدوء:

-"أريد بس أن أنهض".

-"استند علي."

ساعدته على النهوض. عندما وضعت وسادة خلف ظهره، شعر بأن الجلسة أصبحت مريحة. عندها لاحظ وجه ابنتها بشكل واضح.. وجه شاحب مصفر بشكل فظيع، وعينان غائرتان ساهمتان.. شعر ثائر غير مرتب..

-"ما بك عزيزتي.. لا تسرني هيئتك هذه..

-"لا تخف علي يا بابا، إنما هو من القلق عليك... كنت تقرأ الجريدة كعادتك في الصباح، فجأة سقطت على الأرض مغشياً عليك وصار جسمك بارداً كالثلج. لحسن حظنا، كان الطبيب موجوداً في البيت. جاء يركض ولم يزل بجانبك حتى المساء.. بفضل تدخله الفعال في وقته، لم يكن علينا أن نأخذك إلى المستشفى. منذ ذلك الوقت، كنت نائماً، توك استيقظت".

-"أبوك الآن على ما يرام، لا تقلقي عزيزتي.. فقط شعرت فجأة بضيق في التنفس، ولا أتذكر شيئاً حدث بعد ذلك"

-"كان ذلك بسبب ارتفاع ضغط الدم.. ربنا حفظنا وحمانا من الآفات"

-"كم الساعة الآن؟"

-"الساعة الرابعة والنصف."

-"لماذا لم تنامي حتى الآن؟ اذهبي واستلقي لبعض الوقت. أبوك بخير."

-"لا وقت للنوم، سيصبح الفجر قريبا"

-"ما عليك، بس اذهبي وخذي قسطاً من الراحة.. وإلا لا تكون لديك طاقة لعمل أي شيء غداً..

-"أساعدك على الاستلقاء بابا؟"

-"نعم عزيزتي."

أضجعته آمنة على السرير وغطته بالبطانية. واستلقت هي الأخرى انقياداً لإصراره، وسرعان ما خلدت إلى النوم. لقد خافت آمنة على والدها خوفاً شديداً من هول ما رأت من حاله.. إلا أنها شعرت بارتياح كبير حين رأته جالساً يتحدث بشكل طبيعي. تسللت من خلال النافذة ريح باردة.. غطى الحاج حسن جسده بالبطانية ما عدا وجهه.. لم تطلع الشمس بعد بشكل واضح.. لم يدرك الحاج حسن ما الذي ألم به في الحقيقة.. وجد نفسه راقداً كالميت. حاول أن يستعيد إلى ذهنه أحداث ذلك اليوم واحداً تلو آخر.. أول شخص رآه بعد ما استيقظ من النوم في الصباح، كان عامل جمال القادم من واياناد، لإبلاغه بخبر انفجرت آمنة لسماعه غضباً وحزناً واحتجاجاً.. ثم جلس الحاج حسن على كرسي الاستراحة في الواجهة وهو يسمع صوت آمنة التي تنحب مستلقية على سريرها، تسرد أحزانها ومآسيها. واتخذت حينها قرارها

الصارم بقطع علاقاتها مع جمال، أما جمال فكان يصر على عدم تطليقها آملاً في أن تعود إليه ذات يوم.. لم يجد الحاج حسن ما يمكن فعله لمواساة ابنتها المكلومة التي مزقها حظها العاثر تمزيقاً، ولم تكن لديه من الألفاظ ما تعزيها..

وقد تحطم قلبه مما سمع وشهد.. انهار جسده أيضاً كقلبه المنهار.. وقد تجاوز من العمر سبعين عاماً.. ومن يدري كم يبقى له من الأيام.. وبعده، من ستعتمد عليه ابنته آمنة وابنتاها اللتان لم تكبرا بعد...

سأل الحاج حسن نفسه: لم أنغص هدوء رأسي بالأفكار السوداء؟ ألم يكتب الخالق مصير كل مخلوق حين خلقه. ما أضعف حيلة الإنسان.. وما أعجزه أمام معضلات الحياة.. على الرغم من أنه يجد نفسه أحياناً تتوق إلى الموت، إلا أنه كان خائفاً من مواجهة الموت.. لم يكن خائفًا من مفارقة الدنيا، بل يفزعه ما بعد الموت.. الحياة البرزخية.. وحشة القبر وكربته ووحدته.. يوم يضطجع على الفراش الحريري الوثير، لا يذكر الإنسان أنه سيحتمل من فضاء القصر إلى مضايق القبر.. وسينتهي إلى ذلك المصير كل ابن آدم، كائن من كان، خالي الوفاض، مكفونا فقط بثلاثة لفائف من القماش، تاركا وراءه ثرواته والقصور التي شيدها.. وما ينفع للإنسان بعد موته إلا ما خلّفه وراءه من الأعمال الصالحة، وهي رفيقه الوحيد في وحشته.. لكن من ذا الذي يتذكر هذه الحقائق في خضم ملذات الحياة وألوانها البهية؟ تخطر على القلب خواطر

الإيمان عندما يتدهور الجسم ويضعفه المرض.. إن الله سبحانه وتعالى يكتب السعادة لمن يأتيه بالأعمال الصالحة، والشقاوة لمن يأتيه بالأعمال السيئة.. وهو العليم الخبير وأحكم الحاكمين.. لقد وكل ملكين على كل إنسان، فما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد.. لن يخطئا فيما أمرا به..سيكتبان أفعاله وأقواله.. وسيبعث الله يوم القيامة الأولين والآخرين.. كل من عاش ومات على وجه الأرض على مر العصور، حتى أولئك الذين ماتوا منذ آلاف السنين.. وفي ذلك اليوم، سيُحاسب كل إنسان فردياً، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يثاب عليه، فهو في عيشة الراضية ومن يعمل مثقال ذرة شراً يعاقب عليه فأمه هاوية نار حامية..

اختلجت في نفس الحاج حسن أفكار وتساؤلات.. في تلك الأثناء، تناهى إلى أذنه صوت الأذان من مسجد قريب.. تجافى جنبه عن مضجعه في حركة غير إرادية.. استيقظت آمنة على سماع صوت حركاته.. فتحت عينيها، ولما رأته جالساً على السرير، انتفضت قادمة إليه وهي تسأله:

-"لماذا قمت لوحدك، بابا؟ كيف إذا جاءك الدوار وأنت قائم...؟"

-"لم أستطع أن أبقى في الفراش عندما سمعت أذان الفجر".

-استرح اليوم أيضا، بابا. "

-"لا يمكنني ذلك.. بس دخليني إلى الحمام."

-"إذا أنت مصر، دعني أنادي بعض الخدم أيضًا."

-"لا حاجة لذلك. أشعر أنني بخير تمامًا."

أمسكت آمنة بيده وأخذته إلى الحمام:

-"لا تقفل الباب."

قالت آمنة وظلت واقفة بجانب الباب خارج الحمام. ولما انتهى من تنظيف الأسنان والتوضؤ، شعر بإعياء. مشى إلى السرير متكئاً على كتفها.

-"ما زلت تعباناً، يا بابا. يكفي أن تصلي جالساً".

-"حسنا. لكن أريد تغيير هذا الإزار. واطلبي لي الشاي."

صلى الحاج حسن جالساً في السرير. قام أولاً بقضاء الصلوات التي تركها في اليوم البارح.. صار منهكاً تماماً عندما انتهى من صلاة الفجر بعد قضاء الفوائت أيضاً. وصل الخادم ومعه الشاي. عندما شربه، شعر بأن الإعياء يزداد.. ودب إلى عيونه النعاس.

-"ألم تأت صفية؟ كيف حال الأطفال؟"

-"أختي كانت هنا بالأمس حتى الليل، وعادت فقط عند النوم. أنا أتيت حين سمعت صراخ منيرة، وكانت الفتاة خائفة جداً"

- "ذكرتني بأمر منيرة، جاء لخطبتها شاب، من عائلة نبيلة ثرية عريقة، هم تجار الأخشاب.. أعرف جيداً والد الشاب، الحاج أبو بكر.. ما رأيك عن هذا العرض؟"

-"دعها تكمل دراستها يا بابا.. وكنت قررت سابقاً ألا نزوجها من شخص من عائلة كبيرة ثرية.. وقد جربت أخلاق هؤلاء الناس كثيراً، ولا أزال أعاني منهم"

-"إذا كان الأمر كما قلت، فهل ترين أي مشكلة في زواج ابنة أختك جزيلة؟ والناس معادن.. على أي حال، فكري جيداً ولا تستعجلي في قراراتك.. أرى الزواج من الأمور التي يفضل أن تتم في أوقاتها.."

-"الزواج حظ ونصيب.. إذا كانت الفتاة سعيدة الحظ، فتكون حياتها سعيدة مهما كانت العائلة التي يتم زواجها إليها، وإذا كانت صاحبة حظ عاثر مثلي..".

-"لا تقولي شيء ينغص عليك صفاء قلبك عزيزتي..."

قبل أن يكمل الحاج حسن، وصلت ابنته الكبيرة صفية تسألهما:

-"ما هذا النقاش الحار بين بابا وابنته من الصباح الباكر؟ كيف أصبحت بابا؟ هل استطعت النوم جيداً البارحة؟ متى استيقظت؟"

بدت على وجهها ملامح الراحة والطمأنينة لرؤية والدها جالساً يتحدث.

-"كنا نتحدث عن عرض الزواج الذي جاء لمنيرة"

-"هذا أمر لا يزال أمامنا الكثير من الوقت للتفكر فيه. أهم شيء الآن أن تستعيد صحتك.. آمنة، بإمكانك أن تروحي للاستحمام إن شئت، وسأظل مع بابا"

سألت آمنة:

-" بابا، تريد أن تشرب شوربة جوز الهند؟"

-"توني شربت الشاي.. سأتناولها بعد قليل. روحي واستحمي".

عندما غادرت آمنة، ساعدت صفية والدها على الاستلقاء. ثم سحبت كرسيا وجلست بالقرب منه.

-"هل أنت غاضب مني بابا لأنني ما أقمت معك هنا البارحة؟ كنت مع آمنة هنا حتى منتصف الليل. وكما تعرف، عبد الكريم رجل مزعج يريدني دائماً أن أكون معه لكل شيء.. ولذلك رجعت أمس.. ابنتي جزيلة لا تزال تتصرف كطفلة وهي متزوجة ووالدة طفل.. وكم من مهام كنت أقوم بها في سنها! "

هكذا صفية، تشتكي دائماً من الجميع، تماماً مثل والدتها. تزعل على أتفه شيء، وسرعان ما تتصالح أيضاً. عادت الذكريات بالحاج حسن إلى أيام شبابه.. كانت زوجته خديجة في عمرها الرابع عشر يوم دخلت إلى حياته.. يوم زفافهما، كانت تتألق بإطلالة العروس الفضية والمجوهرات الذهبية التي تغطي جسمها بكامله، تتلألأ كأنها القمر ليلة البدر.. لا يزال ذلك الوجه اللماع منحوتاً بكل وضوح في صفحة ذاكرته.

لو كانت خديجة على قيد الحياة، لما حدث لآمنة ما حدث.. وبالنسبة لآمنة، فلم يكن أمراً جديداً أن تأتي إلى بيتها ناشزة بزوجها وتترجى من أبيها في كل مرة ألا يجبرها على العودة إلى بيت زوجها

مرة أخرى". ولم يكن والدها يأخذ كلامها أبداً على محمل الجد، حيث إنه كان حريصاً كل الحرص على ألا تتشوه سمعة صهر الحاج حسن مانيكوت بين الناس.. ولذلك سعى منذ البداية إخفاء الأمر بدلاً من تصحيحه وتعديله.. لو كانت خديجة على قيد الحياة، لوقفت إلى آمنة تستمع إليها من منظورها. واليوم انفضح كل شيء وعلم بها الجميع، وهبطت حياة آمنة إلى أسوء مراحلها المأساوية.

كان الحاج حسن يحب صهره جمال الذي كان إذا دخل البيت، ملأ جوه حركة وضحكة ولعباً ومرحاً، على خلاف طبيعة زوج صفية الذي يتصرف في بيت زوجته كخارجي حتى اليوم، ولا يتعامل بأسلوب مفتوح إلا مع زوجته وعياله. وبعد أن غادرت آمنة، زاد شعور الحاج حسن بالوحدة. كانت صفية تزعجه دائمًا لنقل ملكية البيت إلى اسمها، لأن زوجها يهددها دائماً ألا يقيم معها في بيتها ما لم يتم نقل ملكيته، وكان ذلك دائماً أسلوب عبد الكريم، لن يطلب شيئاً من والد صفية مباشرة، إلا أنه سيظل يضايق زوجته حتى يتم تلبية مطالبه. وفي تلك الأيام التي كان يقضيها الحاج حسن متضايقاً متململاً، جاءت آمنة مقررة الانتقال إلى بيتها من بيت زوجها، فأصبح وجودها في البيت مصدر راحة بالنسبة له. ولما تم بناء بيت جديد خاص بها، اختار الحاج حسن أيضاً أن يقيم فيه معها.

قالت له آمنة ذات مرة، تشفع لأختها:

-"بابا، انقل ملكلية البيت إلى صفية. وإلا، لن يتركها زوجها لحظة تعيش مع راحة البال".

-"سأكتب الوصية على أن يكون البيت لها بعد موتي، ولا يمكن ذلك ما دمت على قيد الحياة.. ألست في حاجة إلى بيت آوي إليه حتى الموت..؟ وهل يدري الإنسان كيف يكون مصيره؟"

وبعدما بلغها ما قاله الوالد، هدأت صفية ولم تتقدم له بطلبها مرة أخرى، وصارت تلح عليه أن يقيم معها في البيت، إلا أنه لم يستمع إليها.

يتمتع جمال بطبائع خاصة حيث لم يكن أبداً مهتماً بأمور المال أو الممتلكات، إذا توفر لديه المال، فإنه سينفق بسخاء على أي شخص. وكان من عادة الحاج حسن يوم كانت آمنة تسكن في بيت زوجها في واياناد، أن يزورها من حين إلى حين، ويقضي مع عائلتها يومين أو ثلاثة أيام. وكان يحب ذلك المنزل الريفي والمناطق المحيطة به، علاوة على ذلك، كان جمال يغمره بحفاوة الضيافة، ولم يكن يرجع من واياناد إلا مسروراً راضياً..

إلا أنه شهد مرة مشهداً شائناً.. وذلك حين وصل إلى بيت جمال ذات مرة دون إبلاغه مسبقاً عن مجيئه، حيث إنه كان في طريق عودته من مدينة بنغالور. وكان الظلام قد بدأ في الحلول والضباب آخذ في الانتشار، حين وصل الحاج حسن إلى منطقة واياناد، فغير خطته وقرر عدم الذهاب إلى بيته نظراً لصعوبة نزول الجبل في ذلك الوقت، وأراد أن يقضي تلك الليلة مع عائلة ابنته. لما وصلت سيارته أمام البوابة، لاحظ أن المصابيح مضاءة في مبنى المكتب، فذهب إليه مباشرة ليسلم على صهره قبل الدخول إلى البيت، ولكنه

فوجئ هناك بمشهد في غاية الوقاحة، فكر الحاج حسن من هول ما رأى أنه ما كان ينبغي له أن يأتي هناك؛ حيث كان جمال في حالة ثمل شديدة وبجانبه فتاة. تملكه شعور مرهق من الخزي والعار. انصرف من هناك صامتاً وتوجه إلى البيت، حيث وجد ابنته آمنة تستلقي على السرير منهوكة القوى، يائسة من البكاء المر الطويل:

-" بابا، إن كنت لا تزال تحبني، فخذني بعيداً من هذا الوكر للشياطين، لن أطيق المزيد..".

-"ما الذي حدث الآن يا عزيزتي؟"

-"لا تتظاهر بابا بالجهل، أعرف أنك ذهبت إلى المكتب، حيث يقضي صهرك لياليه منذ يومين."

-"مهما كان الأمر، ننتظر للغد، وسنتوصل إلى حل إن شاء الله."

لم يستطع أن يغمض عينيه تلك الليلة المشؤومة. وفي الصبح، بينما كان الحاج حسن يقلب صفحات الجريدة، جاء جمال بشكل مباغت، وارتمى على قدميه، وما تزال آثار السكر بادية في ملامحه وحركاته، رفعه الحاج حسن من قدميه فانهار على كتفه وهو يبكى.

-"أرجوك، سامحني، أنا لا أكاد أملك نفسي.. يغزو رأسي القلق والخوف فأجدني ألوذ إلى الشرب ولا أعي بعد ذلك قولي وفعلي."

-"ما العمل الذي تقوم به تلك الفتاة هناك في الليل؟"

-"إنها موظفة الطباعة... حضرت لتخليص شغل عاجل..."

-"حسناً حسناً، فهمت كل شيء. ولا يمكن إلقاء اللوم على آمنة على قراراتها الصارمة.. طيب، ما السبب لقلقك وخوفك؟ لا أظن أن عندك شيئا يدعو إلى ذلك"

-"أمي، دائماً تضايقني وتنغص صفو حياتي.. وإذا جئت هنا راجياً شيئاً من الراحة، فتأتي آمنة بحصتها من أنواع المضايقة..."

على الرغم مما شهد البارحة، شعر الحاج حسن بالعطف عليه فيما ما يلاقيه.. فحاول تهدئة آمنة التي أصرت على العودة معه، وأقنعها كيفما استطاع بالبقاء في بيت زوجها.

ينجح جمال دائمًا في إيجاد مبررات تبرئ نفسه أمام الآخرين.

كيف يكون مصير آمنة بعد والدها؟ ليس ثمة أحد لمساعدتها. كان جمال أرسل شخصًا آخر لإبلاغ استعداده للعودة إلى بيت آمنة، بشرط أن تدعوه آمنة مباشرة، وقد سبق أن يرسل أشخاصا كذلك من قبل أيضا.. تميزت آمنة بالغيظ حين علمت بذلك.

-"يستحق من جاء بذلك الخبر إلى بيتي صفعة على وجهه بالنعال، لا بد أن سيده الشرير في حاجة ماسة إلى المال، لذلك تذكر آمنة ويريدها."

فتح الحاج حسن عينيه عندما لمست وجهه قطرات الماء التي تساقطت من شعر آمنة التي كانت تمشط شعرها بعد الاستحمام، ما أجمل ما كانت آمنة، تماما كوالدتها ببشرتها الناعمة البيضاء

وجسمها الفاتن الرشيق.. ولكنها اليوم أصبحت في أسوء ما يكون مظهرها.. ولا يكاد يمر يوم إلا وهي تعاني من مرض ما..

كان الحاج حسن قلقاً جداً على ابنتها المكلومة التي ليس لها عون ولا سند في حياتها.. ولم تزل تداهمه الأفكار السوداء حول مستقبلها حتى أحس أن قلبه يتحطم من القلق والجزع، ودب في كبده وخز مؤلم، انتشر إثره شعور بالخدر إلى ذراعه الأيسر، وسرعان ما تحول ذلك إلى ألم شديد في شقه الأيسر كله.. اشتد الإعياء وأصابته حالة من الاختناق الشديد.

-" آمنة.... أبوك ليس على ما يرام... يا الله...... يا رسول الله.."

أصبح لسانه شبه مشلول لا يكاد يبين ما يقول..

جاءت آمنة تهرول وهي تصيح: بابا....

16

-"ألم يحن الوقت لغسل الميت؟"

فتحت آمنة عينيها عند سماع ذلك السؤال الذي بدد الصمت المستحوذ على المكان. أين أنا الآن؟ من الذي يغسلونه؟ أين بناتي؟ هل أعطيت الأدوية لبابا؟ سألت آمنة نفسها مضطربة غير واعية بما يجري حولها.. وجدت نفسها مستلقية على السرير الذي يلتف حوله لفيف من النساء.. جو الغرفة مشحون برائحة البخور والصندل والحانوط. يبدو أن أشخاصاً يقرؤون القرآن؟ أين بابا؟ ماذا حصل له بعدما كان يعاني من ألم مباغت بصدره... ألست أنا التي اتصلت بالطبيب وطلبت منه الحضور؟ ماذا قال الطبيب؟

سألت لمن حولها:

-"كيف حال بابا؟"

-"يا لوعتي.. لقد رحل عنا أبونا يا آمنة.. ولم يعد لنا أحد في هذا العالم..

تعرفت آمنة على صوت أختها صفية.

-"أين يذهب بابا؟ لن يذهب إلى أي مكان تاركاً آمنة هنا وحيدة"

هرعت آمنة إلى الصالة الوسطى، باحثة عن والدها. وجدته ممدداً على سرير وسط الصالة، مغطى جسده كله بقطعة قماش بيضاء.. ألا يشعر بابا بالاختناق لو غطوا وجهه؟ ركضت إلى جانبه وأزاحت القماش عن وجهه. كان والدها ينام ولا تظهر على وجهه علامات الإرهاق والإعياء، بل شاعت على شفتيه ابتسامة مطمئنة، تلك الابتسامة ذاتها التي اعتادت أن تراها على وجهه وهو يلاطفها أيام طفولتها.. ولكن ما هذه العقدة حول ذقنه، كالنوع الذي يربط حول ذقن الميت؟! وضعت يدها على جبهته، ارتجفت أوصالها.. كانت جبهته باردة كالثلج.. انفجر في داخلها براكين عديدة تناثرت شظاياها في كل الأرجاء.. تصبب جسدها عرقاً. وضع إحداهن يدها على كتفها وقالت:

-" لا تجزعي عزيزتي آمنة، ألهمك الله الصبر.. أليس هذا مصير الأولين والآخرين، كلنا سنموت إن لم يكن اليوم فغدا.. سيغسلونه الآن".

-"لا...! دعه ينام.. أتزعجونه وهو نائم!؟"

-لا تأخذوه عني.. ليس لي أحد سواه..

جاءت أختها صفية وأمسكت بيدها بلطف وهي تقول:

-" آمنة، أرجوك اهدئي واصبري وادعي له... هل كان أبونا سيحب هذا منك لو كان معنا الحين؟ ألا تتذكرين أن بابا كان يقول لنا إنه يود إذا مات أن يدفن ميته بأسرع وقت ممكن؟ أليس إكرام الميت دفنه؟"

ارتمت آمنة بين أحضان أختها باكية:

- "مات أبونا هماً وقلقاً علي.. أنا التي تسببت في موته؟! أنا وحدي سبب كل شيء.. يا ربي، لم لا تأخذني إليك معه؟"

-" أوه، لا تجزعي، يا عزيزتي. هذه إرادة الله..

أمسكوها وأقاموها من هناك، وحاولوا أخذها إلى الداخل فرفضت، قالوا لها:

-"لو بقيت هنا، لا تقدرين أن تتمالكي نفسك وتثيرين جلبة بصراخك.. ارحمي نفسك واستلقي في الداخل."

- "لا، لن أتركه وحيداً هنا..."

سقطت جالسة على الأرض بجانب السرير الذي يتمدد عليه الميت، وقد لفت خرق مبللة في أسفل قوائمه الأربع، منعاً للنمل الذي ينجذب إلى الأجساد الميتة.. وعلى مقربة منه، ثمة جماعة من المطاوعة يتلون القرآن قراءة مرتلة متأنية. وتحت السرير، وعاء معدني فيه التراب، مغروس فيها عيدان البخور.. جو الغرفة محشون برائحة الحنوط وبخاره.. شعرت بضيق التنفس. تساءلت هلا تمتلئ عيون بابا بسبب الدخان المكتم به الجو.. هل اجتمع كل الناس في العالم في الصالة الوسطى داخل بيتها؟ فقد كانت الصالة مكتظة بالرجال.. جاءت إحدى النساء تعدل طرف ثوبها حين انزلق من كتفها، وقالت أخرى:

-"غطي شعر رأسها بطرف ثوبها.. الفتاة ليست في وعيها الكامل".

-"لا ينبغي أن نتأخر أكثر.. إنه لم يكن يحب في حياته أن يشغل وقت أحد دون داع. وإذا بدأنا التجهيز الآن، سيمكننا الوصول بالجثمان إلى المسجد بحلول وقت صلاة العصر".

تساءلت آمنة في نفسها حين سمعت ما قاله زوج أختها: هل يستعجل إبعاد والدي من بيته؟

-"ألم يقم الجميع من إلقاء النظرة الأخيرة إلى الميت؟ نأخذه الآن للغسل؟!"

لم تزل آمنة جالسة مكانها، على الرغم من سماع كل هذا.. أنهى الشيوخ قراءتهم وأغلقوا المصاحف ونهضوا، تاركين صمتا رهيبا يسود المكان.. قام شخص ما بإزالة القماش الذي يغطي الميت، وكان والدها لا يزال نائماً.. جاء خمسة أو ستة رجال يحملونه معًا إلى الحمام، وحملوا كذلك السرير الذي كان عليه الميت.. سيمددونه على سرير موضوع داخل الحمام ويفركون جسده بالصابون وألياف جوز الهند ويغسلونه غسلته الأخيرة.. هل سيرضى والدها أن يغسله الآخرون؟ كانت آمنة هي التي تضع له الكولونيا على ظهره وتدهنه بالبودرة المعطرة بعد استحمامه كل يوم.. كان إذا خرج من الحمام، يناديها بصوت عال وهو جالس على سريره.. ويسمع نداءه كل من في البيت.. ألا يناديها كعادته بعدما ينتهي من الغسل اليوم أيضاً..؟

من يقوم بغسله من أقربائه؟ أخوها الكبير؟ ألم يسبق أباها أن يفارقها؟ أليس لأختها الكبيرة ولدان؟ كلاهما يقيمان في البلدان الأجنبية.. هل وصلا عائدين على خبر وفاة جدهما؟

سألت آمنة أختها صفية:

-"ألم يصل ابنك شمس الدين؟"

هزت رأسها بالنفي.

-"فمن سيغسل الميت؟ هل أصبح أبونا حين مات، دون أحد من أقربائه ليغسله؟"

-"لا تقلقي يا آمنة، لقد جاء أقرباء بابا من قريته، سيعتنون بباقي الأمور كلها.. وقد كتب بابا في وصيته أنه يود أن يُدفن في مقبرة مسجد قريته"

كثير من الحضار يحاولون مواساتها وتهدئتها، وألحوها على الذهاب إلى الداخل وأخذ شيء من الراحة، إلا أن آمنة لم تبرح مكانها.. هذا أبوها الذي يحمل بين أضلعه قلباً يتلوى ألماً إذا سمع بكاءها.. ولم يزل حتى وفاته يتجرع المآسي من أجل آمنة.. ولا ينبغي أن تجلب له مزيداً من الآلام بعد وفاته.. فلترقد روحه بسلام؛ حدثت آمنة نفسها وهي تفتح المصحف الذي كان على الطاولة وأخذت في قراءة سورة يس:

-"يس... والقرآن الحكيم..."

كررت تلاوة السورة عدة مرات، تلاوة مرتلة هادئة متواصلة بصوت عال...

-" بنيتي، تنحي قليلاً، انتهوا من غسل الميت.. دعوهم ينشرون الحصير لوضع الميت عليه"

تنحت آمنة وجلست بالقرب من الحائط مسندة ظهرها عليه، بعد أن أغلقت المصحف ووضعته على الطاولة.

نشروا الحصيرة وسط الصالة، وفرشوا فوقها قطعة قماش بيضاء جديدة ونثروا الكافور على جميع أجزائها، ورشوا ماء الورد والسوائل المعطرة. ثم أضجعوا فوقها والدها ملفوفاً بقطعة قماش بيضاء.. كان لا يزال نائماً، ويداه مربوطتان على صدره، وتوجد حول ذقنه عقدة.. بدأ يصبون فوق جسمه زجاجات العطور.. كان لا يحب رائحة العطر من هذا النوع، كان دائما يستخدم كولونيا، ويضع فوقها بودرة كوتيكورا.. غير أن آمنة لم تستطع منعهم من أي شيء يفعلون بوالدها، كأنها فقدت قدرتها على تحريك أطرافها.

ثمة إناء كبير مليء بالقطن.. أخذوا في وضع القطع الصغيرة من القطن بين أصابع يدي والدها وأصابع قدميه وسدّوا منافذ أنفه وأذنيه بكرات القطن، وأبقوا في الإناء فقط ما يحتاجونه لتغطية وجهه من القطن.

-"إذا كان هناك أحد يود إلقاء النظرة الأخيرة، فليأت الآن."

لم تستطع آمنة تحريك رجليها، وكأنهما مغلولتان. تقدم الجميع للنظرة الأخيرة واحداً تلو آخر، جاءت أيضاً أختها صفية، وطفلتاها منيرة، ونصيرة وكل أقاربها، يبكون ويتمتمون بلوعاتهم ومآسيهم بفراقه، تتعالى أصوات النحيب والعويل والبكاء الجماعي.. جلست آمنة تسمع كل شيء، إلا أنها أصبحت كمادة جامدة، جفت عيناها، ولا تذرف منهما ولا دمعة...

-"هل انتهى الجميع؟ هل يمكن الآن تغطية وجه الميت؟"

-"أين آمنة؟ ألا تلقين النظرة الأخيرة يا عزيزتي؟"

نهضت آمنة، وطبعت قبلة على جبين والدها، اشتمت رائحة بودرة كوتيكورا ومعطر كولونيا.. وهي لا تزال تواسي نفسها: لن يذهب بابا إلى أي مكان تاركا آمنة وحدها.

غطوا وجهه بالكفن بعد أن وضعوا عليه قطع القطن وعقدوا العقد الثلاثة، بين قدميه وحول بطنه وتحت ذقنه..

سأل شخص ما:

-"ألم تصل سيارة الإسعاف؟"

-"أحضروا النعش".

رفعوا الميت ووضعوه في النعش وأغلقوا الغطاء وفرشوا فقوه قماشاً حريرياً. بدأ الشيخ يقرأ بصوت عال سورة الفاتحة وسوراً أخرى متبوعة بأدعية للميت، ردد الباقون ما تلا عليهم الشيخ وأمنوا على دعائه..

- ابدأوا التهليل.

قال الشيخ.

-" لا إله إلا الله، محمد رسول الله."

ردد الناس جميعاً التهليل، مبددين الصمت الذي أحاط بالبيت منذ ساعات.. امتلأ الفضاء بأصوات التهليل..

-" لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله."

تحركت شفتا آمنة أيضًا ترددها..

حملوا نعش الأب على أكتافهم وخرجوا به من بوابة البيت.

-"أما زلت جالسة هكذا يا آمنة؟ ألا ترينهم يذهبون ببابا؟"

لم تبرح آمنة مكانها دون أن تأتي بحراك.

عانقت ابنتها نصيرة باكية وهي تتمتم:

-"لقد رحل عنا جدي وقد رأيتهم يخرجون به من البوابة"

استفاقت آمنة من الصدمة على صوت نصيرة، وبدأت تضرب رأسها على الحائط وتصيح:

-"صحيح... لقد فارقني أبي... تركني هنا وحدي..."

17

ثمة خادمات كثيرة في المطبخ، ومع ذلك، لا تطمئن آمنة، حين يأتي زوج ابنتها إلى بيتها، إلا إذا قامت بالإشراف على كل شيء بنفسها مباشرة. حتى بعد مرور شهرين أو ثلاثة أشهر على زواج منيرة، لا تزال آمنة ممتلئة الحماس لإعداد الولائم لصهرها.. يبدو لها أن حياتها قد اتخذت مجرى جديداً سعيداً.. كانت اعتقدت أن حياتها فقدت طعمها منذ فراق أبيها، غير أن الآمال والطموحات قد بدأت تنبت من جديد في دخيلة نفسها.. كان صهرها فتى محترماً خلوقاً جداً، اجتذب إليه الجميع بسرعة لقوة شخصيته المثقفة المتواضعة، ولم تستثن من ذلك حتى نصيرة ذات طبيعة منعزلة غير اجتماعية.

لم يكن أيضاً من النوع الذي يحب الإسراف في إقامة الولائم والعزومات من أجله، وتحضير عدد من ألوان الطعام في كل مرة يأتي إلى بيت زوجه. بالنسبة لآمنة، فيمكنها تقليل مستوى العزائم وعدد الألوان إلى حد ما، لكن كيف يمكنها أن تلغي كلياً ما تظهر به تقديرها لصهرها وسعادتها باستقباله؟ وكذلك كيف يمكنها أن تمنع الأقارب حين يدعون لحضور العزومات المقامة تكريماً للعريس؟ كيف يمكنها تخطي العادات والتقاليد دفعة واحدة؟ ألن يكون

لديها، بصفتها حماة، رغبة في إكرام صهرها بالعزومات على الأقل في أوائل الأيام؟ وخاصة أن لديها فقط إبنتين، وليس لها عيال كثير..

-"أمي، هلا أتيت إلى هنا؟"

-"ما الأمر يا منيرة؟ تعالي أنت إلى هنا. هل انتهى زوجك من استحمامه؟"

-"كم صار من الوقت وأنت في المطبخ، يا أمي؟ ذكرتك البارحة أيضاً أنه لا حاجة لتحضير أصناف كثيرة تملئين بها الطاولة."

-"ليس كثيراً كما تقولين، لكن كيف أقدم لصهري فقط الخبز واللحم؟ هذا ليس معتاداً عند أمك وعائلتك".

-"يريدني زوجي أن أذهب معه إلى بيته وأقيم هناك لبعض الأيام."

-"ماذا قلت له؟"

-"قلت دعني استأذن أمي أولاً".

-"دعي زوجك يفعل ما يحلو له."

-"يقول أيضاً إنه يريد لقاء بابا.."

خنقت آمنة العبرة النازلة في حلقها فجأة لدى سماع ما قالت لها منيرة، وقالت بصعوبة وبصوت محشرج:

-"افعلوا ما تشاؤون".

في محاولة لإخفاء دموعها عن ابنتها، حنت وجهها وانشغلت بوضع الخبز الرقيق المبلل برحيق جوز الهند في الأطباق. ولما وصلت بالطبق إلى غرفة الطعام، كان صهرها قد وصل وجلس أمام الطاولة، ركزت فقط على تقديم الطعام له، مشيحة بأنظارها بعيداً عن عيونه.

بينما كان يغسل يديه بعد تناول الطعام، قال لها:

-"أود لقاء والد منيرة.. إذا لم يكن لديك مانع".

اهتزت آمنة من الداخل، شعرت بدوار، أدارت نحوه ظهرها متظاهرة بأنها مشغولة بجمع الأطباق من الطاولة، واحداً تلو الآخر.

وقبل أن يخرج من غرفة الطعام، قال لها:

-"نحن نذهب إلى بيتي هذا المساء، سنأتي إلى هنا من حين لآخر."

اكتفت بالإيماء برأسها بالموافقة.

بعد قليل، سمعت صوت دراجته النارية، التي لا يذهب إلى أي مكان إلا عليها، رغم أن هناك سيارتين في البيت، إحداهما جديدة من طراز فيات، تم شراؤها بمناسبة زواج منيرة. كانت آمنة تشعر بالخوف بمجرد سماع ضجيج دراجته.. وتتسارع نبضات قلبها خوفاً عند رؤية منيرة وهي تركب فوقها خلف زوجها. وحتى

عندما ذهب بها في الرحلات التنزهية في أوائل أيام شهر العسل، وافق على استخدام السيارة على مضض، وبعد إلحاح شديد.

كل هذه الأمور لم تأخذها آمنة على محمل الجد، حيث علمت أنها ستكون تدريجياً على ما يرام. ولكن ما السبب وراء رغبته المفاجأة في رؤية جمال؟ هذا ما لم تستطع آمنة فهمه. ما أخفت عن أهل العريس شيئاً قبل الزواج، بل أخبرتهم كل شيء بصراحة، ولم يتحدث أحد منهم شيئاً عن جمال، طوال كل هذه الأيام التي مرت على الزواج. وقالت منيرة أيضاً إن زوجها لا يسألها شيئاً عن والدها. إذن ما سبب هذا التغيير فجأة؟ ما الذي سيقول له جمال إذا لقيه؟

شعرت آمنة بأن قواها تنهار وانتابها ضعف شديد.. وضعت رأسها على الطاولة. فاضت عيناها بالدموع؛ حين رأتها منيرة سألتها:

-"ماذا بك يا أمي، أنت بخير؟"

-"لا شيء يا بنيتي. لماذا يتصرف زوجك اليوم بغرابة؟"

-"تعين مؤخراً رجل من قرية بابا زميلاً له في كليته. قال لي إنه أخبره أشياء عنك أمي".

-"يا إلهي، ما هذا الذي أسمعه...!؟"

بكت بصوت عال.

-"البارحة زجرني وقال لي لا تطمعي أن نسكن في بيتك بشكل دائم."

-"لا تقلقي، عزيزتي. لقد اعتادت أمك على سماع كل هذا. لا تأخذي الأمر على محمل الجد حتى تتأثري به، حبيبتي.."

-"أمي، لا تزعجي نفسك بأفكار سوداء، وسينسى كل شيء بيومين."

بردت كلمات ابنتها قلبها المحترق إلى حد كبير.. ظلت جالسة في مكانها لوقت طويل حتى بعد مغادرة منيرة، ولم تنتبه أن الخادمة بياثوتي ظلت واقفة عندها.

-"ما هذه الجلسة يا سيدتي؟ ما أكلت شيئًا حتى الآن ولا تبشر عنك ملامح وجهك"

قالت لها الخادمة وأجبرتها على تناول كوب من الحليب. قامت آمنة بعد ذلك وذهبت إلى المطبخ، متذكرة أنه لو لم تقم بالإشراف على أعمال المطبخ، فلن تحسن الخادمات القيام بها على الوجه المطلوب.

سألت الخادمة آمنة:

-"قالت منيرة إنها ستذهب إلى بيت زوجها. هل سنرسلها خالية الوفاض، أليست لأول مرة تذهب لتقيم هناك؟"

-"هذا صحيح. كنت نسيت الأمر. ما رأيك لو نرسل بعض فطائر تشاتي باتيري؟"

-"فقط فطائر؟ أليس وحده عيباً؟"

-"حسناَ، حضري كل شيء ترينها مناسبة.. اطلبي من محمد إحضار أي شيء تحتاجينه."

رغم أن هناك عددا كبيرا من الخادمات وأنه لا يتعين عليها القيام بأي شيء، إلا أن آمنة لم تحصل خفة من الوقت حتى تستريح قليلاً. تضاعفت مسؤولياتها والتزاماتها بعد وفاة والدها.. إذا لم تبقِ عينيها وأذنيها مفتوحة، تراقب كل شيء وكل مكان في البيت، فستحدث محاولة سرقة أو خداع في كل شيء. لقد مرت في حياتها أيام قضتها يائسة عاجزة حين وجدت نفسها في طريق مسدود، أمضت ساعاتها على السرير طوال الوقت، كمخلوقة صامتة، لم تجف دموعها أبدًا.. عند ذلك أجبرها والدها، في محاولة لإنقاذ ابنته من تلك الحالة البائسة، على الذهاب معه إلى مكتب المزرعة، ليعلمها تدريجياً كل المهام والإجراءات.. وقد تحولت الآن تلك التجربة والخبرة مكتسبة منها إلى نعمة ساعدتها على إدارة كل شيء بمفردها دون الاعتماد على شخص آخر. ومن لها أن تعتمد عليه؟

لم تستطع آمنة حتى الآن التغلب على صدمة فراق والدها، على الرغم من مرور سنتين على رحيله.. ولا تكاد تفعل شيئا إلا وهي تتذكره..

عندما جاء عرض زواج منيرة، اعترضت أختها صفية وقالت:

-"ماذا دهاك يا آمنة؟ هل رأيت بيتهم؟ بيت صغير يشبه قفص الدجاج.. لم يعجب هذا العرض زوجي أبداً.. لو كان أبونا حياً، لما وافقك على قبوله"

-" لن يقف بابا ضد رغباتي."

-"افعلي ما تريدين! ولا تنسي أنت الشخص الذي سيواجه خيره وشره في النهاية، سواء كان خياراً جيدًا أم سيئًا.. أقول لك ما أقول حتى تسنح للناس فرصة ليسألوا فيما بعد، ألم تكن لها أخت كبيرة وزوجها ليرشداها لاتخاذ قرار سديد"

-" أختي، لا تقلقي. ستكون منيرة في بيتهم معززة مكرمة لا ينقصها شيء.. لأنهم أناس طيبون. وكل رجائي منك وزوجك الوقوف إلى جانبي وتقديم المشورات لإتمام هذا الزواج بنجاح".

-"سأبلغه ذلك. إذا كان لديك المال الكافي، فليس من الصعب إتمام الزواج.."

كلاهما ساعدا آمنة في إتمام ترتيبات ومراسم الزواج بأبهى صورة، وإن تسببا في مضاعفة التكاليف، حيث أنفقا عشرة لما يكفي له واحد.. رغم ذلك، شعرت آمنة بالارتياح والرضا، لأن الأمور كلها تمت على أحسن ما يرام، تماماً كما كانت تتمناه.

ألم تصل بها بلاياها إلى نهايتها؟ داهمتها الأفكار السوداء.. ولكنها لم تجد من الوقت ما تمضيه في التفكير عنها كثيراً حيث كانت وراءها واجبات والتزامات عديدة، هي نعمة وإسعاف لها في مثل هذه الأوقات.. في النهاية، ماذا ستجني من الاكتئاب وكثرة التفكير؟ كل شيء سيمضي في مجرى القضاء والقدر.

18

أول ما استيقظت منيرة وهي في بيت زوجها، مدت يدها تبحث عن زر الجرس، لتضغط عليه كعادتها في بيتها كل صباح، قبل أن تدخل إلى الحمام، حيث كانت إحدى الخادمات تحضر لها الشاي في غرفة نومها، قبل أن تخرج من الحمام بعد الاستحمام.. وفجأة استدركت منيرة وعيها بالمكان. أطلت عليها أشعة الشمس الساطعة من خلال النافذة المفتوحة.. نظرت إلى الساعة، كانت الساعة الثامنة.

انتفضت منيرة نازلة من السرير في عجلة من أمرها. أدركت أن زوجها قد استيقظ في وقت مبكر وغادر الغرفة.. ارتدت معطفها المنزلي فوق فستان الليل بلا أكمام. لا بد من الخروج من الغرفة لتنظيف الأسنان، حيث يقع الحمام على جانب غرفة الطعام، وكان ذلك أمراً غير مريح بالنسبة لها. لم تسكن في بيت زوجها بعد الزواج إلا ليلة واحدة، عادة تأتي مع زوجها في الصباح وترجع إلى بيتها قبل حلول الليل في كل مرة. ولذلك، لم تكن متعودة على قواعد الحياة في بيت زوجها.

دخلت إلى الحمام، ففوجئت بالحنفية الجافة.. احتارت منيرة ولم تدر كيف تتصرف.. رجعت مترددة إلى المطبخ، حيث وجدت حماتها مشغولة جداً بتحضير الفطور.. ولما رأتها واقفة بالباب، سألتها:

-"عزيزتي، إذا خلصت تنظيف أسنانك، اشربي الشاي، اسكبيه من الترمس على الطاولة".

-"عمتي، لا يوجد ماء في الحنفية."

-"آه، انقطع إمداد المياه أمس. محمد علي بجانب البئر، اذهبي إلى هناك".

نزلت إلى الحوش رافعة بيدها الطرف الأسفل لمعطفها المنزلي، وجدت زوجها محمد علي يسحب المياه من البئر ويملأ بها الأوعية، ووالده يسقي نباتات حديقة البيت. وكانت الأرض حول البئر قد تحولت إلى مستنقع من الأوحال الرخوة الكريهة.. شعرت منيرة بالتقزز ووقفت مترددة دون أن تذهب إلى حيث زوجها.. فقال لها حين رآها واقفة على البعد:

-"جميل! الآن يبدأ صباحك أيها "السيدة العظيمة"؟! تعالي بسرعة وساعديني في سحب المياه..

أحست منيرة أنه من دواعي النقص والخزي لها أن تقول له الآن أنها لا تعرف كيف تستخرج المياه يدوياً من الآبار.. لم تسبق لها تلك التجربة في بيتها الذي فيه بئران، يوجد المضخة الكهربائية في كل منهما، لتسحب المياه منهما وتملأ بها خزان المياه الكبير المرفوع، ولن تجف حنفيات حمامات بيتها.. وفي الحالة النادرة التي ينقطع فيها توصيل المياه، فكان كل ما عليها أن تصرخ من داخل الحمام: "يا محمد، شغل المحرك". لا تكتفي بذلك بل تقول له أيضاً ألفاظ التوبيخ والعتاب على نسيانه مهمة تشغيل

المحرك في وقتها حتى لا يفرغ الخزان وهي داخل الحمام.

-"اليوم سأقوم بسحب المياه من أجلك. لكن من الغد، يجب أن تستيقظي مبكرًا وأن تفعلي كل شيء بنفسك."

وأضاف محمد علي وهو يضع السطل الممتلئ بالماء في الحمام:

-"بسرعة أيتها الأميرة.. ألا تعرفين أن أمي وحدها تكدح في أعمال المطبخ؟ أليس عليك أن تتعلم منها تلك الأشغال يوما ما؟"

عندها جاءت أخته، جميلة، تقول لأخيها، وهي تحاول تلطيف الجو على منيرة:

-"أخي، لماذا تضغط عليها هكذا؟

ثم التفتت إلى منيرة، قائلة:

-"لا تقلقي. أنا هنا لمساعدة أمي في المطبخ. قومي بشؤونك فقط على راحتك.."

-"أفلا تذهبين إلى الكلية اليوم، ما عندك محاضرات اليوم؟"

-" كل يوم أذهب إلى الكلية فقط بعد ما خلصت كل هذه الأعمال.. بالمناسبة، لا تنس يا أخي أن توصلني إلى الكلية على دراجتك وأنت خارج".

-"أوه، الآن انكشف الأمر..! ولهذا عرضت تطوعك بدعم أمي ومساعدتها.. خلاص، خلصي كل شيء بسرعة"

أغاظته جميلة باصطناع تعابير ساخرة على وجهها وهي تهرب نحو المطبخ.

دخلت منيرة إلى الحمام وأغلقت الباب، سرعان ما اغرورقت عيناها بالدموع حينما اختلت مع نفسها. كانت أرضية الحمام خرسانية خشنة، لا يوجد داخله حتى حوض غسيل. عندما بصقت، ارتدت إلى قدميها رشاش البصاق المتطاير.. تذكرت حينها حمام غرفتها في بيتها، حمام مرصوف بالرخام الغالي مع حوض الغسيل والاستحمام وكافة التسهيلات المستلزمة المتناسقة مع التصميم الداخلي لوناً وشكلاً. شعرت بامتعاض تجاه والدتها، التي لم تكلف نفسها أن تحضر إلى هذا البيت وتتفقد أحواله وأوضاعه قبل إتمام عقد الزواج.. ياريت لو كان جدي على قيد الحياة.." من اليوم، سأضطر للإقامة هنا بشكل دائم". ارتجفت لفكرة التكيف والتأقلم مع أنماط الحياة في ذلك البيت. ما انتبهت كم مضى من الوقت وهي واقفة داخل الحمام، غارقة في أفكار شاردة.. كانت الشمس قد ارتفعت، وقد فات الوقت للاستحمام وأداء صلاة الفجر. تبلل ثوبها بالكامل خلال تنظيف أسنانها بالفرشاة. وحين خرجت، وجدت زوجها عند الباب بانتظارها.

-"مرحباً بالمحترمة!، هل نسيت أن في بيتنا حماما واحدا فقط، ويستخدمه غيرك أيضاً؟"

توجهت منيرة إلى غرفتها دون أن ترد على زوجها وأغلقت الباب من الداخل. خلعت ثوب النوم، وارتدت البيجاما من

القطن، سرحت شعرها وعقصته بشكل جيد.

عندما وصلت إلى غرفة الطعام، وجدت جميلة بانتظارها، تحمل كوباً من الشاي لتقدمه لها. أخذته منها وشربت رشفة منه، كان جيد المذاق. كانت قد اعتادت أن تشرب كوباً من الشاي جيد المذاق في أول صباحها، ودونه، يفسد يومها كله. وحينما كانت في بيتها، تتوجه بعد شرب الشاي مباشرة إلى واجهة البيت، حيث تجلس على الكرسي، تقرأ جريدة الأخبار، دون أن تتدخل إلى شؤون المطبخ ولو بإلقاء نظرة عابرة.. ولم تكن تأتي لتناول الطعام إلا عقب نداءات متكررة من أمها أو خادمتها بيياتو. وعندما تصل إلى الطاولة، تكون بيياتو تنتظر وصولها بعد أن جهزت كل شيء فوق الطاولة، وتجبرها على أكل كل لون من الألوان التي حضرتها.. وإذا رفضت منيرة أكل أي شيء، تنادي الخادمة أمها نداء طويلاً وتخبرها:

-"سيدتي، الابنة الكبيرة لا تأكل أي شيء".

إذا لم تكن أمها في مزاج جيد، يصبح التوبيخ مؤكدًا. خوفًا من ذلك، تتناول منيرة كل شيء موضوع فوق الطاولة، سواء أعجبها أم لا.. في بعض الأحيان، ترمي بعض الأطعمة أسفل الطاولة دون أن تلاحظها الخادمة. ولكن هنا في بيت زوجها، كيف يكون من المناسب الجلوس في واجهة البيت لقراءة الجريدة، بينما تكدح حماتها وأخت زوجها في أعمال المطبخ.

سألت منيرة حماتها:

-"هل أساعدك في شيء عمتي؟"

-"لقد انتهيت. وكل شيء جاهز، اذهبي واستحمي، يا حبيبتي."

متذكرة أنها ستضطر إلى سحب المياه من البئر بنفسها، أجابت منيرة:

-"سأستحم لاحقًا. ألا توجد في هذه المنطقة خادمات لمساعدتك؟"

وما إن خرج السؤال من فمها حتى تأسفت على مرارته وعدم ملاءمته بالموقف.

-"نعم، الخادمات موجودة لكنني لا أوظف أحداً لمساعدتي، طالما أستطيع القيام بنفسي بأعمال بيتي، تعودت على القيام بأعمال المطبخ والبيت منذ الطفولة، والآن لدي ابنتي جميلة أيضاً لمساعدتي. لكنني مع ذلك قد طلبت من فتاة الحضور من اليوم لغسل الملابس والأطباق"

ذهبت منيرة إلى غرفتها حين سمعت زوجها يناديها.. كان يغير لباسه بعد الاستحمام، قال لها:

-" ملأت لك السطول في الحمام بالماء، اذهبي واستحمي. لا داعي أن تستخرجي الماء من البئر اليوم، المشكلة هنا لا يمكننا الاعتماد على ماء الإمداد الحكومي.. ينقطع في أية لحظة دون أي إشارة ولا إشعار.. سنركب إن شاء الله مضخة كهربائية على بئرنا قريبًا، أرجو أن تتحملي مع الأوضاع لبضعة أيام حتى يتم ترتيبها. سنرتب كل شيء واحدًا تلو الآخر. "

وقفت منيرة صامتة دون أن تستطيع الرد عليه.

-" تشتاقين لأمك، صحيح؟"

أومأت برأسها بالموافقة.

-"فلنذهب هذا الأسبوع لمقابلة أبيك."

-"لن آتي معك. لا ينبغي أن تصدق ما سمعته عن أمي من سكان قرية بابا. لم أسمع شيئاً طيباً عن أمي من هؤلاء الناس، حتى في الأيام التي كانت أمي وأبي في علاقة جيدة.. أمي امرأة تعيسة الحظ.. مسكينة.. بكت كثيرًا عندما قلت لها أنك تود زيارة أبي، وهي لا تدري ماذا سيقول لك عنها أبي وجدتي.. البكاء وحده رفيق حياتها.. ولم تجف دموعها أبداً بعد وفاة جدي ولم تذق طعم الفرحة للحظة واحدة، عادت إلى وجهها ابتسامتها السعيدة فقط بعد ما تزوجتني وبدأت أن تسكن معنا في بيتنا.. والآن.. نحن أيضاً نسبب لها...؟؟".

ألجمتها الدموع المباغتة عن الكلام فتوقفت قبل أن تتمكن من إكمال حديثها. فجذبها إليه وضمها بين أحضانه ومسح دموعها وهو يهمس فى أذنها قائلا:

-"آسف عزيزتي. لم أقصد إيلامها.. كانت هذه مجرد كلمة انطلقت من لساني أمس ولم أكن أقصدها.. لا تحزني، أنت وأمك، لن تبكيا بسببي. وسنذهب إلى بيتك ونقيم مع أمك من حين لآخر."

-"تعالوا، الفطور جاهز."

لدى سماع نداء جميلة، ذهبوا إلى غرفة الطعام. كانت الأم تنتظرهما مجهزة على الطاولة خبز دوشا الأبيض ومرقة البيض والموز المسلوق وغيرها من الأطباق، وقامت الأم بتقديم الطعام للجميع بنفسها.

-"في بيتها، يحضرون أطباقاً مختلفة من الدجاج، للفطور والغداء والعشاء.. عندما أجلس على طاولة الطعام، يخيل إلي أن أنواعًا مختلفة من الديوك تقف في الأطباق متأهبة للعراك معي.. مرقة البيض مع جوز الهند التي تعدها أمي هي أحب إلي من الدجاج الكامل المشوي الذي يقدمونه لي في بيتها! كم لذيذ طعم هذه المرقة! "

جاءت الأم لإنقاذ منيرة:

-"اسكت يا محمد علي وكف عن مضايقتها...! اسمعي يا بنيتي منيرة، زوجك هذا يموت على الدجاج.. كلما سنحت له فرصة مواتية، يتخاصم مع أخته جميلة من أجل الحصول على ساق الدجاج، لا تتوقعي أنه كريم قنوع إلى درجة ما يتظاهر به أمامكم في بيتكم."

علقت جميلة قائلة:

-"الله، ربنا وحده ينقذ وجه أخي من هذه الفضيحة.. لقد انقلب السحر على الساحر.. كيف يحصل ذلك منك وأنت المعلم العظيم؟"

لم تتمالك منيرة نفسها من الضحك مع جميلة.

-"أسكتي.. وأنت عقلك في بطنك.. أمي، ألا ترحميني.. وقد فضحتني أمام هذه الفتاة الصغيرة.. كيف سأنظر إلى وجهها مجددًا؟"

-"لا تنظر إلى وجهها يا ولد...انظر إلى قدميها."

علق والده، الذي وصل إلى هناك بعد الاستحمام.

-"لماذا لا تأكلين شيئاً، منيرة؟"

منيرة، التي كانت غارقة في عالم أفكارها، رفعت رأسها عند سماع سؤال والد زوجها.

في ذلك الوقت، كان محمد علي وأخته قد غادرا الغرفة. غسلت منيرة يديها وجلست على السور القصير في الفناء. نزلت جميلة، تحمل كتبها الدراسية، عندها لاحظت منيرة زوجها مشغولاً بتنظيف دراجته النارية وتلميعها جالساً في الزاوية الأخرى من الفناء. سألها:

-"منيرة، ألا يمكنك أن تساعديني على الأقل في هذا العمل في الصباح؟"

تدخلت جميلة:

-"سأقوم لك بذلك أخي، ولكن بشرط واحد، أن توصلني عليها إلى الكلية، وأن تزيد السرعة حينما نقترب من بوابة الكلية بشكل يلفت كل زملائي ضجيج دراجتي..".

-"شكراً، لا أحتاج إلى خدمتك، سألمعها بنفسي، أيتها الفتاة صاحبة الدراجة! خلي بالك، لو كثر استعراضك وحركاتك، فسأزوجك

من أحد ما يوم غد! ثم لا تقولي إنني لم أحذرك سابقاً. ههههه..

ثم التفت إلى زوجته قائلاً:

- منيرة، ما لك أراك واجمة؟ دعينا نذهب لمشاهدة فيلم هذا المساء، ما رأيك؟ "

-"فكرة رائعة يا أخي، سآتي معكم أيضًا."

-"لا، سنذهب نحن الاثنين فقط."

-"مجرد ما تزوجت، صرت رجلاً عصرياً..! خلاص، وصلني الآن، لقد تأخرنا، مع السلامة أختي منيرة..".

لوح كل منهما لمنيرة وانطلقا.

تمشت منيرة حول البيت بلا هدف. كانت الحديقة، رغم صغر حجمها، جميلة ومنتظمة زاخرة بأنواع مختلفة من الأزهار.

-" بنيتي منيرة، أنا ذاهب إلى السوق. هل تريدينني أن أشتري لك شيئاً؟"

وقفت منيرة مندهشة لسماع سؤال والد زوجها.. أبوه يذهب بنفسه إلى السوق حاملا كيساً بيده، لشراء السمك واللحوم وغيرهما!

-"هل تريدين شيئاً بنيتي؟"

عندما كرر سؤاله، هزت رأسها بالنفي.

-"لماذا تتمشين في الخارج تحت هذه الشمس الكاوية؟ صار الوقت الساعة الثانية عشرة. ألا تستحمين؟"

سألتها حماتها فذهبت إلى الداخل. وبعد الغداء، همت أن تأخذ الصحن الذي أكلت منه لتغسله، فمنعتها حماتها قائلة:

-"اتركيه هناك. ستغسله الخادمة."

شعرت بالارتياح، لأنها لم تغسل أبداً الطبق الذي أكلت منه.. تشعر بالتقزز حين تتخيل نفسها تغسله.. ذهبت إلى غرفتها واستلقت على السرير. أحست أن فراش القطن ليس ليناً بما فيه الكفاية، كفراش دانلوب الذي اعتادت أن تنام عليه في بيتها.. تذكرت أمها ونصيرة واشتاقت كثيرا للقائهما حالاً. استلقت مغمضة العينين، في محاولة لمقاومة نيران الشوق والفراق التي تحرق صدرها.

-"انظري من القادم، بنيتي".

ناداها والد زوجها من واجهة البيت.. ذهبت إلى الباب.. فإذا بأمها تنزل من السيارة وتطلب من الخادم محمد كوتي تنزيل الأغراض من سيارتهم. جاءت نصيرة تركض.. أمسكت يدي منيرة تصافحها بقوة.. اغرورقت عيناها بدموع الفرح لرؤية أمها وأختها. امتلأ الممر الأمامي بعناقيد الموز وعدد من الشوالات والحاويات الفولاذية المليئة بالمواد الغذائية المختلفة. هرولت منيرة إلى الفناء ووجهها يتهلل فرحاً وسروراً.. أمسكت بيد أمها وقادتها إلى الداخل.. حينها سمعت صوت الدراجة عند البوابة.

-"ما كل هذه الأشياء التي جئتم بها يا عمتي؟ هل تريدين صهرك أن يفتتح بقالة!؟

19

أثناء تنظيف الغرفة سقطت دمية إيطالية الصنع غالية الثمن من يد الخادمة وتكسرت إلى أشلاء، وبختها آمنة وهي تقرص أذنها بقوة:

-" بمجرد ما رأيتك تنظفينها، كنت أخاف أنك ستدمرينها.. انظري ماذا فعلت يداك الآن، لقد حطمتها قطعاً صغيرة. اغربي عن وجهي يا بنت الحرام.. لا تنظفي ولا تفعلي أي شيء..بس نظفي الحمام، لا تصلحين لغيره."

رغم أن غرفة منيرة مجهزة ومؤثثة حديثاً بأرقى الأدوات وأكثرها فخامة، إلا أنها أصبحت تفوح منها رائحة قديمة.. لم تكن آمنة تتوقع أن تتحول الأوضاع هكذا. كانت واثقة عندما قامت بتجهيز غرفة ابنتها العروس، أن الزوجين سيسكنان هنا بشكل دائم وتمنت أن توكل إلى صهرها مسؤوليات المنزل ويصير رب البيت مع الأيام.. كان استياؤها مراً وشديداً حين انتقلت منيرة وزوجها إلى بيته..

كانت غرفة منيرة متروكة في حالة عشوائية غارقة في الغبار. امتلأت آمنة حماساً بعدما اتصلت بها منيرة وأخبرت أنها ستأتي مع زوجها للإقامة مع أمها لعدة أيام.. لم تطمئن أن تترك الخدم يقومون

بأعمال التنظيف والتجهيز لوحدهم، بل قامت بنفسها بالإشراف على كل شيء بكل عناية وتفصيل.. رغم ذلك كله، كسرت إحداهن تلك الدمية النفيسة التي كانت تحبها منيرة كثيراً، ستتضايق بالتأكيد حين تعلم بأنها مكسرة.

بعد أن غادرت منيرة، أصبحت الغرفة شبه مهجورة، نادرا ما دخلها أحد. بهتت ألوان ستائر النافذة، لا بد من تغييرها.

وأثناء التنظيف، لم تزل آمنة تستعجل من الخدم على إنجاز العمل:

-"محمد، إذا انتهيت من إزالة خيوط العنكبوت، غير ستائر النوافذ.

وأضافت، مخاطبة الجميع:

- أسرعوا! أتريدون قضاء هذا اليوم كله داخل هذه الغرفة؟! فمن سيعتني بأعمال المطبخ؟"

فتحت دولاب منيرة.. غلف الغبار على أكوام ساريهاتها الحريرية وملابسها الأخرى المرصوصة فيها.. أخرجتها واحدة تلو أخرى ونفضت الغبار عنها. وكثير منها لم يتم استخدامها أبداً، فنادراً ما تأتي منيرة إلى بيتها، إلى جانب ذلك، هي تفضل في أغلب الوقت أن ترتدي الساريهات والبنجابيات القطنية، وتأخذ معها عند العودة إلى بيت زوجها كل ملابسها المفضلة..

في البداية كانت منيرة تتذمر عن عدم وجود التسهيلات الحديثة

في بيت زوجها وتشتكي من مضايقتها من الحياة الضيقة في ذلك البيت.. ولكن، مع مرور الوقت، أشرق وجهها وتهلل رضاً وسروراً وأصبحت شهيتها للكلام تنفتح كلما بدأت حديثها عن طيب زوجها وأهله.

كانت حاملا في الشهر الثاني.. أجبرتها حماتها للذهاب إلى بيتها نظراً لراحتها نفسياً وبدنياً، عندما رأتها تتقيأ وتفقد الرغبة في الطعام.. غمرت آمنة بالسعادة وامتلأت عيونها بعبرات السرور حين علمت أنها ستكون جدة عن قريب!

ذهب محمد علي، زوج منيرة لمقابلة والد زوجته. ولما عاد من عنده، علق قائلاً:

-" ما كان ينبغي أن يترك والد منيرة لحاله هناك."

ردت آمنة:

-"لقد صبرت ولدي إلى أقصى الحدود، ألست أيضاً مجرد امرأة عادية في النهاية؟ لست جنية أو ساحرة.. لقد تحملت ما لا أطيق تحمله.. لكنه ما زال يتمادى حتى نفد صبري.. لقد كان هذا قدري".

أخبرها بتفاصيل الزيارة.. قام بزيارته في الحقيقة في محاولة لجمع شمل والدي منيرة.. رن الجرس عدة مرات.. فتح الباب فتى بعد وقت من الانتظار.. لم يعرف الفتى من الزائر، فطلب منه الذهاب إلى المكتب، إن كان يريد لقاء جمال.

-"هل عرفك وأنت زوج ابنته؟ كانت منيرة قد أرسلت له صور زفافكما."

-"لم يعرفني أولاً، فعرفت بنفسي.. ثم غمرني بحفاوة الاستقبال وكريم الضيافة".

ثم قال لي وهو يشير إلى كأس الخمر الذي تمسكه يده الأخرى:

-"منذ أن تركتني آمنة، هذا مصدر هدوئي وراحتي الوحيد".

-"يبدو أنني أتيتك في وقت غير مناسب.. دعني أمر عليك في وقت آخر."

حاول محمد علي أن يترخص آملاً الانسحاب من عنده وهو في تلك الحالة، لكن جمال لم يسمح له بالذهاب.

-"لن أدعك ترجع هكذا يا نسيبي وأنت تزورني لأول مرة! لازم تتغدى عندي اليوم...

ثم رفع صوته ينادي خادمه:

- من هناك؟ تعال هنا يا عبد القادر..

-"الآن لا يوجد أحد في البيت لتحضير الغداء؟ سآتي مع منيرة يوماً آخر"

قام محمد علي مستأذناً للخروج، فأمسك جمال بيده وأخذ يتذمره من أوضاعه ومشاكله، وهو بين الشاكي والباكي. بدا مستاءً ومشدود الملامح حتى حينما تحدث عن أخباره العادية..

لم يكن على وعيه التام وهو يلتقي بصهره لأول مرة..! تمادى في ارتكاب الخطايا دون التفكير في عواقبها، دعه يعاني اليوم من جزاء أفعاله كما يستحق. لقد استحملت معه زيادة عن اللزوم وعشت سنوات طويلة، أرزح تحت الذل والإهانة.. كنت أحرص ستر أخطائه ومواطن ضعفه عن أعين الناس.. والآن هو يختلق قصصاً عن عيوبي ومساوئ خلقي ويسردها لكل من هب ودب دون أي استثناء – تساءلت آمنة وكاد الهم يقتلها. مع ذلك كله، تتضايق في داخلها حتى اليوم إذا سمعت أحدا يتحدث عنه بسوء..

كبرت الطفلتان وهما تريان دموع والدتهما منذ نعومة أظفارهما، مما منح لكل منهما نضوجاً فكرياً وسلوكياً بقدر ما يفوق عمرهما..

لم تجد منيرة صعوبة كثيرة في التأقلم مع مستوى حياة المتوسط في بيت زوجها. وهي، التي لم تكن معتادة على القيام بالواجبات المنزلية العادية، أصبحت الآن تجيد تحضير أصناف من الطعام. يوم كانت في بيتها، لم تكن تأخذ بيدها كوباً من الماء لتشربه، دون الاعتماد على الخادمات.

-"أمي، لا تربي نصيرة على التدليل كما ربيتني.. يجب أن تعلميها الطبخ. لا نفقد شيئًا إذا قمنا بأنفسنا بأعمال بيتنا"

لم تصدق آمنة أذنيها عندما سمعت تلك الكلمات من منيرة. لم تعتبر أبداً من العيب أن يقوم المرأ بأداء مسؤولياته المنزلية.. ولم تفكر أن ذلك سيقلل من شأن المرأة وتمس بكرامتها. مشكلتها أنها اعتادت منذ طفولتها وجود عدد كبير من الخدم في بيتها، فلم تكن

أبداً في الحاجة إلى القيام بأي شيء بنفسها. واليوم، أصبحت لا تقدر على القيام بأي شيء، حتى لو أرادت ذلك. لم يكن هناك صعوبة في الحصول على الخدم في تلك الأيام التي كان فيها قليل من الناس يجدون ما يشبعهم مرة واحدة في اليوم. فكان مغرياً بالنسبة لهم أن يحصلوا على ثلاث وجبات يوميًا، وملابس جديدة في العيدين، وهدايا ذهبية عند تزويج البنات، بالإضافة إلى المساعدة المالية لتغطية نفقات الزواج، فاعتبروا العمل كخادم منزلي نعمة لهم.

واليوم، لقد تغير العصر كثيرا، إلا أن آمنة تأخرت عن مواكبة العصر. تعيش حياة هادئة منضبطة قدر الإمكان، حرصاً على عدم إثارة أنظار الناس وألسنتهم. ومع ذلك، لا يستحي بعض أراذل الناس من التقول واختلاق الشائعات حولها، المرأة الوحيدة دون رجل يحميها، تكون ضحية سهلة لأنياب ذلك النوع من الناس، حيث يفرض مجتمعنا افتقار المرأة، مهما كانت قوية معتمدة على ذاتها، إلى رجل يكون معها، مهما كان سيئاً وضعيفاً وعديم الفائدة.. ولكن الأوان قد فاتت عندما أدركت آمنة تلك الحقيقة.

أقامت آمنة زفاف منيرة وفقًا لرغباتها رغم المعارضة الشديدة الكثيرة التي واجهتها! في بادئ الأمر كثيراً ما تساءلت عما إذا كان قرارها خاطئاً أم صحيحاً بشأن اختيار ذلك الشاب، محمد علي الذي تقدم بطلب يد كريمتها، إلا أنها الآن مقتنعة لأنها موفقة في القرار الذي اتخذته. لم يُظهر أهل محمد علي أي اهتمام في ثروة أهل

منيرة وأموالهم، ولم يُلقِ إلى هذا الجانب ولا نظرة. كانت آمنة تأمل عند تزويج منيرة أن يتولى زوجها مسؤولية إدارة أموالها وممتلكاتها.

كان بنيتها عقد زواج ابنتها الثانية نصيرة أيضاً في غضون سنتين أو ثلاث سنوات. أرادت أن تدخلها إلى الكلية الجامعية بعد اجتيازها الصف العاشر الثانوي، وتتركها تواصل دراساتها على الأقل لسنتين، لعل ذلك يتيح لنصيرة فرصة للتعايش مع الناس والاطلاع على العالم خارج بيتها. لم تكن منيرة متفوقة في دراساتها.. رسبت حتى في امتحان الصف العاشر. أما نصيرة فهي فتاة تهتم بدراساتها وتحرز نتائج جيدة في امتحاناتها. تقول إنها تريد أن تصبح طبيبة. كما أنها تتمتع بشخصية قوية، بحيث لم يكن من السهل اتخاذ قرار يمس حياتها دون موافقتها الكاملة. لم تكن بطبيعتها تطيع لكل أوامر والدتها طاعة عمياء، على خلاف أختها منيرة؛ بل تكون لها وجهة نظرها الخاصة في كل موضوع يخصها. وهي كذلك فتاة منطوية على نفسها، لا تتصادق مع الآخرين بسهولة بل تحرت خصالاً محددة فيمن تتصادق معها.. لم تكن تهتم بمظهرها الخارجي فوق الكفاية ولم ترغب في التأنق والتزين بملابس ومجوهرات باهظة الثمن. تتخذ دائماً موقفاً معارضاً ضد العادات والأعراف السلبية وتنتقد أمها أنها تنفق الأموال ببذخ وإسراف.. تجهمت وأبدت اعتراضها حتى حين رأت الفساتين والملابس التي تم شراؤها يوم زفاف منيرة:

-"لماذا تشتري أمي أشياء كثيرة دون داع وفوق الكفاية؟"

-"ما لك بنيتي؟ أليس هذا حفل زفاف أختك؟ سيحضره الكثير من المدعوين، ألا ينبغي أن نهتم بمظهرنا ومكانتنا في مثل هذه المناسبات؟"

-"لن يسامحنا الخالق سبحانه إذا أنفقنا المال من أجل أن نتباهى أمام الآخرين. نحن مسؤولون أمامه عن كل روبية ننفقها دون حاجة."

غضبت آمنة لدى سماع ذلك. فتاة صغيرة صغر خنصرها تحاضر عليها عن العدالة والاقتصاد! كيف يعيش المرء لو تصدق كل ما يملكه؟ بالنسبة لآمنة، ليس لها حتى دعم رجل يكسب لها المال ويؤمن لها حياة كريمة، ألا يتعين عليها الحفاظ على ما تورثت من أجدادها..؟ أبو عيالها رحل عنها وعيالها باحثاً عن ملذات الحياة وبهجته وأنسه.. مع ذلك، لم تضطر آمنة لمد يدها أمام الناس، فقط بفضل أن والدها ترك لها من أمواله ما يضمن لهم وسائل الحياة.. وهل ستفهم هذه الأشياء طفلة مثل نصيرة، لم تبلغ بعد سناً يتعرف فيه على سنة الحياة وقواعدها العملية.. ما الذي جعلتها كذلك وهي لا تزال في بواكير سنوات عمرها؟ تقرأ دائماً كتباً فكرية لا تناسب مع عمرها.. تقضي في القراءة معظم أوقاتها داخل غرفتها المغلقة..

كانت آمنة أيضاً تود تخفيض مستوى الرفاهية التي تسير عليه حياتها.. لكن كيف يمكنها التوقف فجأة عن نمط حياتها التي تعودت عليه منذ الطفولة؟ هي ناوية أن تحج بعد إتمام زفاف

نصيرة.. ونوت أيضاً تخصيص بعض مالها للتبرع والتصدق.. وهل يكون في وسعها أكثر من ذلك كما تقوله نصيرة؟ هل يمكنها التصدق بكل أموالها ثم تتجول بين الناس رجاء في إحسانهم ومساعدتهم. يتحين الناس فرصة ليضحكوا منها وينتظرون وقوعها في مشكلة وإصابتها نكسة، ليشمتوا عليها.

لا تسمع الآن صوتاً من غرفة منيرة، لا بد أن الخدم انتهوا من تنظيفها ثم غادروها. سارحة في الأفكار، لم تشعر آمنة بمرور الوقت. بينما كانت تنزل الدرج إلى الطابق السفلي بعد إغلاق الغرفة، سمعت رنين الهاتف. كان محمد قد رد على المكالمة قبل أن تصل آمنة إلى الهاتف، فسألته:

-"من المتصل؟"

-"مكالمة من مدرسة نصيرة..."

أعطيني التليفون.

-"مرحباً، من معي؟ مديرة المدرسة!؟... نصيرة أغميت عليها!!؟ نُقلت إلى مستشفى كلية الطب...؟ يا إلهي... ماذا ألم بابنتي..."

20

سمع جمال صوت سيارة وقفت في فناء البيت؟ من الواصل يا آمنة...؟"

نهض جمال ونظر إلى الفناء من النافذة. كانت السماء تمطر بقوة وغزارة، تتطاير الماء إلى الغرفة من خلال النافذة. ارتطمت النافذة بالحائط بفعل الرياح القوية وصار صوت صرير الريح يبعثر الروح، تحطم زجاج النافذة وتناثرت أشلاؤها في كل الاتجاهات، وكأن كل شيء ينهار حوله. نادى جمال بصوت عالٍ:

-"عبد القادر، أين أنت يا وغد..."

لم تجد نداءاته من يصغي إليها. حاول إغلاق النافذة ولكن الريح كانت تسحبها للخلف. كان الظلام دامسًا في الخارج، والريح العاتية تؤرجح الأشجار الشامخة.. لمع البرق، فتراجع جمال في خوف. كسر فرع ضخم لشجرة المانجو بالقرب من البيت وسقط مُحدثاً صوتاً مرعباً. ارتعد خوفاً من الرعد الذي دوى صوته في أرجاء الكون:

- "عبد القادر!! يختفي الولد وأنا أحوج ما أكون إليه..!".

نادى جمال خادمه مرة أخرى ولكن لم يكن هناك جواب. مشى

إلى الغرفة الداخلية، فجأة سقطت على وجهه المياه!

- "من هذا الذي يجترئ أن يسكب الماء في وجهي؟؟!

تلفت حوله، لم يكن هناك أحد. نظر إلى الأعلى، فرأى المياه تتسرب من خلال عوارض السقف. ما هذا الكائن الملتف حول العوارض الخشبية؟ ليس واحد أو اثنين.. عدد هائل من الثعابين تعلق من السقف، تفح في وجهه فحيحاً! ما هذا يا ربي؟ كسر فقط واحد أو اثنين من القرميد.. كيف تدخل من خلالها جميع الثعابين التي تعيش في البيئة المحيطة؟

وكم مرة طلب من حمزة تبديل القرميد المكسور! ولكن كيف يكون لديه الوقت لذلك، وقد أصبح هو السيد وأنا الخادم..! تساءل جمال. وقد أصبح حمزة لا يحضر أبداً إذا استدعاه جمال.. ولما يئس من الانتظار، خرج جمال قاصداً بيت خادمه حمزة.. ولما وصل أمام بيته، وقف لحظة مذهولًا من فخامة بيته المتكون من الطابقين، ذو سقف مفروش بالقرميد، وأرضية الفناء خرسانية.. ثمة حديقة جميلة على الجهة الواحدة.. تقف سيارة في موقفها المخصص أمام البيت.. يتحدث أحد ما في الداخل بصوت عال مسموع إلى الخارج.. صعد جمال أدراج الواجهة الأمامية وناداه:

-"حمزة.. يا حمزة..."

لم يجب عليه أحد، فدخل إلى الداخل، حيث وجد رجلين يتناولان الشاي، أحدهما حمزة الذي يستريح غائصاً في كرسي الاستراحة واضعاً إحدى رجليه فوق الأخرى، يتحدث مع صاحبه

ووجهه يحمل ملامح أمير الأمراء. وقد أصبح جسمه ممتلئاً مترهلاً.. خاطبه جمال:

-منذ متى أصبحت أنت السيد وأنا خادمك؟ وقد بلغ الأمر إلى أن تهملني إذا ناديتك أو أرسلت إليك؟ "

امتقع لون وجه حمزة وتميز شحوباً وارتباكاً. ثم صاح قائلاً:

-"ألم تر زر الجرس خارج البيت؟ إذا ضغطت عليه، فيخرج إليك من في الداخل، تقول له ما جاء بك.. بدلاً من ذلك، كيف تقتحم إلى البيت هكذا دون استئذان؟"

-"متى رأت عيناك شيئاً اسمه الجرس لأول مرة، ها؟ جرسك في ستين داهية!"

دمدم حمزة قائلاً:

-"والله، هذا صار بلاء أزرق! إذا أفقدت صوابك، فالجأ إلى بيتك! لا تقتحم بيوت الناس!"

-"أبوك من فقد صوابه. هل تعرف مع من تتحدث يا حقير؟"

أمسك به جمال من عنقه وضربه ضربة قوية. جاء أشخاص مهرولين وباعدوا بينهما قبل أن يتفاقم الشجار.. أعوانك أنقذوك، وإلا لكسرت عظامك، هدد جمال.

فصرخ حمزة في وجهه قائلاً:

-"اقتحمت بيتي ثم تظهر وقاحتك علي؟ يبدو أنك لا تعرف حقاً من هو حمزة...!"

-" بل أعرفك أنت وأعرف أباك.. أبناء الكلب التي كبرت وسمنت على فضلات الطعام من عائلة كيريادان!! لست شيئاً أكثر من ذلك يا ابن الحرام.. الوغد الخبيث.. ومتى صرت خلال ذلك سيداً؟؟!"

-"لا تستفزني أكثر حتى لا أوسعك ضربا..."

-"هل لديك الجرأة لتلمسني؟ إذا أرني جرأتك! لا تفعل شيئاً تندم عليه حتماً لاحقاً.. من تظن أنت أيها الثري السارق النصاب! كلمة أخرى وأحطم أسنانك وحنجرتك أفهمت؟"

جاء الرجال الموجودون وأوقفوهما. لم يقف جمال هناك بعد ذلك.. ولم يتذكر كيف وصل إلى بيته، كان منهوك القوى جسدياً ونفسياً، هاجمه الشعور العارم بالوحدة. أنب جمال نفسه في داخله.. لقد أصبحت مخلوقاً لا يصلح لشيء.. ولا يحبك أحد.. ولا يحتاج إليك أحد..

مرت في حياته مرحلة امتلك فيها كل شيء، الأصدقاء كثيرون لن يتغيبون من حوله.. جماعة من خدم يظلون ماثلين أمامه منتظرين أوامره.. كان ينفق المال ببذخ دون عمل الحساب للغد.. بل نسي ذلك خلال سعيه المتواصل وراء الملذات.. "المال لينفق منه.. يأتي المزيد قدر ما ينفق، وليس المال ليغلق عليه في الصندوق ويحرس عليه طول الحياة؛ تلك هي فلسفته عن المال والإنفاق. كيف لا وأبوه توفي تاركاً وراءه من المال ما يعيش عليه جيلان قادمان عيشة رغدة مترفة.. وهذا بالإضافة إلى ثروات زوجته آمنة التي لا تحصى

ولا تعد.. وما الذي يدعوه إلى البخل والاقتصاد في الإنفاق؟ فلا هم له في الحياة سوى السعي وراء ملذات الحياة وأطايبها..

ولم ينتبه تلك الأثناء أنه بدأ يفقد البساط من تحت قدميه.. وكانت الأوان قد فاتت عندما عاد إلى وعيه وأدرك الحقائق.. عندها، لم يكن يدري ما هي الممتلكات التي تبقى تحت ملكيته، لأنه كان قد أعطى حمزة توكيلاً مفتوحاً، يخوله بالتصرف في كافة أمواله.. والآن، ليس متأكداً هل أبقى له خادمه شيئاً من أمواله.. وليس لديه أحد موثوق به يناقشه ويستشيره في الموضوع.. لا أحد.. يا ريت لو كانت آمنة معه..

تساءل جمال متردداً ماذا لو اتصلت بها الآن؟ ألا ستسمح لي بالدخول إلى بيتها لو ذهبت هناك؟ بعدما فارقته آمنة، بدأ يفقد كل ممتلكاته واحداً تلو آخر.. أصبح مصدر دخله الرئيسي هذه الأيام منحصراً على إيجار العمارات التجارية التي كان اشتراها على إصرار آمنة. ولم يعد متأكداً من ملكية شيء من ممتلكاته، ما عدا بيته هذا والمزرعة المجاورة له.. أين باقي أمواله؟ كيف فقدها كلها مرة واحدة؟

لما توقف المطر، ساد السكون أرجاء المكان، واستحوذ على المكان صمت عميق، ولا يكسره سوى صوت تساقط قطرات المطر العالقة على أوراق الأشجار، واحدة بعد واحدة، من فرع هنا وفرع هناك..

شعر جمال بالبرد القارس، تضافر ذلك في الهجوم عليه مع الصداع الشديد الذي كان يعاني منه. رفع صوته ينادي الخادم:

-"يا عبد القادر، تعال هنا".

ظهر عبد القادر بالباب كما لو نبت فجأة من تحت الأرض.

-" لماذا تصرخ هكذا سيدي؟"

-"أفعل ما أشاء.. وكيفما أشاء.. كل ما أشاء.. من أنت لتستجوبني؟"

-"لا يهمني ما ألم بك.. لكن الناس يتقولون عنك هذا وذاك... "

-" يا حيوان كف عن الثرثرة، واذهب إلى المحامي واطلب منه الحضور"

-"أي محامي؟"

-"المحامي كونجيراما مينون. إنه رجل مخلص. ليس مثلك ومثل ذلك الماكر المحنك."

-"لماذا ذهبت إلى بيته في الصباح الباكر وأثرت ضجة تصعق آذان الآخرين؟ يبدو أنه مغتاظ جدًا..."

-"اخرس يا حيوان. هل سيلتهمني حمزة إذا اغتاظ؟"

-"أنت لا تعرف من هو الآن، لم يعد خادمك القديم؟"

-"هل ستغرب عن وجهي؟ اذهب واطلب من المحامي المجيء فوراً."

غادر عبد القادر المكان وهو يتمتم بالشتائم.

على الرغم من رده المتعجرف على عبد القادر، إلا أن جمال كان قلقاً في داخله.. بدأ يمشي في الغرفة مضطرب البال بلا هدف.. يعلم أن حمزة إنسان وقح شرير سافل، لن يتردد أن يستهتر بأي شيء.. لا يُتوقع منه أن يدع جمال يمر مر الكرام، بعد أن ضربه وشتمه أمام أعوانه. خيل إلى جمال فجأة أن أحداً يلاحقه.. أسرع في مشيه، التفت إلى الوراء، لم يكن خلفه سوى ظله! لا، لا بد أن هناك شخصا ما يتبعه على غير مرأى منه..

فكر جمال أنه ما كان ينبغي أن يرسل عبد القادر إلى الخارج، لا بد أنه لم يغادر، إنما يخرج من الباب الأمامي ويدخل إلى المطبخ من الباب الخلفي، سيكون الآن جالساً في المطبخ. فكر أن يناديه مرة أخرى، ثم امتنع ذلك عن نفسه خشية أن يسمع منه ما يثيره أكثر، فيتميز غيظاً مرة أخرى..

قرر جمال الذهاب إلى غرفة النوم وإغلاق الباب على نفسه، لن يأتي أحد يطلبه هناك. ثم جر خطواته نحو الغرفة كفارس مهزوم.. ولما وصل إلى باب الغرفة، فإذا بشخص ضخم قائم أمامه، فصرخ جزعاً دون وعي وإرادة. سامعاً صراخه، جاء عبد القادر يركض، سأله:

-"ماذا حدث؟ لماذا صرخت؟"

-"يقف هنالك شخص ما..."

-"أين؟"

-"أمامي.. لقد كان هنا بباب غرفتي قبل قليل.. هل غادر؟ فتش كل مكان وتأكد..!".

غطى عبد القادر وجهه بكفه يخفي ضحكة أبت إلا أن تفلت منه.. فلما رأى ذلك، اشتعل جمال غضباً.. شعر برغبة شديدة في أن يمطر عليه بالشتائم، لكنه سيطر على لسانه، خشية أن يرحل عنه عبد القادر أيضاً، فيكون بلا أحد يعينه ويخدمه.. كان جمال يفكر منذ فترة أن ينهي خدمته ويعين مكانه خادماً آخر، غير أن رغباته أصبحت لا تتحقق.. وماذا سيتحقق بدون المال؟ المال هو الذي ينقصه الآن..

"حمزة رجل ماكر محتال.. لا تثق به كثيرًا." كثيرا ما نبهته آمنة.. ولم يستمع إلى نصيحتها بل زعق بها وزجرها.. ما الفائدة من التحسّر الآن على ما مضى؟ أين يمكن أن يذهب للحصول على شيء من المال؟ ألا يمكن أن يطلبه من أمه؟ قرر جمال أن يمر على أمه راجياً ألا تخذله.. لكنه يعلم أنها أيضًا تواجه الآن نقص السيولة المالية، وأنها مريضة طريحة الفراش منذ أيام.. ندم أنه لم يقم بزيارتها والاستفسار عن حالتها الصحية حتى اليوم.

-"سيدي..."

ارتبك جمال لبرهة من سماع النداء المفاجئ، ثم استعاد ثباته وقال:

-"من؟ أوه، أنت الذي ناديت... طيب، ماذا تريد؟"

-"تناول هذا ثم حاول أن تنام.. ستشعر بخير عندما تستيقظ".

أفرغ جمال في فمه الكأس الذي قدمه له عبد القادر دفعة واحدة، الخمر القوي الذي تغطي سطحه رغوة.

-"هل من مزيد؟ أعطني كوبًا آخر. سأشتري لك ساعة غالية."

-"لست أبله أن أصدق وعدك.. على فكرة، هذا الكأس ليس مثل غيره، خلي بالك، لا تشرب منه الكثير إن لم ترد قتل نفسك"

-"أنت طيب وقلبك رحيم.. أعطني كمان شوي الله يخليك.. هل عندك شيء حار كطبق جانبي؟"

أحضر عبد القادر بطبق من مرق السمك الأحمر الحار.

-"أحضر لي الأرز أيضاً، خليني أخلص عشائي..".

ذهب عبد القادر إلى المطبخ.

لما أفرغ جمال كأسين من الخمر، تراءت له آمنة واقفة بين يديه.. فرك عينيه ونظر مرة أخرى، نعم، هي آمنة نفسها. عيناها واجمتان وممتلئتان بالدموع.

-"يا لها من حالة أنت فيها!"

-"هل تتذكرني؟ أما قلت لك لا ترجع إلى واياناد؟ لم تسمع كلامي.. استرح استراحة تامة حتى تعود صحتك، كل ما عليك أن تكون معي كرجلي الذي أستند عليه."

-"لا تتوقعي أن تجعلني عبداً يسكن في بيت زوجته، يفعل ما تأمرها."

رمى بالكأس على الأرض بقوة. جاء عبد القادر يتذمر:

-"بدأت هذيانك مجدداً؟ لقد كسرت الزجاج!."

-"دع كل شيء يتكسر وينهار.. دعها وشأنها... لا أريدها... أعطني عشائي.. أنا وحيد في هذه الدنيا دون أحد.. ولها الكل.. وكل شيء.. العيال، الأصهار، الثروات، المال والجاه... عبد القادر، أحضر لي كأساً آخر.. سأفرغ اليوم هذه الزجاجة... نعم، جمال وحيد ومنبوذ من الجميع..

-"كف عن الهذيان.. خفف على نفسك، لا تشرب المزيد."

-"أريد أن أشرب. لا أحب أي شخص يمنعني.. لا أدع أحداً يحكمني ويتسلط علي.. ألم يرن الهاتف يا ولد؟ أعطني السماعة.. من على الخط؟ آمنة؟ من؟ صهري؟ هل لي صهر!؟ هااا.. زوج "منيرة".. طيب، ماذا قلت؟ نصيرة في المستشفى؟ ما هذا الهراء الذي تقوله يا عبد القادر؟ أريد أن أذهب... أذهب حالاً إلى المستشفى... أين سيارتي..؟"

21

في غياب أختها نصيرة ووالدتها، بدا لمنيرة بيتها فارغاً مهجوراً، بعد أن كان يعج بالأنشطة والحركات.. يحكم السكون أرجاءه وزواياه، ما عدا المطبخ الذي دوت فيه جلبة الخادمات وضوضائهن.. لما سمعت منيرة حديثهن بصوت عال، ذهبت هناك، فإذا بالمطبخ، تسوده حالة من الفوضى، حيث الخادمات مجتمعات في زاوية، غارقات في تبادل النكت والأحاديث السخيفة.. زجرتهنّ قائلة:

-"ما الذي يجري هنا؟ ألا تكففن عن ثرثرتكن؟ هل أرسلتن الطعام إلى المستشفى؟ هل يوجد مطبخ آخر أسوء حالاً"

ردت إحداهن:

-"أرسلنا الغداء منذ زمان.. وسننظف المطبخ الآن.. وقد أصبحت الابنة الكبيرة بعد الزواج امرأة مسؤولة ترى كل التفاصيل، أليس كذلك يا فاطمة؟"

علقت خادمة تدعى فاطمة:

-"نعم، نعم.. صارت الابنة الكبيرة لا تلتفت إلينا.. ولا تتحدث إلا في مديح أهل زوجها.. ما عندها سيرة غيرهم..."

-"أنهين هذا الكلام المعسول ونظفن المطبخ.. لم تتركن الأطباق دون غسلها حتى تتراكم في حوض الغسيل بهذه الكثرة؟ مشكلتكم أن مساحة مطبخنا أوسع من اللازم!"

-"هل سيأتي زوجك في الليلة؟ ألا ينبغي أن نشتري بعض الدجاج؟".

-"لا حاجة للدجاج ولا بطيخ.. ألم يبق عندنا بعض اللحوم؟ يكفي ذلك. سأحضر بنفسي مرق العشاء"

-" لا أصدق أذني! متى تعلمت الابنة الكبيرة تحضير المرق؟ هذا ممتاز جداً.. وسنملأ اليوم معدتنا بالمرق الذي ستعده الابنة الكبيرة بأيديها.."

انصرفت منيرة متجهة إلى الداخل كأنها لم تسمع ما قالت الخادمات. وصلت أصوات ضحكاتهن حتى إلى قاعة الطعام.. يقضين أوقاتهن كلها في ومرح وضحك، ولو كان ذلك على حساب أعمالهن في كثير من الأحيان. فكرت منيرة أن سبب ذلك وجود عدد فوق اللزوم من الخادمات.. في الحقيقة، بإمكان أهل البيت أنفسهم القيام بكل الأعمال في غضون الوقت الذي يقضونه في إدارة تلك الجماعة الكبيرة من الخادمات وتوجيههن وتوبيخهن. ولكن، تفشل دائماً محاولات منيرة لإقناع أمها بهذا الأمر، وهي بالعكس تود أن ترى مطبخها مكتظاً دائماً بالخادمات، سواء كانت هناك أعمال تتطلب خدمتهن جميعاً أم لا، وتصبح قلقة إذا لم تحضر إحداهن يوماً لسبب ما. وما الحاجة إلى توظيف أربع خادمات في

مطبخ البيت الذي تسكن فيه فقط آمنة ونصيرة؟ وذلك إلى جانب السائق، والبستاني ومحمد. كان إعداد الطعام لهؤلاء الجماعة الكبيرة هو العمل الرئيسي الذي يجري في البيت يومياً.

-"هنا العمال أكثر من أهل البيت.. إدارتهم هي المهمة الرئيسية بالنسبة لي".

تقول ذلك آمنة لضيفاتها بصوت تبرز فيه نبرة الفخر والاعتزاز. وتضيف أن ذلك أمر معتاد في عائلتها منذ أجيال..

قبل الزواج، لم تكن منيرة تعرف حتى كيف تعد كوباً من الشاي.. بالفعل حمارة كما لقبها زوجها في لحظة غضب.. لما صنعت الشاي بنفسها لأول مرة، جعد زوجها جبينه مستهجناً بعد أن أخذ رشفة منه، إلا أن والده لم يظهر عدم إعجابه بطريقة تضايقها حيث قال لها:

-"الشاي ليس سيئاً.. لكن، لكان أحسن لو خففته بعض الشيء وسكبت فيه مزيداً من الحليب وقللت السكر.."

لما رأت زوجها يحاول كبح ضحكته وهو يغطي فمه بكفه، أخذت الكأس ورشفت منها رشفة، فأدركت أن زوجها على الحق، إذ كان الشاي مرًّا مرارة لا تكاد تطاق.. كادت أن تتقيأ من شدة مرارته وأشاحت بوجهها حتى لا يلاحظها زوجها. وفيما بعد، أخذت تتعلم من حماتها كل شيء واحداً تلو الآخر، حتى أتقنت تحديد القدر الصحيح من مسحوق الشاي والحليب والأشياء

المطلوبة لصنع فنجان من الشاي، وكذلك أصناف الطعام الأخرى.

في البداية، تكاد عيناها تدمعان حينما تدخل إلى مطبخ بيت زوجه الذي أرضيته إسمنتية خشنة، وجوه مكتوم بدخان يكاد يخنقها.. تتذكر حينها مطبخ بيتها الذي حتى أرضيته مبلطة تبليطاً ناعماً باهظ الثمن، وإن لم تكن هي تقترب أبداً من ناحيته.. لكنها لم تسمح لنفسها الاستسلام دون مقاومة.. فلم تدع تفوت عليها أي فرصة للتعلم من حماته تفاصيل فن الطبخ. في البداية، كثيراً ما جرحت أصابعها أثناء تقطيع الخضار، ودمعت عيناها حين قامت بتقشير البصل، ونزف باطن كفيها دماً أثناء بشر جوز الهند بفعل الاحتكاك بأسنان المكشطة.. ومع ذلك، استمرت في محاولتها حتى أصبحت تجيد طهي أنواع من المرق. وبقيت الصعوبة فقط في تحضير الأرز، فظلت تعتمد في ذلك على حماتها.

كان مطبخ بيت زوجها ضيقاً جداً سابقاً، لكنه تم مؤخراً إعادة بنائه وتوسيع مساحته بضم الغرفة الصغيرة المجاورة إلى مساحته، بالإضافة إلى تبليط الأرضية واستبدال النوافذ الصغيرة شبه باب قفص الطيور بشبكات حديدية كبيرة. وتم كذلك بناء مطبخ خارجي منفصل مخصص للفرن التقليدي الذي يستخدم فيه الحطب الخشبي، وكان ذلك قسم خاص بحماتها التي تجمع الحطب من قشور جوز الهند اليابسة وسعوفه، المتوافرة بغزارة في المزرعة المحيطة بالبيت، وتستخدمها حماتها للطهي في المطبخ الخارجي.

وجدت مشكلة ندرة المياه أيضاً حلها بعد ما تم تركيب المضخة الكهربائية في البئر. كانت منيرة تعرف أن كل هذه التحديثات تم تنفيذها فقط من أجلها، كيف لا وهي المكرمة المعززة في ذلك البيت الذي يسودها الصمت وجو من الاكتئاب إذا ما بدا على وجهها أدنى شيء من ملامح عدم الرضا أو خيبة أمل.. كثيرا ما شكت جميلة من باب المزح:

-"ماما وبابا لم يعودا يحبان ابنتهما.. صارت زوجة الابن هي محط الحب والتقدير في بيتنا."

-"أنت ستذهبين إلى بيت زوجك بعد زواجك، إن لم يكن ذلك اليوم فغد.. فمن سيكون لنا هنا غيرها؟"

-"لن أذهب إلى أي مكان.. سأتزوج من رجل يوافق أن يبقى معي هنا بشكل دائم، ماما، أتسمعين؟"

رد عليها أخوها لإغاظتها:

-"مجرد أماني يا فتاة! هل سننعم براحة البال ما لم نرسلك بعيدًا عنا؟

عندها يعلو صراخ محمد علي من شدة الألم وهو يقول:

يا أمي، انظري يدي.. ما أحد أظفار ابنتك.. مزقت بشرتي.. سنزوجك يا قاسية القلب من اللحام إبراهيم، صاحب العينين الجاحظتين.. فيمكنك أن تبقى هنا دائماً".

-"تزوجني من اللحام..؟ طيب، فسأقرصك أنت وزوجتك حتى الموت".

في مثل هذه اللحظات، تتراءى في ذاكرة منيرة صور بيتها وأهلها. نادراً ما رأت أمها وأباها يجلسان معاً هكذا يتبادلان الأحاديث الطريفة.. وكان بيت أبيها في واياناد يظل في سبات أبدي عميق يستيقظ منه فقط حينما يقدم جدها الحاج حسن لزيارتهم، فيضجّ بالحياة حتى يوم عودته. اغرورقت عيناها عندما تذكرت جدها. لقد كان رجلاً موفور الصحة والعافية وهو في سنه المتقدم، وإنما أضعفته المشاكل الناشبة بين والديها، وكأنها زادت من عمره أضعاف ما هو عليه.. لا تزال تتذكره منيرة وهو يقرأ الجرائد اليومية في ذلك اليوم المشؤوم، جالساً على كرسيه، وهي جالسة بجانبه، تقرأ أيضًا شيئًا ما. التفتت إليه حين سمعته يناديها "بنيتي منيرة..." فإذا به على وشك الانهيار على الأرض، لا تدري كيف استطاعت حينها حمله بين يديها قبل أن يسقط من الكرسي.. وكان كل ما فعلت لاحقاً أن تصرخ صراخاً عالياً ارتج له البيت كله.. لقد رحل جدها رحيلاً مباغتاً لن يتلملم جرحه.. لم يمر يوم دون أن تتذكره.

وصلت إلى غرفة جدها وكأن الذكريات كانت تقودها إليها. جلست على سريره العريض المزدوج واشتمت رائحته، وجدت نفسها تبحث سدى عن رائحة جدها في المكان الذي اعتاد أن ينام..

-"آه، ما أجمل رائحتك!"

كانت تقول ذلك حين يقبلها جدها وهي طفلة صغيرة،

فيغمرها بمزيد من القبلات.. إنها رائحة أيام جمعت بينها وبين جدها في سعادة غامرة.. ما أجملها من رائحة، وما أحلاها من ذكريات..

لا تتذكر أن أباها قبلها قبلة حنونة مثلها ولو مرة واحدة.. كان مشغولًا دائمًا، يعود إلى البيت في أواخر المساء، ليغير ملابسه ثم يغادر فوراً مرة أخرى، وكان لقاؤها معه فقط نظرات خاطفة تلقيها عليه خلال تلك اللحظات المعدودة.. وإذا حان وقت المغرب، تمتلئ بالناس الكراسي المبطنة أمام مكتبه. كلما يتقدم الليل، تتزايد موجات الضحك والضوضاء حدة وقوة. كثيراً ما أرادت أن تذهب هناك لتنظر إلى ما يجري بينهم، إلا أنها سرعان ما تتراجع عن إرادتها مخافة الاستئذان من أمها التي تظل واقفة مسمرة مكانها، تلقي من خلال النافذة نظرات محددة على اتجاههم وعيونها تذرف دمعاً غزيراً.

بدت في والده تغيرات كثيرة بعدما غادر من واياناد وانتقل إلى المدينة. لم يعد يأتيه في البيت جماعة كبيرة من الأصدقاء كسابق عهده. أصبح يخرج إلى المتجر في الصباح ويعود مبكرا في المساء. وفي أيام الأحد، تذهب العائلة كلها إلى الشاطئ، وتتناول العشاء في بعض المطاعم الكبيرة. يقوم بحجز طاولة لهم مسبقًا، وبمجرد أن يضع النادل أمام والدها صينية من الكؤوس الجميلة وزجاجة خمر ودلو من قطع الثلج، ينسى من معه ومن حوله، ولا ينتبه لمرور الوقت، حتى يأخذ النعاس الطفلتين بعد أن تناولتا عصير الفواكه أو الآيس كريم، أحيانًا تنام نصيرة في حضن أمها.

كانت أمها تنبه أباها قائلة:

-"اكف بهذا القدر.. أرجوك.. نصيرة نائمة ومنيرة أيضاً ناعسة.."

فتظاهر أبوها بأنه لم يسمع شيئا ولم ير شيئاً. وإذا ألحت عليه أكثر، فسيوبخها. وحين يطالع الناس، ينحني رأس أمها من الخجل وتسكت. وكثيراً ما عادوا من المطعم دون تناول كثير من الأصناف التي طلبوها. وما أكثر مثل تلك المشاهد التي انطبعت في نفسها كجروح غائرة.. عند العودة إلى البيت، لا يكون والدها في حالة يسيطر فيها على توازن جسده وصواب عقله، يتمتم بشيء أو بآخر، ولا يستطيع ركوب السيارة في معظم الأيام إلا بالاعتماد على أحد يتطوع لمساعدته.. لم تلبث والدتها أن تتوقف عن الخروج في مثل تلك النزهات العائلية.. ولم تطمئن أن ترسل العيال مع والدهم لوحدهم.

-"لسنا الآن في قريتك الغابية.. نحن في مدينتنا.. لنا فيها سمعة ومكانة.. ماذا لو رآك أحد من معارفنا وأنت سكران لا تعي ما تقول؟!"

تشتد نوبات غضبه فجأة حين يسمع تأنيب زوجته.. ولا يلبث أن يخرج من البيت مغتاظاً ولا يعود إلا مخمورا حتى الثمالة.. عندما ترى ذلك المشهد، تفقد أمها سيطرتها على نفسها، فينتهي الأمر بنشوب مشاجرة لفظية عنيفة بينهما، وكم مرة استيقظت منيرة على سماع الجلبة والصيحات.. وفي مثل تلك الأحيان كلها، كانت تهرول إلى غرفة جدها بحثاً عن ملاذ تأوي إليه.. فتجد جدها مستيقظا متألماً، مستمعاً لكل شيء..

وفي بعض الأحيان يحاول تهدئة أمها قائلاً:

-"آمنة، هو رجل لا يعي ما يقول ويفعل.. فاضبطي نفسك أنت على الأقل"

-"نعم، ضبطت نفسي حتى صارت حياتي في هذه الحالة"

ثم يعلو صوت بكاء أمها المتواصل.. إلا أن جدها لا يسمعه، لأنه يكون حينها قد استسلم لنوم أرغمه على نفسه.

تجلب ذكرى بيت والدها دائما رجفة في أوصالها.. تلك الجدران القديمة المصفرة الباهتة.. الممرات المظلمة والغرف الصغيرة الكثيرة التي تسكنها عتمة دائمة، كأنها قلعة مصاص الدماء.. جدتها امرأة ذات هيبة مرعبة، ممتلئة الجسم، قصيرة القامة، متجهمة الوجه ترتدي بلوزة بيضاء مستديرة العنق ولحافاً خفيفاً أبيض على رأسها. بلوزتها مؤطرة بشريط منمنم أحمر اللون حول عنقها وصدرها، يخيل إلى منيرة كلما تتأملها أنها دم يسيل من فم المصاصة إلى صدرها.. تظل جدتها متربعة دائمًا على كرسي الاستراحة واضعة رجليها على أذرعه الطويلة.. ينزلق غطاء شعرها دائماً إلى رقبتها، كاشفاً عن شعرها الأبيض الذي يكون دائمًا أشعث وغير مرتب. تبدو عيناها دوماً ملتهبتين بالغضب، ما تذكّر منيرة بالساحرة الشريرة في قصص الرعب. لم تشعر منيرة أبدًا بالحب لجدتها لسبب ما.. بل كانت دائماً خائفة منها.

كانت تزور جدتها مع أمها. تنتظر جدتها للقاء أمها لتبدأ في سرد

عيوب أمها وتمطر عليها باللعنات الشائنة والشتائم القذرة، ترتعد منيرة خوفاً وخجلاً من سماعها. أما أمها فتظل صامتة تتحمل كل ما تسمع بصبر بالغ، وأخيراً، تغادر الغرفة دون أن تنبس ببنت شفة، متبوعة بطفلتيها. عندها يتضاعف غضب جدتها وتقول:

-"تعالا هنا يا شيطانتين، أنتما كأمكما، لا توجد حبة عاطفة فيكما".

فترجع إليهما الطفلتان، ترتجف منيرة من الخوف، أما شقيقتها الصغيرة نصيرة فكانت لا تخاف من جدتها بل تقترب منها جرئية وتسألها:

-"جدتي، لماذا تصرخين فينا دائمًا؟ أليس هذا هو السبب في أننا لا نأتي هنا؟"

-"يا ساتر.. ألم تسمعوا ما قالته هذه الصغيرة! لقد لقنتها والدتها مثل هذا الكلام."

لن تفهم نصيرة إشارات منيرة تطلب منها التزاما بالصمت، وكانت بلغت من العمر آنذاك ثلاث أو أربع سنوات فقط. ولما تبدأ نصيرة في تقديم ردود تفصيلية مباشرة على جميع تعليقات جدتها الجارحة، تدعوها منيرة بهدوء:

-"تعالي يا صغيرتي، أمنا في انتظارنا".

-"صغيرة صغر خنصري، لكن لسانها أطول من جسمها! وتلك الكبيرة لم تعجبها أن شقيقتها تتحدث معي. كيف وهي ابنة

أمها؟ لن تقترب مني أبداً.. لن أدع الصغيرة ترجع معكم الآن.. سأرسلها لاحقاً إليكم مع أحد ما".

لا تطمئن منيرة أبدًا إلى ترك شقيقتها الصغرى عند جدتها بمفردها، فتظل واقفة حولها هنا وهناك متباطئة حتى يجيء أحد بالشاي والحلويات.. ما أحبت أبداً أن تشرب الشاي من بيت جدتها، كانت تحس أن له طعما مريرا. فتصبه خارج النافذة، إذا سنحت لها فرصة مواتية، خلسة عن عيون جدتها، أو تخبئ فنجان الشاي تحت السرير. أما نصيرة فتقول بصوت عال بعد أن أخذت رشفة من الشاي:

-"ما هذا الشاي؟ مذاقه مر.. لا أريده".

فتقول جدتها للخادمة التي أحضرت الشاي:

-"انظري ماذا علّمت تلك الأميرة بناتها! لا بد أنها أمرتهما ألا تشربا شيئاً من عندي."

كان ذلك صحيحاً إلى حد ما، فقد خافت أمها أن تتناول أي شيء من بيت جدتها. قد سمعت أمها تقول للخادمة بياثوتي:

-"هؤلاء أناس لن يترددوا في قتل من يرونه عدواً لهم.. لا أستبعد أن تقتلني تلك العجوز الوقحة بوضع بعض السم فيما تقدمه لي ولأطفالي".

كانت أمها تغادر بيت جدتها بعينين تفيضان بالدمع ووجه منتفخ من البكاء الطويل. لم تدرك منيرة أبداً لماذا تكره جدتها أمها لهذه الدرجة وتتحين كل فرصة لتنال منها؟

كثيراً ما تساءلت منيرة في نفسها عند زواجها بمنتهى القلق والخوف ما إذا كانت كل الحموات ستتصرف مع زوجات أبنائهم كما تتصرف جدتها مع أمها، إلا أن ذلك الخوف سرعان ما تلاشى بمجرد أن جاءت إلى بيت زوجها، حيث لم تتلفظ أم محمد علي أبداً بكلمة واحدة تجرح منيرة بها.. بل بالعكس، توبخ ابنها إذا تحدث معها بلا لطف ورفق.

-"أمي، لا تدلليها إلى هذه الدرجة، فستغتر وتتسلط علي".

يتعمد زوجها أحياناً إغاظتها من باب المزاح.

كانت منيرة ونصيرة كصديقين حميمين. لا تتذكر أنها تشاجرت مع أختها حتى في أيام الطفولة. كانت نصيرة أكثر قرباً لأختها من والدتها، وأحبت الاعتماد عليها في كل شؤونها دون غيرها. وكانت نصيرة تسألها وهي صغيرة:

-"أمي لا تحبنا، أليس كذلك يا أختي؟"

-"لماذا تقولين ذلك يا حبيبتي؟ نحن كل شيء لها. ألا تلبي كل رغباتنا؟"

-"صحيح، إنها تشتري لنا كل ما نريد، لكن هل يعني ذلك أنها تحبنا؟ هل تتفرغ لنا لإطعامنا والاعتناء بحمامنا وأمورنا الأخرى؟ ليس لديها الوقت حتى لتذاكر لنا دروسنا".

-" أليس هذا لأن أمنا مشغولة؟ أليست لنا الخادمات لمساعدتنا في كل ذلك؟"

-"ما الذي يشغل أمنا إلى هذه الدرجة؟"

-"لأن أبانا ليس معنا، فتكون كل المسؤوليات عليها، هي من تقوم بإدارة كل شيء في بيتنا؟"

-"لماذا لا يسكن بابا معنا هنا؟ أليس ذلك لأن أمنا تبكي دائماً وتختلق مشاكل معه إلى أن يخرج من البيت غاضباً؟"

-" حبيبتي الصغيرة... ليس ذلك هو السبب..."

-"إذن ما السبب؟ أخبريني أختي".

لم تجد منيرة ما تقنع به أختها الصغيرة وتطلعها على حقيقة الأمر. لم يكن سهلاً الإجابة بشكل مقنع على أسئلتها الكثيرة..

ولكن نصيرة كانت تصدق كل ما يقول لها زوج أختها مقتنعة به تمام الاقتناع. كانت تحترمه وتثق به جداً وهو كذلك بادلها الثقة والاحترام. يشتري لها كل كتب تطلبها، ويأتي بحلول مقنعة لكافة أسئلتها التي لا نهاية لها. تتحول نصيرة المتسمة بقلة الكلام والشخصية شبه الانطوائية إلى مثرثرة إذا كانت مع صهرها.

كان زوجها يسخر منها قائلاً:

-"أختك ليست جاهلة مثلك. إنها فتاة قارئة مطلعة ومستنيرة الفكر.. يجب أن نتيح لها فرصة لإتمام دراساتها".

كل يوم أحد، تأتي نصيرة لزيارة أختها. تتعجب منيرة حين ترى أختها تتحدث مع زوجها وتضحك معه بلا توقف إلى أن تعود

في المساء، وهي التي تكون في بيتها فتاة كتومة للغاية لا تتكلم إلا في النادر.

كانت منيرة تستعد للذهاب إلى بيتها حين جاء العامل البستاني بخبر أن نصيرة مريضة تم إدخالها إلى المستشفى. بينما كانت تقوم بحزم ملابسها، سمعت صوت السيارة أمام البيت. تساءلت لماذا أرسلت أمها السيارة قبل الوقت المتفق عليه.. خرجت إلى الفناء غير مدركة ماذا حدث، فإذا برامو، البستاني في بيتها، وهو يقول بصوت يشبه البكاء:

-"الابنة الصغيرة ليست على ما يرام... تم إدخالها إلى المستشفى..."

بمجرد سماع ذلك، أجهشت منيرة بالبكاء، فجاءت حماتها مهرولة حائرة:

-ما لك باكية؟

قال لها البستاني:

-"أخبرتها أختها في المستشفى، فلم تتمالك نفسها..."

-"ماذا فعلت؟ ألا تعرف أنها حامل؟ كان ينبغي أن لا تقول لها مثل هذا الخبر الصادم فجأة دونما تخفيف؟ لقد روعتها وأبكيتها.. انظر وجهها الشاحب لا دم فيه"

وبخته حماة منيرة وهي تحتضنها حين رأتها ترتعش من الصدمة.

واساها السائق محمد كوتي:

- " سامحيه لأنه قال كذلك من شدة قلقه عليها، إنهما بالنسبة

له بمثابة ابنتيه، كبرتا بين ذراعيه. منيرة، لا شيء يدعو للخوف على نصيرة.. إنما نقلت من المدرسة إلى مستشفى كلية الطب جراء شعورها بالدوار، زوجك واصل إلى المستشفى، هو الذي طلب مني أن آخذك إلى هناك".

هدأها السائق محمد كوتي، ثم التفت إلى البستاني رامو، يوبخه:

-"يا أحمق، أهذه طريقة إخبار الخبر؟ انظر كم هي خائفة؟"

لما همت منيرة أن تركب السيارة على الفور، منعتها حماتها قائلة:

-"عزيزتي، بدلي ملابسك قبل الخروج، سأحضر لهم شيئا يشربونه، قبل أن تنهي استحمامك."

-"خذي راحتك يا بنيتي، لا داعي للاستعجال.. أختك الآن على ما يرام."

انقياداً لإصرارهم، ذهبت منيرة داخل البيت وغيّرت ملابسها. ولما نزلت جاهزة للذهاب، كان والد زوجها أيضاً قد وصل، وعندما علم بالخبر، استقل السيارة هو أيضاً. كانت نيران الجزع تستعري داخلها طوال الطريق حتى وصلت السيارة إلى المستشفى. كانت هناك مسافة طويلة للمشي من موقف السيارة إلى حيث ترقد نصيرة. ولما وصلوا هناك، قيل لهم إنها تم نقلها من العناية المركزة إلى الغرفة العادية. ارتبكت منيرة جزعاً حين رأت أختها ملقاة على

السرير مثل ساق نبتة مائية يابسة.. وأمها تجلس بجانبها ممسكة بيدها في حالة ذهول. غير قادرة على مشاهدة المنظر، انهارت منيرة في حضن أمها.. ربت شخص ما على كتفها، نظرت للأعلى، كان ذلك زوجها، وساعدها للقيام وهو يقول:

-"لا ينبغي أن تزيدي من جزع أمك.. أختك على ما يرام.. انظري، لقد تهلل وجهها حين رأتك. ارجعي الآن إلى البيت واستريحي، يكفي أن تأتي هنا في المساء.."

استيقظت نصيرة على سماع حديثهم وفتحت عينيها. ذهبت منيرة إلى جانبها وقبلت على جبينها. شعرت بالارتياح عندما رأت ابتسامة هادئة تزين وجهها الشاحب..

-"قومي.. لقد نمت طويلاً...الوقت الآن الساعة الثانية.. أنت حامل، قد يضر جنينك أن تنامي لفترة طويلة، تعالي وتناولي الغداء.. ألا تريدين الذهاب إلى المستشفى؟ لقد وصل السائق".

لم تزل الخادمة بياثا توقظ منيرة حتى نهضت من السرير.

22

كانت نصيرة تستلقي على السرير تقرأ كتابًا، ولا تزال علامات الإعياء ظاهرة على وجهها. شعرت بتحسن كثير وستكون قادرة على مغادرة المستشفى خلال يومين. حين اتصلت سلطات المدرسة أمس لإبلاغ خبر نقلها إلى المستشفى، انتاب آمنة خوفٌ شديد لا عهد لها به، هرعت إلى المستشفى على غير وعي كامل.

كانت نصيرة ممددة فاقدة الوعي على النقالة في قسم الطوارئ، دون أحد من أهلها وأقاربها بجانبها، كأنها مشردة بلا أهل ولا مأوى. لم تطق آمنة المنظر.. انفجرت باكية وانهارت على جسد ابنتها.. ربتت ناظرة المدرسة على كتفها، فانتفضت ناهضة.. وكانت مدرسات أخرى أيضاً موجودات، ولم يحضر بعد طبيب لفحص المريضة.. لم تسبق لها تجربة الذهاب إلى مستشفى كلية الطب، فلم تكن على دراية من الإجراءات والنظم المتبعة هناك. وأخيراً حضر الأطباء على سماع صوت نحيبها. انحنت على كتف ناظرة المدرسة قائلة:

-"دعيني أنقل ابنتي إلى أحد المستشفيات الخاصة، ستتلقى هناك عناية أكثر"

غضب الطبيب حين قالت ذلك، وقال بصوت صارم إنه لا يمكن نقلها إلى أي مكان وهي في هذه الحالة. عندها، وصلت

أختها صفية وصهرها محمد علي وغيرهما من الأقارب.. ذكرتها أختها بإبلاغ الخبر الدكتور عبد الرحمن، وكانت آمنة قد نسيت أمره في خضم محنتها وهول صدمتها. الدكتور عبد الرحمن طبيبهم العائلي، وهو الذي يعالج كل مريض في عائلتهم ويعتني بشؤونهم الصحية منذ سنوات. لما علم بالخبر، جاء إلى المستشفى في عجلة من أمره.. وبعد ذلك، صارت كل الإجراءات سهلة بتدخله وتوسطه، وتمكن أيضاً من نقل نصيرة على الفور إلى قسم المرضى المدفوع لعلاجهم.

غطت نصيرة في سبات عميق طوال ذلك اليوم. فتحت عينيها بين الحين والآخر تلقي نظرة عابرة على وجوه من حولها، ثم تعود نائمة من جديد. ظهرت ابتسامة شاحبة على وجهها عندما رأت أختها منيرة. لم تبرح آمنة من عند ابنتها، أحست كما لو كانت قد خدرت في كامل جسدها، ولم تكن تسمع ما يقوله الآخرون من حولها، إذا طُلب منها أي شيء هزت رأسها ببساطة، وعيونها لم تزل مسمرة على وجه نصيرة.. لم تجد آمنة ما تواسي به ابنتها الكبرى حين انهارت باكية في حضنها، ولم تستطع حتى البكاء، هكذا كانت حالتها.

على الرغم من إجراء جميع الفحوصات، إلا أن الأطباء لم يتوصلوا إلى أي دلائل تساعدهم على تشخيص ما ألم بها. ومن عادة هؤلاء الأطباء إجراء ألف فحص على مريض ليس به سوى حمى خفيفة، وفي النهاية، ينفضون أيديهم من القضية عاجزين عن

تشخيص المرض الحقيقي.. لذلك لم تشعر آمنة بالطمأنينة حتى بعد أن أكد لها الدكتور عبد الرحمن أن نصيرة تحسنت وستصير عاجلاً على أحسن ما يرام. سألته بقلق:

-"ما الذي حدث لها فجأة يا دكتور؟ لم يكن بها شيء عندما غادرت إلى المدرسة في الصباح. لماذا لا ننقلها إلى مستشفى خاص؟"

أجابها الطبيب المعالج مواساياً إياها:

-"ثقي بنا.. هي بخير الآن ولا يوجد شيء يدعو إلى القلق. خفنا في البداية ولكن بعدما اطلعنا على نتائج الفحوصات، شعرنا بالارتياح.. هدئي روعك، لا داعي للقلق ، كل ما في الأمر أن جسم ابنتك ضعيف منهوك جدًا بشكل عام."

وأضاف أنها تعاني من سوء التغذية، أدى ذلك إلى إصابتها بفقر الدم، ما يستوجب عناية خاصة بشأن صحتها. عندما قال الطبيب ذلك، شعرت آمنة بأنها مقصرة في حق ابنتها. الدكتور عبد الرحمن شخص يعرف كل شيء عن العائلة، وكان أيضا قد شهد كثيراً من المشاجرات بينها وبين زوجها، كما أنه يعرف جمال جيدا، حاول عدة مرات تقديم المشورة له والإصلاح بينهما. وتذكرت آمنة أن الطبيب كان قد نبهها من قبل على العناية بصحة الطفلة بشكل جيد، حينما أخذتها إليه بنزلة برد أصابتها..

تعترف آمنة في داخلها أنها لم تستطع أن تولي اهتماماً كافياً لنصيرة، في خضم المشكلات العديدة التي أحاطت بها. وهذا إلى

جانب أن شخصية الطفلة تتسم بطبائع غريبة، إذا تحدثت أمها ضد رغبتها، تقطب جبينها وتعبس وجهها وتحرد وتستاء، وتهجر الكلام والطعام.

-"ما بك يا فتاة، أأمك ميتة، وجهك عابس متجهم من يومين أو ثلاثة..؟"

تسألها آمنة عندما لا تستطيع تحملها أكثر، فلا تلاقي رداً من نصيرة التي تبقى كصخرة صماء، لا يؤثرها شيء، ما يزيد من غضب أمها آمنة وقلقها على ابنتها، فتنزوي إلى خلوتها رجاء أن تهدئ نفسها بالبكاء بعد أن تمطر على ابنتها توبيخاً وعتاباً..

حين علمت أن نصيرة قالت لمنيرة إن والدتها لا تحبها، شعرت آمنة كما لو أن شخصًا ما قام بجرح قلبها بسكين. إذا وبخت الأم إبنتها لسوء تصرفاتها، هل يعني ذلك أنها لا تحب ابنتها؟ ربما تفكر كذلك لأنها لم تبلغ من العمر بعد ما تفهم فيه هذه الأشياء. لم تكن آمنة من نوع الأمهات اللاتي يداعبن عيالهن بشكل مفرط وتسرف في الاعتناء بهم، أضف إلى ذلك أن نصيرة مثل والدها، ورثت بعض صفاته أيضًا، حيث إنها صعبة المراس، سريعة الغضب والانفعال، وتظهر احتجاجها عند سماع أي شيء لا يعجبها، فتمتنع عن الكلام وتناول الطعام، وتعتزل جميع من في البيت وتلزم غرفتها المغلقة، رافضة الرد على أي أحد يناديها.

-"لديك كل الصفات السيئة لأبيك..."

يحمر وجه نصيرة بالغضب عند سماع ذلك، وتقول:

-"هل أكون مثل غير والدي...؟"

ترد آمنة:

-"اخرسي، يا شيطانة.. أنت وأبوك...."

عندها تغادر الغرفة غاضبة هائجة، تقذف بكل ما تجده في طريقها إلى الباب، تماماً مثل والدها.

أغلقت نصيرة كتابها وأغمضت عينيها غارقة في الأفكار.

-"ما الذي يشغل أفكارك عزيزتي؟ هل أعطيك شيئاً تشربيه؟"

-"أمي، ألم نسمع أن بابا ليس على ما يرام؟ ماذا حلّ به؟ أين هو؟ هل تحسّن حاله؟"

-"علمي علمك حبيبتي. حقا، أمك لا تعلم بذلك".

-"لم لا تتصلين به وتطمئنين عليه، أمي؟ أبي مسكين.. لماذا تركته وحده هناك؟ أليس هذا ما تسبب في مرضه؟ سمعت أنه كان قلقاً جداً حين علم باعتلال صحتي، حتى أثر ذلك في صحته.. وهو الآن في المستشفى، سمعت ذلك بالأمس من خالتي حينما كانت تتحدث مع الدكتور عبد الرحمن".

-"الآن لا تفكري في كل ذلك يا حبيبتي. بعدما تتحسنين، مري عليه مع أختك.. اشربي هذا الحليب الآن."

-"لماذا لا تأتين معنا أنت أيضًا، يا أمي؟"

التزمت آمنة بالصمت وقدمت كأس الحليب لابنتها، متهربة من سؤالها الملجم. أخذت نصيرة كتابها مرة أخرى، وأمسكته مفتوحاً أمام وجهها، لتخفي عن أمها أنها عادت إلى أفكارها.. طعن سؤال نصيرة عميقاً في دخيلة نفس آمنة.. تمددت على السرير مقلقة النفس، وممتلئة العينين.

"لماذا لا يمكنك أن تأتي أيضًا، يا أمي؟" - دوى سؤال الابنة في أذنيها. ما الذي يمنعها من الذهاب في الحقيقة؟ ومن سيستطيع منعها؟ أليس لا يزال زوجها؟

لكنها كبحت نفسها عن الرغبات التي سبق أن تحرمها على نفسها، حتى صارت مستحيلة التحقيق. أليست هي أيضاً امرأة من دم ولحم؟ لقد رأت منه ما رأت.. وعقدت العزم على أمره بما لا رجعة فيه.. لم تكن في البداية تصدق ما بلغتها من الأخبار عنه.. خدعت نفسها لتعتقد أنها مجرد إشاعات. لكن الأمر لم يتوقف عند ذلك، بل رأت بأم عينيها ما لا تطيق رؤيته أية امرأة، لها أقل قدر من الشرف والكرامة، وكيف يمكن لها بعد ذلك أن تعود إلى الحياة الزوجية معه مرة أخرى؟ وزيادة على ذلك، كان بالعكس يحاول تبرير أفعاله الرذيلة وأصر على ادعاءاته السخيفة، ففقدت آمنة كل صبرها. لم يكن لديه الجرأة اللازمة ليعترف أمامها بما فعل ويطلب عفوها وغفرانها، بدلاً من ذلك، تمادى في ضلاله وحاول إلقاء اللوم على زوجته أمام الناس، ونشر التهم ضدها بينهم! وما أكثر ما تقوّل عنها وما أبشعها..! رغم ذلك كله، بات قلبها قلقاً عليه عندما

علمت أنه مريض تم إدخاله إلى المستشفى. وكيف لا ، فقد عاشت معه، تتقاسم معه الأفراح والأتراح، وأنجبت منه طفلتين. عجز قلبها عن نسيانه وفشلت كل محاولاتها لطرده من ذهنها! هل تتمنى في دخيلة نفسها العودة إلى الحياة معه مرة أخرى!؟

لقد سمعت أن عواقب أفعاله وصلت به الآن إلى حالة يرثى لها. خسر جل ما كان يملك.. وابتعد عن والدته، تدهورت صحته وأخذت منه الأمراض مأخذها.. حياة غارقة في الخمور والمخدرات، وبيته يدخله كل من هب ودب.. معاملاته مع الرعاع وأراذل الناس، كل ذلك ما لا يكون بمقدورها تحملها.

لكل طريقته الخاصة، أحياناً تميل أن تفكر هكذا من الجهة المقابلةٍ، لماذا لا تخوض التجربة مرة أخرى؟ هلا يستمع إليها إذا حاولت إقناعه بلغة الحب والإخلاص؟ كيف يمكنها أن تكون مجرد متفرجة صامتة حين يلقي نفسه إلى التهلكة؟ أليس من الأفضل أن تحاول ولو مرة أخرى..؟ ولكن كيف يمكنها العودة إلى الحياة معه؟ ماذا سيقول الناس؟ كيف سيتصرف تجاهها؟ لا تتوقع أنها ستتلقى ترحيباً حاراً من الذي يحاول جاهداً أن يشيع بين الناس أنها هي التي دمرت حياته، ويسرد على رؤوس الأشهاد قائمة أخطائها وعيوبها. هل تعرض نفسها للوم مرة أخرى؟ لم تكن لديها القدرة على مقاومة الظروف والتغلب عليها.

نظرت آمنة إلى وجه ابنتها نصيرة، الذي ارتسمت عليها سحابة من الاستياء والتوتر. ربما كانت تفكر في والدها. لم تعد

نصيرة طفلة صغيرة، وقد بلغت من العمر ما تستوعب فيه مغزى ما ترى وتسمع. لا تطيق آمنة رؤية طفلتيها غارقتين في حزن واستياء، فلا تتأخر أبداً عن تحقيق رغباتهما. ومع ذلك، ظلت نصيرة دائمًا بعيدة عنها قلبياً، لا تتحدث معها بقلب صريح مفتوح، وكأنها توجد بينهما فجوة ومسافة.. ربما تعتقد نصيرة أن والدهما تخلى عنهما بسبب أمهما؟

كلما كبرت نصيرة، حاولت الابتعاد من الجميع، كأنها تشعر بالامتعاض تجاه كل شخص وكل شيء حولها. وكانت أختها منيرة هي الشخص الوحيد الذي تقربت منه. وبعد زواج منيرة وانتقالها اللاحق إلى بيت زوجها، أصبحت نصيرة مختفية أكثر داخل القوقعة التي نسجتها حول نفسها. اكتفت بالإيماء برأسها إجابة على كل سؤال موجه إليها.. شعرت آمنة بالغضب عندما رأت جدية نصيرة وصمتها الذي لم يناسب عمرها، ألا ينبغي أن تكون للأطفال طبائعهم الطفولية؟ لا تتناول الطعام ولا تستحم إلا إذا أجبرتها عليه أمها.. وحين تستجيب تتصرف كما لو كانت تسدي معروفاً لشخص ما. إذا وبختها أمها، تتظاهر بعدم سماعها. تتهرب من حضور حفلات الزفاف والمناسبات الأخرى. ولا تحب حتى الذهاب لمشاهدة السينما. تفضل العزلة داخل غرفتها بعد ما عادت من مدرستها.

تشتكي الخادمة بيثاثا دائماً:

-"لم تتصرف هذه الطفلة هكذا؟ لا تهتم بنفسها، لا تستحم في الوقت المحدد، ولا تضع الزيت على شعرها. ألا ترى، فقد شعرها

لونه الأسود وصار بني اللون وتساقط منه نصفه؟ ولا تأكل حتى القدر الذي يأكله العصفور.. كانت في السابق عند عودتها من المدرسة، إذا لم تر الشاي والمكسرات المصاحبة على الطاولة، فلن ننعم بسلام، أما الآن لا تأتي لتناول الشاي حتى لو دعوناها مرات كثيرة..".

بسبب تذمر الخادمة المتواصل، نادت آمنة ابنتها ووبختها:

-"نصيرة، ألا يمكنك أن تطلب من الخادمات إعداد ما يعجبك من الطعام؟ هل تظنين نفسك صغيرة؟ لقد كبرت الآن، ولا تزالين في حاجة إلى شخص يقوم بإطعامك؟ لماذا تبدين دائمًا متجهمة وعابسة؟"

كانت عادة نصيرة هي التزام الصمت في مثل هذه الأوقات. لكن في ذلك اليوم، رفعت صوتها في وجه أمها قائلة:

-"ماذا ستخسرين، يا أمي، إذا لم آكل؟ لا تتدخلي في أموري"

-"ومن سيخسر غيري بذلك؟ أبوك؟ إذا أصابك مرض، فلن يكون أبوك هنا لرعايتك، ولن تجدي غيري ليتحمل معك ذلك أيضاً.. ألاحظ فيك تغيرات ونزعات للتحرر هذه الأيام، كل ذلك بسبب إسرافي في تدليلك وملاطفتك".

-"لا أريدك أن تعتني بي إذا مرضت يا أمي.."

قالت نصيرة وهي تركض إلى غرفتها باكية.

وقفت آمنة مصعوقة لفترة طويلة، دون أن تفهم ما قصدته نصيرة. هل تريد أن تعيش مع والدها؟ قررت آمنة معرفة ما كان يدور في خلدها وتوجهت إلى غرفتها، لكن تلاشت كل ما استجمعته من الإرادة عندما رأت ابنتها مستلقية على الفراش وهي تبكي. رقّ لها قلبها، وركضت نحوها وضمتها إلى صدرها، فانتحبت نصيرة غارسة وجهها في صدر أمها التي تسألها:

-"ما لك يا عزيزتي؟ ها؟ لماذا تبكين؟ ماذا تريدين، حبيبتي؟ أخبري أمك ماذا تريدين. قالت لك أمك هكذا من شدة القلق عليك، من ستقلق عليك غير أمك حبيبتي إذا لم تتناولي الطعام حتى تمرضين؟ ومن لي سواكما الاثنتين؟ ماذا تعرفين حبيبتي عن أبيك؟ الله وحده يعرف مقدار الدموع التي ذرفتها أمك؟ كان كل شيء من أجلكما، أرجوكما ألا تكرها أمكما، هل ترغبين في لقاء بابا؟ لن أمانع من رغبتك يا عزيزتي..".

-"ليس بي شيء ولا أريد أن أرى أحداً.."

على الرغم من أن نصيرة قالت ذلك بصوت حازم، إلا أن آمنة استشعرت نبرة حزن في صوتها، مما أوضح لها عمق الجرح الذي في قلب نصيرة في موضوع والدها. بينما يكبر أطفال الجيران والأقرباء في جو مليء بحب آبائهم، نشأت طفلتاها تسمعان فقط بكاء والدتهم منذ صغرهما. نسيت في خضم مآسيها أن تظهر لهما حبها وحنانها. بعد انفصالها عن زوجها، بقيت وحيدة في العالم حولها، قامت بتشييد حصن منيع حول نفسها، إلا أنها كانت في الحقيقة تجعل

نفسها سجينة داخله. لم تسمح لأحد بالدخول داخل ذلك الحصن، ولا حتى أطفالها. لم تكن تريد من أي شخص آخر أن يعرف أحزانها ومآسيها ولم تكلف نفسها عناء التفكير فيمن حولها خارج حصنها. استمر والدها حتى وفاته في محاولته لتحطيم ذلك الحصن الذي حاصرت ابنته نفسها داخله، لكنها كانت تجرحه بكلمات قاسية بهدف إحباط محاولاته، فتوفي الأب وهو يعاني من آلامها.

كثيراً ما نصحها والدها قائلاً:

-"كان لي زوجك جمال بمثابة ابني. ولم أتوقع منه أبداً مثل هذه الأفعال. ليس قلبك الذي طعنه وجرحه بل قلب أبيك، ولن يستطيع أبوك أن يقف صامداً في وجوه مثل هذه الصدمات لفترة طويلة. لكن لا تضيعي حياتك في البكاء، ومن غيرك لبناتك؟ حاولي أن تضبط أمورك بنفسك من خلال إدارة أعمالك، سيكون الله دائمًا في عونك"

امرأة ليس معها زوجها وليس لها أبناء ذكور، ولكنها تملك قدراً هائلاً من الثروة والممتلكات التي لا يلبث أن يستولي عليها الآخرون، إن لم يعتنِ بها أحد معني بها، أو يكون مصيرها الضياع. تضرعت آمنة إلى الله تعالى سائلة منه التوفيق والقوة على مواجهة كل شيء بثبات وصلابة. عندما أيقنت من قدرة نفسها على مواجهة الحياة، وقررت عدم العيش مع زوجها قراراً لا رجعة فيه، وصممت على تنفيذه حتى عندما اعترض بعض الأقارب والأحباب، مضت قدماً في سبيلها بدون طلب آراء بناتها. تعهدت في نفسها أن توفر لهما

حياة لا تشعران فيها أبداً بغياب والدهما. سدت جميع احتياجاتهما وقامت بأعمال رب الأسرة وربتهما في وقت واحد على أحسن وجه. اتخذت كل الاحتياطات الوقائية من التعرض للخداع الذي قد ينطلي عليها فقط بسبب أنها امرأة.. راقبت كافة الإجراءات بعناية وأتقنت حسابات المعاملات.. بدأ الناس يتقولون عنها أشياء حين تحولت من امرأة منحصرة داخل بيتها إلى سيدة أعمال ناجحة، قال الحساد إن ابنة الحاج حسن مانيكوت تشوه سمعة أسرتها العريقة. ولكن آمنة كانت حينها قد اكتسبت الشجاعة الكافية للوقوف في وجه كل الانتقادات.

لم تقصر في شيء، أنفقت المال ببذخ وكسبت أيضاً الكثير من الناحية الأخرى. هل نسيت وسط كل ذلك أمور بناتها؟ على الرغم من أن قلبها كان مليئًا بالحب لهما، إلا أنها لم تكن تعرف كيف تظهره لهما حتى ترضيان. لقد فهمت الابنة الكبرى، منيرة والدتها ومدى حبها لعيالها، أما هذه الصغرى، نصيرة، ففشلت أن تر قلب أمها، ربما أنها لم تبلغ من العمر ما يكفي لفهمها.. يا لها من فتاة مسكينة !. كانت تكبت مشاعرها وأحزانها داخلها، تحول قلقها إلى مرض جسدي. إذا كان الرجل الذي يسمى نفسه والدها يعرف الشعور المختنق لهذا القلب الرقيق! آلمت تلك الأفكار قلب آمنة، فتنهدت بصوت مسموع، بل كانت تحاول كبح بكائها.

نظرت نصيرة إلى وجه أمها حين سمعت الصوت، وسألتها:

-"أمي، لماذا تبكين؟ ألم يخبرك الطبيب عدة مرات أني على

مايرام؟ لن أسيء التصرف معك بعد الآن أمي. سآتي معك كلما خرجت. سأطيعك دائمًا... أليس هذا يسرك؟ لا تبكي، حتى لا تمرضين يا أمي.."

-"يا حبيبتي، ستُشفى أمراض أمك بمجرد أن ترى وجهك المبتسم".

قبلت آمنة جبينها. حينها دخلت الممرضة.. وضعت مقياس الحرارة تحت لسان نصيرة وقرأت أيضًا نبضها. عند رؤيتها تكتب شيئًا ما، سألتها آمنة:

-"هل لديها حمى؟"

-"لا. كل شيء طبيعي. ابنتك شطورة، اطمئني، هي على أحسن ما يرام.

بعدما غادرت الممرضة، رجعت آمنة إلى سرير نصيرة وجلست بالقرب من رأسها. قالت نصيرة:

-"أمي، سأعود إلى المدرسة بعد غد".

-"استريحي بضعة أيام."

-"ما يصير أمي.. هل تعرفين مقدار الملاحظات التي يجب علي نسخها؟"

-"سأساعدك في نسخها. على أي حال، سنستشير الطبيب حين يأتي"

-"أنا بخير يا أمي.. في ذلك اليوم، ذهبت إلى المدرسة دون أن أتناول الفطور. لهذا السبب شعرت بالدوار. ألم يعد كل شيء طبيعيًا الآن؟ وسآكل كل ما تقدمينه لي بمجرد وصولنا إلى بيتنا.. وسأصبح كبقرة سمينة مثل أختي منيرة. هل ستقيم أختي معنا بعض الأيام.. عسى زوجها أيضاً يأتي كل يوم.. على أي حال، لن أشعر بالملل لبعض الأيام القادمة، ما كانا عندنا"

-"ألن تذهب أختك بعد أيام قليلة؟ عاجلاً أم آجلاً، ستذهبين أنت أيضًا. من الذي سيبقى عند ماما؟ ماما وحيدة".

-"لن أذهب إلى أي مكان. لا أريد أن يتزوجني أحد ويذهب بي إلى أي مكان، ليتشاجر معي طول الوقت..".

-"هل كل الزوجان يتشاجران طول الوقت؟ إنما لم تكتب لي المشيئة الإلهية حياة هادئة. لا تتوقعي أن يكون كذلك مصير الجميع.."

-"لو كان مصيري أيضا مثلك..."

-"حبيبتي... لا تتفوهي بمثل هذه الأشياء!. الساعة الثانية عشرة الآن ولم يحن الغداء بعد. هل أقشر لك برتقالة؟"

نهضت آمنة لإغلاق الباب، فسمعت صوتًا في الممر. هل أصبحت حالة الحاج المريض الذي تم إدخاله إلى الغرفة المجاورة أسوأ؟ تعرفت آمنة على زوجته بالبارحة. خرجت إلى الممر، بنية زيارة غرفتهم. فلم تجد الضجة من تلك الغرفة، بل من الطرف

الآخر من الممر الطويل. يتقدم من هنالك رجل، يصرخ ويضرب كل شيء في غضب، والناس ملتفون حوله. وقفت تنظر إليه.. لم يزل يتقدم إلى حيث تقف، إلا أنها لم تتمكن بعد من رؤية الرجل الذي يصرخ، حيث إنه مغلف بحشد من الناس.. وكان الرجل يحاول أن ينتفض راكضاً، دافعاً الناس عن جسمه.

أرهفت آمنة أذنيها نحو صوت ذلك الرجل.. كأنه صوت تعرفه.. نعم، لقد سمعته في مكان ما. بل هو الصوت الذي لا تزال تسمعه كل حين في داخلها.. وهو ذلك الصوت المألوف.. تكلم الرجل صارخاً:

-"من أنتم لتمنعوني؟ أريد أن أرى ابنتي؟ أفلتوا يدي.. هل تستفزون جمال؟... يا أوغاد... ألم أقل لكم دعوني أن أرى ابنتي.."

تمنت لو تحظى بلمحة إلى صاحب الصوت الذي تعرفه حق المعرفة! كم مرة تمنت رؤيته! لكن لم ترغب في رؤيته وهو بهذه الحالة.. أغلقت عينيها بقوة.. وسدت أذنيها بيديها..

23

فزعت منيرة حين رأت الناس متجمعين أمام غرفة أختها نصيرة بالمستشفى. شعرت أنها فقدت طاقة جسمها ولم تعد قادرة على أن تخطو خطوة، لا إلى الأمام ولا إلى الوراء.. أوشك إنهاك شديد يطحن كل أطرافها.. ما الذي ألم بنصيرة التي رأيتها حتى البارحة وهي فرحة مبتهجة وممتلئة الحيوية.. ولم تقل لي أمي أيضاً شيئاً حين اتصلت بها قبل قليل.. تساءلت منيرة وهي تهرول إلى غرفة نصيرة. لم تتمكن منيرة من الدخول إليها حيث كان عدد كبير من الناس مكتظين أمامها..

-"ممكن تتنحون قليلاً عن الطريق.. دعوني أدخل".

طلبت منهم منيرة بصوت عال.

-"إنها ابنته الكبرى، دعوها تدخل."

قالت امرأة مرافقة لمريض الغرفة المجاورة، فتنحى الناس عن الباب. دخلت منيرة ووقفت هنيهة محتارة مما رأت داخل الغرفة، يتشاجر والدها مع رجال يحاولون منعه من الدخول، ويصرخ في وجوههم، يستحيل كلامه إلى الهراء والهذيان.. تبكي نصيرة مذهولة بصوت عال.

-"لا تبك يا بنيتي.. أبوك بخير وليس به شيء.. إنما هؤلاء الناس هم يفتعلون..."

يقول والدها لنصيرة محاولاً تهدئة روعها ويقف إلى جانبه الدكتور رحمن قلقاً مضطربًا، ويرافقه أطباء آخرون كذلك.

استفسر جمال:

-"ما الأمر حبيبتي؟ أين والدتك؟"

تقف آمنة منعزلة إلى إحدى زوايا الغرفة، مغمضة العينين وتسد أذنيها بيديها، كأنها لم تكن على علم بما كان يجري في الغرفة.

سألت منيرة لوالدها:

-"بابا، لماذا أتيت هنا الآن وأنت في هذه الحالة؟"

-"أليس من حقي زيارة ابنتي؟ وكيف لا آتي وقد سمعت أن ابنتي الحبيبة ليست على ما يرام؟.

-"أهكذا تزور ابنتك في المستشفى؟ وأين كنت طوال كل هذه السنوات؟ ألم تكن قد نسيتنا جميعا؟ لم يكن لديك الوقت لمسح دموع أمي، ولماذا تتظاهر بحبنا الآن؟"

-"ألا تسمعون محاضرة ابنتي؟ لقد أصبحت كبيرة...ههههه انظر أيها الدكتور، ابنتي هذه مثل أمها تماماً... ألم ترها تغضب وتستشيط؟"

-"بابا، الناس كلهم وقوف يطالعوننا، لا تفتعل المشاكل ولا

تصنع أمامهم بلبلة.. لا تفضح أمامهم أمرنا جميعاً..! يا دكتور، أرجوك اطلب من الناس أن ينصرفوا..".

كادت أن ترفع منيرة يدها لإخراج والدها من الغرفة وإغلاق الباب عليه. يا للعار! والدها يتصرف كمجنون اعتراه أشد نوبات جنونه، على مرأى ومشهد من القريب والبعيد.. وكان قد تخلى حتى اليوم عن زوجته وعياله، منجراً مع نصائح بعض أصدقائه الشريرين.. وعاش معهم حياة وضيعة استباح فيها كل الملذات والمحظورات...

لم تتوقف نصيرة عن البكاء!!. جلست منيرة بالقرب منها وقالت وتحكم نبرة الامتعاض صوتها:

-"لماذا تصيحين هكذا يا فتاة؟ هل تودين أن يتفاقم مرضك بالبكاء المتواصل؟."

قال الدكتور عبد الرحمن:

-"يا جمال، دعنا نذهب ونجلس في مكتبي.. أحسن أن نترك البنات لحالهن الآن دون إزعاج.. أخرجي أيها الممرضة هؤلاء الناس من الغرفة."

نهرت الممرضة الناس المتجمعين أمام الغرفة، إلى أن انصرف الجميع، واحداً تلو الآخر، إلا أنهم ظلوا متجمعين في حلقات متفرقة في الممر، غير بعيدين عن غرفة نصيرة.. أغلقت الممرضة باب الغرفة. جلس جمال على كرسي، شعرت منيرة بالخوف من رؤية وجهه وعينيه المحمرتين، فأشاحت بوجهها..

سألت منيرة أختها:

-" نصيرة.. هل تناولت الغداء؟"

لم ترد عليها نصيرة التي كانت لا تزال تبكي مستلقية على بطنها.

-"بابا. لماذا تجعلها تبكي هكذا؟"

عندها، قام والدها يقفز نحوها وصاح فيها:

-"ماذا قلت أنت؟ هل أنا الذي أبكيها؟ أمك هي التي أبكتني.. أمك التي لا تريدني.. وتود الزواج من رجل آخر، ولذلك طالبت بالطلاق.. والآن أنت تقولين أنا الذي أبكي ابنتي....؟!"

هربت منيرة إلى أمها وعانقتها حين رأت والدها يتوجه نحوها ليضربها..

-"أمي، أنت لا تزالين واقفة متجمدة؟ افتحي عينيك وانظري، قبل أن يدمر بابا كل شيء."

-"صحيح... سأدمر كل شيء... كل شيء"

صاح جمال بصوت عالٍ يصل صداه إلى أقصى الدنيا. دفع بعنف يد الدكتور عبد الرحمن الذي اقترب منه محاولاً تهدئته، ثم بدأ في رمي كل ما أمكنه الوصول إليه بيده، وقلب الغرفة رأساً على عقب، وسرعان ما تحولت إلى شبه ساحة قتال عنيف. فتحت آمنة عينيها على سماع هذه الضوضاء.. ونظرت إلى زوجها نظرة.. شعر متطاير أشعث.. عينان غائرتان.. لحية بيضها المشيب وانحصرت

في منطقة الذقن.. إزار على وشك أن ينزلق من خاصرته في أي لحظة.. قميص مكرمش... هيئة تشبه المجنون تماماً.

تذكرت آمنة منظر جمال وهو في إطلالة العريس يوم زفافهما... الإزار الأبيض الناصع.. القميص الأبيض كامل الأكمام، الشعر المجعد الجميل، الخدان الممتلآن... الوشاح الحريري الذي يطوق عنقه.. النظرات المغازلة التي ترمي بها نحوها عيونه الثاقبة.. ويحتضن الجو روائح عطور الياسمين.. أحاديثه المعسولة ليلة عمرهما.. ملامح الخجل التي عشعشت في عيونها... الشعرات الناعمة على ذراعيه الرشيقتين حين رفع وجهها بكلتا كفيه.. لمساته الأولى التي دغدغت عواطفها وحنت رأسها خجلاً أسفل وأسفل..

بكت آمنة في داخلها بصوت عال لن يسمعه غيرها..

-"آمنة، ألم تسمعي ما قالته ابنتك... تقول إنني أزعجكم وزيارتي تضايقكم.. هل هذا صحيح؟ هل تتفقين معها؟ قولي لا، قولي لست مزعجكم، بصوت عال حتى يسمع الجميع.. ليس بي أي مشكلة ولا مرض.. انظري يا آمنة أنا في حالة طبيعية تماماً.. طبيعية بكل معنى الكلمة.. " لا تبكي منيرة وأنت عزيزة بابا، سأحضر لك شوكالات كادبوري"

اشتد بكاء نصيرة أكثر حين سمعت ما قال لها أبوها. عندها تغيرت ملامح جمال فجأة وصاح:

-"ألم أقل لك لا تبكي. أقول لك أنا أبوك لا تبكي. وإذا بكيت، سأطلق النار.. سأطلق النار على الجميع".

ثم ضحك ضحكة عالية مجلجلة متقطعة كأنها طلقات مدفع رشاش انطلقت منه خطأ.. فتحول بكاء نصيرة إلى نحيب وشهيق.

-"أنت شطورة.. أبوك لا يحب أي شخص يبكي. أمك أيضاً مثلك، تبكي دائماً بلا سبب. لا جمال للمرأة الباكية.. بل اضحكي.. اضحكي مثل أبيك ضحكات عالية.. هاها ها "

ظلت آمنة تحدق في جمال دون أن تغمض عينيها ولو مرة واحدة. وصل إلى عتبة الشيخوخة.. أصبح تقريباً أصلع الرأس بالكامل، وقد اشتعل شيباً الشعر المتبقي على رأسه.. أين ذهب شعره المجعد الداكن؟ الشعر الذي كان دائما يعتني به يدهنه ويمشطه؟ وكيف بهت لمعان وجهه البشوش؟ تلاشى منه كل شيء ما عدا روائح بودرة ياردلي المعطرة للجسم ومستحضر ما بعد الحلاقة المعطر، والتي تظل عالقة في جو الغرفة.

عادت بآمنة ذكرياتها إلى الأيام المنصرمة.. سألها جمال مرة وهو يرتدي ملابسه:

-" آمنة، الآن كيف أبدو؟ ألم أكن كالعريس؟"

-"تتمنى أن تكون عريساً طول حياتك؟ إلى أين تنزل بهذه الإطلالة والأناقة وقت المغرب؟"

-"عندي مقابلة مع شخص هام، وسأعود بسرعة، ولن أتأخر."

-"هل ستكون عودتك بقدميك، أم تكون مخموراً يمشي بعدة أقدام؟"

-"والله، لقد سئمت منك. تنغصين اللحظات التي أتجهز فيها للخروج؟ يفقد وجهك جمالها حين تغضبين.. جمال المرأة في وجهها السعيد...

-"أدري أنك لم تعد ترى الجمال في وجهي.. وأن صديقك الشرير حمزة يعرض لك الوجوه الجميلة.. يا ساتر.. استر يا رب.

-"ربنا يخلصني منك! بدأت دموع النفاق تذرف! ألم أخبرك بلغتك الأم عندي مقابلة مع شخص"

-"ذلك الشخص رجل أو امرأة؟ أناقتك وإطلالتك تكشف أنها..."

-"كيف تتجرأين على استجوابي وتحقيقي؟ أنا حر أن أذهب إلى أي مكان أشاء.. ماذا ستفعلين لو لم أبين لك الغرض والسبب؟ والله، لقد مللت منك".

-"الآن أنت مللت مني، طبعا لا حاجة لك في تفل الشاي بعد أن شربت عصارته.. واليوم صرت خردة عجوزاً؟

لكنه كان قد خرج مسرعاً دون أن يسمع ما قالت، وبدون أن يودعها، كعادته.

ومن يقيم لدموعها وزناً وقيمة؟ ومن لها أن تمسحها عن خدها وروحها؟ بحلق في وجهها الخوف الذي سكن عيون بناتها.. لا تملك الفتاتان البائستان شيئاً سوى الانسحاب إلى زوايا البيت المظلمة، مكفكفتين دموعهما، كلما تريان أمهما تهرب إلى غرفتها باكية وتنهار على سريرها..

كانت آمنة في البداية تحمل في داخلها بحيرة عميقة من الحب لزوجها، ولكن تلك البحيرة نزفت وجفت شيئاً فشيئاً مع السيول الجارفة من دموعها.. لا.. ليس هكذا.. ما جفت مياهها كلياً.. ولا تزال فيها رطوبة من الحب الذي تكنه له في دخيلة نفسها؟ وتلك هي رطوبة لن تجف ما دامت على قيد الحياة...

نهضت آمنة من غياهب الذكريات على سماع تلك الضحكات المتجلجلة.. من الذي يضحك؟ لماذا يضحك؟ هل فقدت آمنة قدرتها على الضحك؟

تملأ جو الغرفة أصوات الصراخ والصخب والضحكات، والأشياء المختلفة التي تطيح على الأرض وتتحطم.. كان جمال يقاوم بقوة كل من يحاول منعه وإيقافه.. يقذفهم بالسب والشتائم القذرة. ولا يعير أذنا صاغية لما يقوله الدكتور عبد الرحمن في محاولة تهدئته وتسكينه. أخيراً أمر الدكتور الممرضة بإحضار رجلين للمساعدة وإعطاء جمال حقنة التسكين.

امتنع جمال عن الاستلقاء على السرير رغم أن الدكتور أمره بذلك مرات، فتعاون الجميع في التغلب عليه بالقوة حتى أضجعوه على السرير وهو لا يزال يحاول الهروب دافعاً كل من يمسكه، فربطوا ذراعيه وساقيه بملاءة السرير إلى قوائم السرير. وحدها آمنة كانت لا تزال واقفة في مكانها، تتفرج المشهد كله دون حراك، وكانت تود منعهم حين ربطوا يديه ورجليه، ولكنها أحست بأن شيئاً ما يمسك بقدميها حتى لا تتحرك من مكانها لإنقاذه. حقنته

الممرضة، وما لبث أن وصلت النقالة.

-"لا تمسني أحد... لا تؤذوني... يا لهفي.. بناتي هنا.. آمنة، أرجوك قولي لهم ألا يؤذوني دعوهم يطلقوني... أنا...".

ترجى جمال بصوت عال تحكمه نبرة التحسر والاستياء.. وعيناه غارقتان في التعابير عن بؤسه ومآسيه. كان يستنجد ويتسول للحب والرأفة.. يبكي بكاء المذبوح.. بل كان ينتحب..

حقنه مرة أخرى.. ظلت آمنة تشهد الموقف وهم يضعونه على النقالة.. إلا أنها تسمرت مكانها كأنها صخرة ضخمة صماء لن يحركها شيء.. انطبقت جفونها شيئا فشيئا.. ولم تزل شفتاه تهمهم بالاستنجاد بآمنة.. آمنة وحدها".

انهارت آمنة. لم تعد تطيق على رؤية شيء.. أطبقت عينيها بشدة.. وتناهى إلى مسامعها صوت النقالة التي تتدحرج مبتعداً على امتداد الممر الطويل.. يحس بنحيب تسمعه من بعيد.. وخرقت أذنيها أيضاً صرخات ابنتيها.. شعرت بالدوار.. انهار جسدها، لم تعد قدماها تقويان على حملها.. خيل إليها أنها انطلقت تطير نحو كبد السماء. وها هي ذه النقالة تنطلق أمامها إلى السماء.. وهي تتبعها غير بعيدة عنها كأنها حارستها المتأهبة.. فجأة اختفت النقالة عن أنظارها.. لم تستطع رؤية أي شيء.. حلت السحب السوداء تغطي كل شيء.. انتشر الظلام في أرجاء الكون.. وقفت آمنة مذهولة تحت تلك السماء المظلمة التي لن يمكنها اختراقها.

عن الكاتبة:

بي. أم. زهراء من أبرز الكاتبات المسلمات من ولاية كيرالا الهندية. ولدت زهراء في قرية بايولي من محافظة كاليكوت بكيرالا. وتبرز باعتبارها صوتاً نسائياً مسموعاً يمثل المجتمع المسلم بين أوساط الأدباء والقراء، ويلفت الأنظار إلى معانات جيلها من النساء المسلمات، بأسلوب توصيفي بسيط وقريب من الواقعية. من أهم أعمالها "الطلاق" / "ضوء القمر"/ "الحلم"/ "الظل" بالإضافة إلى مختارات من كتب الأطفال. حازت على جائزة أكاديمية كيرالا للآداب، أرقى الجوائز الأدبية في كيرالا، عام 2008 لإسهاماتها الإبداعية العامة، إلى جانب جوائز مرموقة أخرى مثل جائزة لاليتامبيكا التذكارية (1992) وجائزة كي بالاكريشنان (2004).

وقد كتب عنها أحد أهم النقاد في كيرالا أنها أزاحت الستار عن معاناة المرأة الهندية المسلمة التي كانت تشكل لغزاً لباقي المجتمعات الهندية، حيث لم يسبق لامرأة مسلمة من المجتمع الهندي أن صاغت آلامها بنفسها ولطالما كان الحديث عنها يأتي على لسان كاتب من خارج مجتمعها. وهنا تكمن أهمية زهراء كصوت نسائي نادر من داخل المجتمع الإسلامي في الهند.

عن المترجم:

سهيل عبد الحكيم الوافي، من ولاية كيرالا – الهند. ماجستير في الدراسات الإسلامية والأدب العربي من كلية الشيخ أبو بكر – تنسيق الكليات الإسلامية (CIC)، ومن جامعة عليكراه الإسلامية. يعمل حالياً مترجماً في الدوحة – قطر. من أعماله باللغة العربية: "العربية بين الفصحى والعامية" (عن دار النفائس اللبنانية - 2017) و"أيام الماعز" – ترجمة رواية Goat Days (عن مكتبة آفاق الكويتية - 2014) و"رفيقة الصبا" ترجمة رواية Childhood Friend (عن الدار العربية للعلوم ناشرون اللبنانية – 2019).